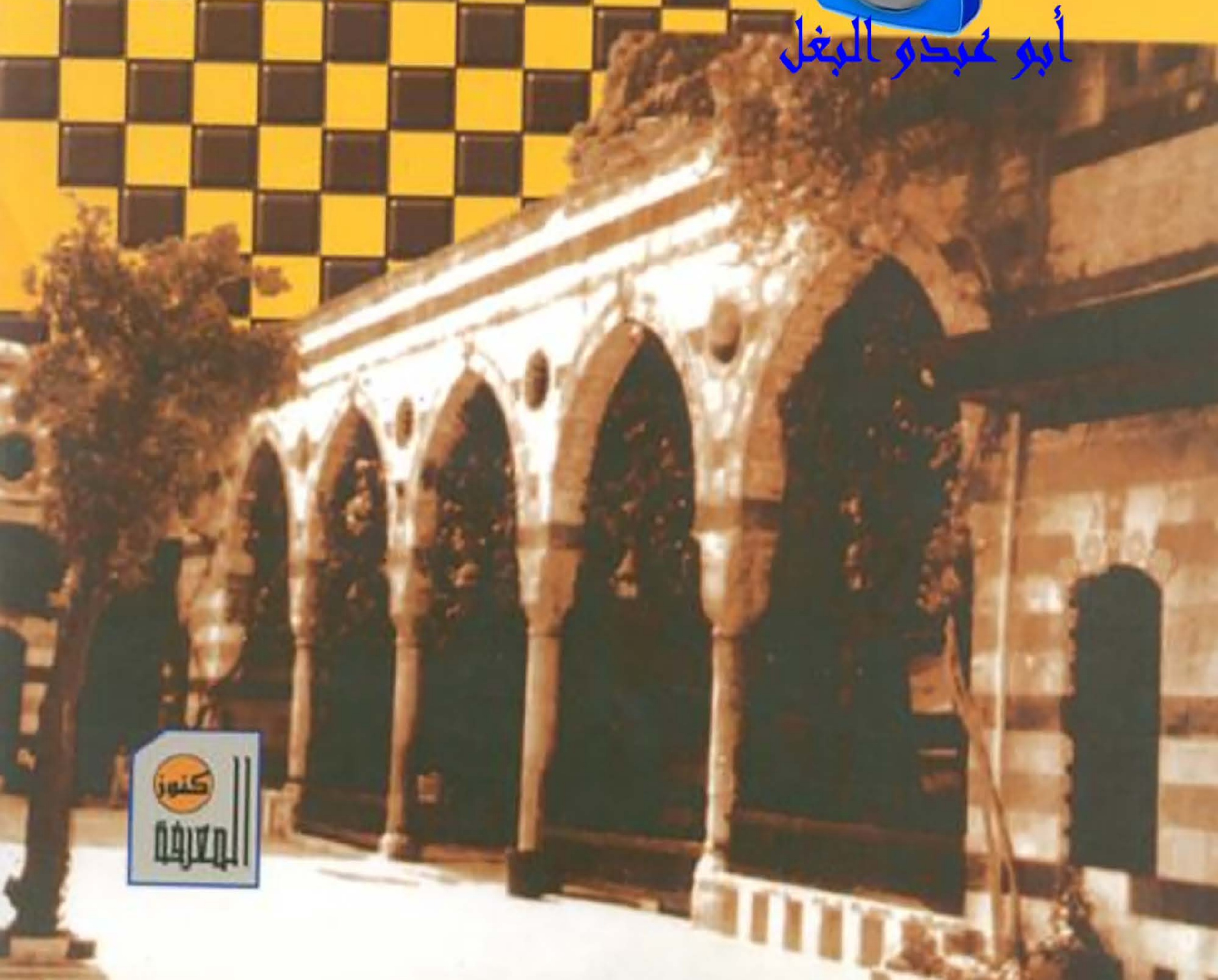
RAFEEQ ALATHEM

تأليف الدكتور : بسام البطوش

رفيق العظم
مفكراً ومصلحاً

دراسة في فكره ودوره في الحركة الإصلاحية العربية



كنوز المعرفة

رفيق العظم مفكراً ومصلحاً

دراسة في فكره ودوره في الحركة الإصلاحية العربية

رفيق العظم مفكراً ومصلحاً

دراسة في فكره ودوره في الحركة الإصلاحية العربية

تأليف

د. بسام عبد السلام البطوش

الطبعة الأولى

١٤٢٨ - ٢٠٠٧م

كنوز المعرفة

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر (٦٢٨/ ٣/ ٢٠٠٧)

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٥٩٣/ ٣/ ٢٠٠٧)

٩٢٣,٥٦

البطوش، بسام عبدالسلام

رفيق العظم مفكراً ومصلحاً: دراسات في فكره ودوره في الحركة الإصلاحية

عمان: دار كنوز المعرفة ٢٠٠٧.

(٢٠٠) ص.

ر.أ: (٥٩٣/ ٣/ ٢٠٠٧)

الواصفات: /السياسيون/ / الثورة العربية الكبرى/ التراجم/ التاريخ العربي/ / البلدان العربية

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري

تلفون: 4655877 6 962+ - فاكس: 4655875 6 962+

موبايل: 5525494 79 962+ - ص. ب 712577 عمان

الموقع الإلكتروني: www.darkonoz.com

إيميل: info@darkonoz.com - dar_konoz@yahoo.com

المحتويات

المقدمة

عاش رفيق العظم (١٨٦٥ – ١٩٢٥)، خلال فترة حاسمة ومفصلية من التاريخ العربي الحديث، شهدت تحولات فكرية وسياسية كبيرة وهامة، ما زالت أمتنا العربية تعيش آثارها ونتائجها حتى هذا اليوم. وكان رفيق خلال هذه الفترة التاريخية الهامة، علماً من أعلام الفكر والسياسة، وواحداً من أبرز الرجالات الذين لعبوا دوراً رئيساً في صنع الأحداث.

وعلى الرغم من مكانته الفكرية والسياسية المرموقة، لم ينصفه الباحثون، فلا توجد دراسة واحدة متخصصة في دراسة حياته، أو مكرّسة لإلقاء الأضواء على جانب من جوانب نشاطاته الفكرية أو السياسية أو الثقافية المختلفة. فلا نجد سوى شذرات متناثرة حول شخصيته في كتب التراجم الحديثة، أو في الدراسات العامة حول الفكر العربي الحديث، أو القضية العربية في الربع الأول من القرن العشرين .

ولهذا وجدت أن الواجب يقتضي القيام بأعباء المسؤولية العلمية تجاه هذا الأمر، فاخترت الكتابة في هذه الشخصية الهامة، مركزاً البحث في الجوانب الفكرية والسياسية من حياته. وعملت على جمع المعلومات كلها، حول حياته وفكره ونشاطه الثقافي والسياسي، معتمداً على المصادر الأولية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وعند عرض المادة حرصت على أن تكون بشكل مختصر ومكثف، بعيداً عن الإطالة والحشو الزائد.

وعزمت منذ البداية على اتخاذ الموضوعية والحيادية منهجاً لي في هذه الدراسة. وآمنت بضرورة التحلل من الميل إلى تبني آراء رفيق واجتهاداته، والدفاع عن مواقفه، أو تبريرها، فلم أقصد أن أكون مدافعاً عنه، كما لم أتعمّد توجيه التهم إليه أو البحث عن عيوبه وسيئاته، بل قصدت أن أقدم صورة الرجل بتجرد وإنصاف كما تكشفت لي ملامحها وسماتها.

وعملت على عرض المادة مراعياً التطورات الفكرية والسياسية التي شهدتها مسيرة حياته، وعمدت إلى تحليل بعض مواقفه الفكرية والسياسية، وعلّقت على بعضها الآخر، كلما شعرت بضرورة وأهمية ذلك.

وحرصت حين عرض اجتهاداته الفكرية ومناقشتها على المحافظة على روح فكره، من خلال استخدام تعبيراته وألفاظه كلما شعرت بأنها الأقدر على وضعنا في أجواء الفكر السائد في تلك المرحلة.

وعرضت المادة بعد جمعها وتصنيفها في مدخل وأربعة فصول، وخصصت المدخل للحديث عن نشأته وتكوينه، والعوامل التي أثرت في ذلك، وبعدها تحدثت عن هجرته إلى مصر مبيناً أسبابها، ومعطياً لمحة عن نشاطاته الثقافية، وآثاره الفكرية، كما تحدثت عن صفاته وملامح شخصيته.

أما الفصل الأول، فقد قصرت البحث فيه على الجوانب الفكرية البارزة عند رفيق العظم، مركزاً على فكره الاجتماعي والتربوي والسياسي. وفي الفصل الثاني، عرضت مواقفه من التيارات الفكرية والسياسية السائدة في عصره، وتمثلت في التيار التجديدي التغريبي، والتيار التقليدي المحافظ، وتيار الجامعة الإسلامية، وتيار الرابطة العثمانية، والفكرتين القومية والوطنية.

وتركز الحديث في الفصل الثالث في جهوده السياسية في نطاق القضية العربية، وقد استعرضت موقفه من الحكم العثماني خلال مرحلة حكم السلطان عبد الحميد الثاني ومرحلة حكم حزب الاتحاد والترقي. ثم انتقلت إلى تتبع نشاطه السياسي في الجمعيات والأحزاب السياسية العربية، وهي جمعية الشورى العثمانية، وحزب اللامركزية الإدارية العثماني، وجمعية الجامعة العربية.

أما الفصل الرابع فقد خصصته للتعرف إلى جهوده السياسية، في نطاق المسألتين السورية والفلسطينية، واشتمل على توضيح اهتمامه بالمسألة السورية في إطار الفكرة اللامركزية العثمانية، ثم التعريف بموقفه من الثورة العربية الكبرى، وبعدها جهوده السياسية التي أدت إلى صدور (العهد للسوريين السبعة)، ونشاطه ضمن (حزب الاتحاد السوري). وفي هذا الفصل تحدثت عن نشاطه السياسي في سبيل القضية الفلسطينية، واشتمل على اهتمامه المبكر برصد النشاط الصهيوني، ثم فكرة التفاهم مع الصهيونيين، وفكرة المؤتمر العربي – الصهيوني، وأخيراً نشاطه بعد صدور وعد بلفور وزيارته لفلسطين.

تحليل المصادر :

إيماناً بضرورة الاعتماد على الأوراق الخاصة عند دراسة الشخصيات، فقد بذلت جهوداً مضنية في البحث عن ذوي رفيق وأقاربه. لكن الصعوبة الأساسية كانت في أن رفيقاً لم يترك ولداً. وقد بحثت في مركز الوثائق التاريخية بدمشق، وفي مكتبة الأسد والمكتبة الظاهرية ومكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق، فتمكنت من الحصول على بعض الوثائق المتعلقة بمراسلاته في إطار حزب اللامركزية الإدارية، وبعض المعلومات حول حياته، في أوراق بعض الأعلام الموجودة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق.

ولقد أفدت من الوثائق المحفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق، في التعرف على جانب هام من نشاطات حزب اللامركزية ومراسلاته مع الفروع في سوريا، وفي الحصول على معلومات حول نشاطات بعض الجمعيات العربية مثل الجمعية الشورية، وجمعية الجامعة العربية. كما أسهمت بعض الوثائق المحفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، في إلقاء مزيد من الأضواء على جوانب هامة من حياته ونشاطه السياسي في إطار جمعية الشورى العثمانية، وحزب اللامركزية، والجامعة العربية. ومن أهم الوثائق مخطوط يتكون من إحدى وعشرين صفحة من القطع المتوسط يشكل جزءاً من مذكرات محب الدين الخطيب. كما أفدت من أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي – رحمها الله –، التي زودتني ببعض مراسلات رفيق.

وقد أفاد الكتاب الذي نشرته اللجنة العليا لحزب اللامركزية، حول المؤتمر العربي الأول، في توضيح موقف حزب اللامركزية- الذي كان رفيق يرأسه- من فكرة المؤتمر، ودوره في تنظيمه، والإشراف عليه، والمساهمة في تحديد جدول أعماله. وساهمت بعض الرسائل الجامعية في توضيح بعض الجوانب الهامة المتعلقة بنشاطه السياسي والفكري.

أما المذكرات والسيَر فقد أثرت الرسالة بمعلومات قيّمة حول الكثير من القضايا الشائكة، وفي تقديم وجهات نظر مختلفة حول نفس الحدث، مما أفاد في عملية تحليل الأحداث، وترجيح الآراء. ومن أهم الأعلام الذين أفادت الدراسة من مذكراتهم الملك عبد الله بن الحسين، وشكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، وأسعد داغر، وخالد العظم ومحمد كردعلي، وسليمان فيضي، وتوفيق السويدي، وسليم علي سلام، وجمال باشا.

وكان للكتب المطبوعة باللغتين العربية والإنجليزية دوراً بارزاً في تزويد الدراسة بمعلومات غزيرة ومتنوعة حول كافة المواضيع.

فقد ساهمت كتب التراجم في تقديم موجز سريع، ومعلومات أولية حول سيرة حياة رفيق العظم مثل (حلية البشر) للشيخ عبد الرزاق البيطار، و (الأعلام) للزركلي، و (مصادر الدراسة الأدبية) ليوسف أسعد داغر، و (روض البشر في أعيان دمشق) للشيخ محمد جميل الشطي وغيرها.

أما الكتب التي أرّخت للحركة العربية، والقضية العربية، فقد أمدّت البحث بذخيرة من المعلومات البالغة الأهمية، مثل كتب أمين سعيد :(الثورة العربية الكبرى) و (أسرار الثورة العربية) و (ثورات العرب في القرن العشرين)، وكتاب جورج أنطونيوس (يقظة العرب)، وكتاب أحمد عزت الأعظمي (القضية العربية)، وكتاب د. زين نور الدين (نشوء القومية العربية) وكتاب الدكتور عبد الكريم غرايبة (تاريخ العرب الحديث)، وكتاب الدكتور عبد العزيز الدوري (التكوين التاريخي للأمة العربية)، وكتاب الدكتور أحمد الشوابكة (محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية)، ويكتسب هذا الكتاب أهميته من اعتماد الدكتور الشوابكة على الأوراق الخاصة للشيخ رشيد رضا، وهي تكشف عن الكثير من النشاطات السياسية المشتركة بين العظم ورشيد.

كما أضاءت الكتب التي تتحدث عن الفكر العربي الحديث، جوانب هامة من الدراسة، مثل كتاب (الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة)، للدكتور علي محافظة، وكتاب (الفكر العربي في عصر النهضة)، للدكتور ألبرت حوراني، وكتاب (أسس التقدم عند مفكري الإسلام) للدكتور فهمي جدعان، وكتاب (الفكر العربي في العصر الحديث)، للدكتور منير مشابك موسى، وكتاب (المثقفون العرب والغرب) للدكتور هشام شرابي. وكان لغيرها من الكتب أثر واضح في إثراء جوانب مختلفة من الدراسة بمعلومات مفيدة لا يمكن الاستغناء عنها.

أما مؤلفات رفيق العظم المطبوعة، فقد شكّلت مصدراً أولياً أساسياً، في دراسة الجانب الفكري من حياته، وتحديد ملامح هويته الفكرية، وفهم الجذور الفكرية التي تستند إليها مسيرة حياته السياسية.

وقدمت مجموعة من الكتب المطبوعة باللغة الإنجليزية، وجهة نظر مختلفة في تفسير الأحداث وعرض المعلومات، مما أفاد الدراسة تنوعاً في مصادر المعلومات، وبالتالي الاقتراب من المعلومة الأكثر دقة للوصول إلى التحليل الأقرب للصواب.

ومثلت المقالات التي نشرها رفيق العظم في الجرائد والمجلات، مصدراً هاماً لاستيفاء المعلومات حول نشاطه السياسي.

كما كان للأخبار والتعليقات، التي نقلتها تلك الجرائد والمجلات أهمية بالغة في رفد الدراسة بمعلومات هامة تعبر عن تطورات الأحداث السياسية. ومن الجرائد التي تمت الإفادة منها : (الاتحاد العثماني) بيروت، (الدليل) نيويورك (المفيد) بيروت، (المقتبس) دمشق، (المؤيد) القاهرة (الهدى) نيويورك (الحضارة) الأستانة وغيرها.

أما المجلات فقد كان منها : (المنار) القاهرة (المقتطف) القاهرة (الهلال) القاهرة وعدد من المجلات العربية الحديثة مثل : مجلة (المجمع العلمي العربي) بدمشق ومجلة (دراسات تاريخية) الصادرة عن جامعة دمشق.

كما أفادت الدراسة من النشرة العربية (Arab Bulletin)، الصادرة عن المكتب العربي في القاهرة (Arab Bureau)، ولا سيما الأعداد الصادرة بين ١٩١٦ – ١٩١٨، وهي تعطي وجهة النظر البريطانية في تطور الأحداث السياسية في المنطقة العربية آنذاك.

مدخل
حياة رفيق العظم

١- ولادته وأسرته

٢- نشأته

٣- هجرته إلى مصر

٤- نشاطه الثقافي ومؤلفاته

٥- ملامح شخصيته وصفاته

٦- وفاته

مدخل
حياة رفيق العظم

١- ولادته وأسرته :

ولد رفيق العظم[١] في دمشق سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م[٢]، والده هو محمود بن خليل بن أحمد بن عبد الله باشا العظم الذي كان له اهتمامات متنوعة تشمل الأدب والشعر

---

(١) هو رفيق بن محمود بن خليل بن أحمد بن عبد الله باشا العظم.
حول ترجمة حياته، انظر : أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ٢٤؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٩٠، ٨ مجلدات، م٣، ص ٣٠؛ محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق العظم في مجموعة آثار رفيق بك العظم، مطبعة المنار، القاهرة ١٩٢٥؛ محب الدين الخطيب، رفيق بك العظم، مجلة الزهراء م٢، ج ٣ - ٤، ربيع الأول وربيع الثاني ١٣٤٤هـ، ص ٢٢٤-٢٣٤؛ محمد سعيد الباني، رفيق العظم، مجلة التمدن الإسلامي، م٢٦، ١٣٧٩هـ، ج ٢٥- ٢٨، ص ٥٨٢- ٥٩٢؛ محمد كرد علي، المعاصرون، علق عليه وأشرف على طبعه محمد المصري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة دار أبو بكر، ١٤٠١هـ - ١٩٨٠، ص ٢٢٤ - ٢٢٨؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ، ج ٤، ص ١٧٠؛ الشيخ عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م، ٣ أجزاء ج٢، ص ٦٣٠ - ٦٣٤؛ يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، منشورات جمعية أهل القلم في لبنان بيروت، ١٩٥٥، ٣ أجزاء ج٢، ص ٦٠٥ - ٦٠٧؛ ونشرت ترجمة لرفيق بعنوان المرحوم رفيق بك العظم في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م٥، ج١٢، كانون الأول ١٩٢٥، ص (٥٦١ - ٥٦٤)، ولم يذكر اسم كاتبها وعلى ما يبدو أنه محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي.

(٢) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٤، ص ١٧٠؛ يوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، ج٢، ص ٦٠٥؛ محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق العظم، مجموعة آثار رفيق العظم، ص (ب)؛ البيطار، حلية البشر، ج٢، ص ٦٣٠. وقيل أنه ولد في سنة ١٢٨٤هـ - ١٨٦٧، انظر : الزركلي، الأعلام، م٣، ص ٣٠؛ محمد كرد علي، المعاصرون، ص ٢٢٤.

والتصوف وفنون النقش، مع أنه لم يتلقَّ تعليماً منتظماً، بل أخذ العلم عن بعض شيوخ عصره من علماء ومتصوفة وأدباء منهم الشيخ حامد العطار والشيخ عبد الله الحلبي. وقد اهتم محمود العظم بتثقيف نفسه من خلال قراءاته الكثيرة في كتب الأدب والتصوف والشعر[3]، وترك مجموعة من المؤلفات هي: "البحر الزاخر والروض الزاهر في التصوف" وهو مخطوط في الأدب والتصوف و"رسائل الأشواق في رسائل العشاق" و"عقد الدرر وجمان الغرر" (مخطوط) ومنتخبات شعرية[4].

وعُرف عن محمود العظم التزامه بالطريقة الشاذلية، متأثراً بالشيخ محمد الفاسي الشاذلي[5]، وقد كان لكرمه الشديد الذي يصل درجة الإسراف والتبذير، دور في تبديد لأمواله حتى ساءت أوضاعه المالية في سنين حياته الأخيرة. وقد توفي سنة ١٢٩٢هـ / ١٨٧٤م[6]. ولا شك أن محمود العظم قد وفّر لابنه رفيق، ظروف النشأة في بيئة إسلامية عائلية ذات صلة بالأدب والشعر والثقافة. اكتسب رفيق منها الشيء الكثير من التوجهات والميول والأفكار والصفات التي ظلت تلازمه طيلة حياته؛ فقد عُرف عن رفيق نزعته الإسلامية الصافية، وميوله نحو الأدب والشعر، وولعه الشديد بالمطالعة، وتميزه بالكرم الشديد.

ينتسب رفيق لأسرة العظم الشهيرة، التي جمعت بين الجاه والثراء الواسعين، فحققت بمكانة سياسية واجتماعية لا تبارى في سوريا، ولعبت دوراً هاماً في الحكم والإدارة فيها

---

(3) محمد أديب آل تقي الدين الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق، طبع المطبعة الحديثة، بدمشق ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م، ثلاثة أجزاء، ج٢، ص ٦٩٤؛ محمد رشيد رضا، مجموعة رفيق العظم، ص (ب - ج).

(4) الزركلي، الأعلام، م٧، ص ١٦٩؛ الحصني منتخبات التواريخ، ج٢، ص ٦٩٤.

(5) الشيخ محمد جميل الشطي، روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر (١٢٠٠ - ١٣٠٠)، مطبعة دار اليقظة العربية بدمشق، بدون سنة أو طبعة، ص ٢٢٨.

(6) الزركلي، الأعلام، م٧، ص ١٦٩؛ الشطي، روض البشر، ص ٢٢٩؛ الحصني، منتخبات التواريخ، ج٢، ص ٦٩٤.

لعشرات السنين. وهي من العائلات العربية التي تعود أصولها إلى منطقة معرة النعمان قرب حماة[7].

وقد شغل أفراد من هذه الأسرة الحكم في سوريا لفترات طويلة امتدت من سنة ١٧٢٤ حتى ١٨٠٨، كان مجموع سنوات حكمهم الفعلية حوالي ستين سنة خلال هذه الفترة[8].

وتجدر الإشارة إلى أن آخر ولاة سوريا من آل العظم هو عبد الله باشا العظم الذي حكم ولاية سورية ثلاث مرات، كان آخرها ١٨٠٦ – ١٨٠٨، وهو الجد الثالث لرفيق. وتولى رجال من آل العظم الحكم في كل من حلب وطرابلس وحمص وحماة ومصر والموصل وغيرها[9].

قدم الولاة من آل العظم خدمات جليلة للدولة العثمانية، ولأهالي بلاد الشام؛ فثبتوا الأمن وبسطوا النظام وأخضعوا الثورات وحاربوا الانكشارية. ووفروا الحماية لقافلة الحج الشامي، واهتموا ببناء المدارس والقصور والخانات والأسواق والتكايا، وشجعوا العلماء والأدباء[10].

اكتسب آل العظم من هذه التجربة الطويلة في الحكم والإدارة مكانة سياسية واجتماعية مرموقة في سورية، وامتيازات كثيرة احتفظوا بها أجيالاً متعاقبة، واستطاعوا تكوين ثروات كبيرة لا يجاريهم فيها أحد في بلاد الشام. وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، شكّل آل العظم أكبر كتلة سياسية في دمشق، واعتبرت الزعامة الحقيقية للمدينة في أيديهم، وشغل بعضهم مناصب عليا وهامة خلال هذه

---

(٧) د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦ – ١٩١٦، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، ص ٢٢٦ - ٢٢٧؛ د. أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٨٩.

(٨) سيار الجميل، تكوين العرب الحديث (١٥١٦ – ١٩١٦)، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ط١، ١٩٩١، ص أ.

(٩) د. عبد الكريم رافق، م.ن، ص ٢٤١، ٢٦٥.

(١٠) عبد الكريم محمود غرايبة، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٤، بلا طبعة، ص ٥١.

الفترة أكثر من أية عائلة دمشقية أخرى[11]، واستمروا في تولي أعلى المناصب، في أواخر العهد العثماني، وفي عهد الاحتلال الفرنسي، وبعد الاستقلال[12].

٢- نشأته :

نشأ رفيق في كنف والده الأديب والشاعر محمود العظم، نشأة أبناء الأعيان والوجهاء في ذلك العهد في أحد قصور آل العظم قرب المسجد الأموي بدمشق. واتجه نحو العلم والأدب والفكر منذ نعومة أظفاره على غير عادة أقرانه من أبناء الأعيان والأغنياء[13].

إن انتساب رفيق لعائلة عريقة، ذات مكانة سياسية واجتماعية مرموقة، وفر له فرصة العيش في بيئة منحته الاهتمام والدراية بالشؤون السياسية، وغرست في نفسه منح الشأن العام جزءاً من وقته واهتمامه، كما هيأت له القدرة على بناء شبكة من العلاقات الاجتماعية، ظل طيلة حياته حريصاً على تنميتها وتوطيدها.

وقد ساهمت بيئته، كما ساهم عصره، في تكوين ملامح شخصيته، وتحديد مسار حياته؛ فقد نشأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ أي في مرحلة مليئة بالأحداث والتطورات، شهدت تفاعل عوامل عدة، هي :

ظهور محاولات للإصلاح في الدولة العثمانية، ووصول طلائع الغزو الاستعماري الأوروبي للمنطقة، ثم بروز بوادر حركة اليقظة العربية الحديثة[14]. ومما تجدر الإشارة إليه أن تفاعل هذه العوامل أحدث للمنطقة متغيرات فكرية وثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية جمة، مما دفع إلى تسمية هذه الفترة بفترة التحولات الكبرى في تاريخ المنطقة.

---

(١١) فيليب شكري خوري، طبيعة السلطة وتوزعها في دمشق (١٨٦٠ – ١٩٠٨)، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام (١٥١٦ – ١٩٣٩)، جامعة دمشق، جزءان، الجزء الأول، ص ٤٦٣ – ٤٦٤.

(١٢) خالد العظم، مذكرات خالد العظم، الدار المتحدة للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، ثلاثة أجزاء، ج١، ص ١٨.

(١٣) محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق، مجموعة آثار رفيق، ص (ب – جـ)؛ محمد كرد علي، المعاصرون، ص ٢٢٤؛ محب الدين الخطيب، رفيق العظم، مجلة الزهراء، م٢، ج ٣ – ٤، ص ٢٢٥.

(١٤) د. سهيلة الريماوي، تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين ١٩٠٠ – ١٩١٨، مجلة دراسات تاريخية، العددان: الثالث عشر والرابع عشر، تشرين الأول ١٩٨٣، ص ١٣٨ – ١٣٩.

ولقد تركت هذه التحولات أثرها الكبير في طبيعة البيئة التي عاش فيها رفيق، ومن ثم في تحديد ملامح شخصيته ولون ثقافته، واتجاهاته وميوله واهتماماته، وبالتأكيد في تحديد الخيارات المتاحة أمامه.

وشهدت بلاد الشام في هذه المرحلة ازدهاراً ملموساً في التعليم بفعل حركة التنظيمات العثمانية، وبفعل انتشار الإرساليات التبشيرية، التي افتتحت المدارس والكليات وجلبت المطابع، وساهمت في عملية الإحياء الثقافي والأدبي، وإحياء التراث العربي الإسلامي، وسهلت الاتصال بالغرب، والإطلاع على حضارته، ثم التأثر بها[15].

وظهرت أجيال متعاقبة من رواد الفكر والإصلاح، الذين نشروا الوعي، ولعبوا دوراً هاماً في عملية الإحياء الثقافي والأدبي، وأسهموا في ظهور صياغات فكرية وسياسية جديدة، وكان أكثر هؤلاء الرواد في بلاد الشام أو وصلت أفكارهم إلى بلاد الشام ووجدت لها أنصاراً ومؤيدين، ومن أشهرهم: جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ – ١٨٩٧)، ومحمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥) وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٢ – ١٩٠٣)، حسين الجسر (١٨٤٥ – ١٩٠٩)، وبطرس البستاني (ت ١٨٨٣) وغيرهم[16].

وكان التحدي الذي فرضه الغرب على المستويات المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، خلال القرن التاسع عشر، واحداً من أبرز العوامل التي هيأت لظهور حركة اليقظة العربية، وأسهمت في التحفيز على البحث عن وسائل حديثة لمواجهة التحدي[17].

---

(١٥) عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص ٢٤٢ – ٢٤٣، ص ٢٦١ – ٢٦٣، د. عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، دار المستقبل العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص١٣٣؛ د. عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ – ١٩١٤، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص ٥٥ – ٥٦، ٢٦٤ – ٢٦٥.

(١٦) د. هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٨، ص ٩٦ – ٩٨.

(١٧) ن.م، ص ١٣.

أما بالنسبة للتعليم الذي تلقاه رفيق فإنه لم يتسب في طفولته للمدارس الحكومية، ولعل السبب هو عدم رغبة والده في أن يصبح موظفاً في سلك الحكومة العثمانية، كحال معظم خريجي هذه المدارس التي شهدت إقبالاً من أبناء الفقراء الذين وعدتهم الدولة بتوفير وظائف إدارية لهم بعد تخرجهم منها، وعلى النقيض من ذلك فقد شهدت إحجاماً من أبناء الأسر الغنية؛ لشعورهم بعدم الحاجة إلى وظائف الحكومة ورواتبها[18].

كما أن والده لم يرسله ليتعلم في واحدة من المدارس الأهلية العربية، التي كان خريجوها غالباً ما يتجهون للعمل في الشؤون الدينية الإسلامية، والتخصص في العلوم الشرعية. وفي السابعة من عمره أرسل ليتلقى العلم في إحدى مدارس الإرساليات التابعة للروم الكاثوليك، فمكث فيها سنة واحدة تلقى خلالها علوم اللغة العربية إلى جانب العلوم الأولية الأخرى، واللغة الفرنسية[19]. وقد غادرها سنة ١٢٩٢هـ / ١٨٧٤م حين توفي والده، والتحق بحلقة الشيخ توفيق الأيوبي ليتعلم فيها علوم اللغة العربية[20]. وظل رفيق على صلة بهذا النوع من الحلقات العلمية، الذي كان سائداً في دمشق آنذاك ويشكل جزءاً من المنظومة التعليمية والثقافية. وكانت صلتها وثيقة بالتراث العربي الإسلامي، وسدت فراغاً كبيراً، في مرحلة كانت فيها لغة التعليم الرسمية هي التركية، أما المدارس الأجنبية التي أولت اللغة العربية نصيباً من اهتمامها فقد كانت ذات صبغة طائفية دينية، ولا تعتبر العلوم الدينية الإسلامية واردة في دائرة اهتمامها؛ لذا فإن الحلقات العلمية التي قام عليها علماء وشيوخ أجلاء من أمثال الشيخ توفيق الأيوبي والشيخ سليم البخاري والشيخ طاهر الجزائري[21]، اهتمت بعلوم اللغة

---

(١٨) محمد رشيد رضا. ترجمة رفيق. مجموعة آثار رفيق. ص (ب – جـ). محب الدين الخطيب. الزهراء، م٢، ج ٣ – ٤، ص ٢٢٦

(١٩) البيطار. حلية البشر، ج٢، ص ٦٣٠؛ الحصني. منتخبات التواريخ. ج٢، ص ٦٩٤.

(٢٠) محمد رشيد رضا. ترجمة رفيق. مجموعة آثار رفيق. ص (ج).

(٢١) حلقة الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥١ – ١٩٢٠)، ضمت مجموعة من رجالات دمشق ومثقفيها، منهم: الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ جمال الدين القاسمي. والشيخ سليم البخاري. ورفيق العظم. ومحمد كردعلي. ومحمد علي مسلم. والشيخ أحمد النويلاتي. وقد كانت تجتمع في منزل رفيق العظم بعد صلاة الظهر من كل يوم جمعة وأحياناً في مدرسة عبد الله باشا العظم. والتيش من

العربية والتاريخ العربي والعلوم الشرعية، فساهمت في تخريج جيل من رواد الفكر والإصلاح، تميزوا بتوجهاتهم العروبية الإسلامية الصافية. وكان رفيق في مقدمة هؤلاء.

وفي رحاب حلقة الشيخ طاهر الجزائري اكتسب رفيق نصيباً وافراً من الثقافة والعلم، فقد كان يدور في إطار هذه الحلقة مناقشات متنوعة، تتصل بالأدب واللغة والشعر والعلوم الشرعية والتاريخ والكتابات العربية المعاصرة.

وظلت هذه المحاور الفكرية والثقافية تحكم شخصية رفيق وتطبعها بطابعها. فظل محافظاً على مبادئ وأفكار اعتبرتها هذه الحلقة منطلقات أساسية توجه حركتها وترسم معالم مسيرتها، تمثلت في الدعوة إلى إحياء علوم السلف والتراث، والعودة إلى ينابيع الشريعة السمحاء، والدعوة إلى الاستفادة من الحضارة الأوروبية، واقتباس النافع منها، والإيمان بأهمية الحكم الشوري النيابي كوسيلة للإصلاح السياسي في البلاد الإسلامية. ولا نجد خروجاً لرفيق العظم عن هدي هذه المبادئ والأفكار عبر مسيرة حياته الحافلة بالعطاء الفكري، والفعل السياسي والإصلاحي الواسعين[22].

ولم تهمل الحلقة في مناقشاتها التطرق إلى الأوضاع التي تمر بها الدولة، والأحداث الجارية داخلياً وخارجياً، ومناقشة ما تحمله الصحف من أخبار وتعليقات، إلى جانب مطالعة كتب متنوعة[23]. وظل رفيق وفياً لهذا النوع من الحلقات العلمية، ولهذه الأجواء الثقافية طيلة حياته، وبعد استقراره في مصر.

هذه الحلقة أبي سعيد (حلقة دمشق الكبرى)، حلقة أخرى سميت (حلقة دمشق الصغرى) ضمت كلاً من سليم الجزائري، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المليحي (الانكليزي)، والسعد درويش الطرابلسي، وفارس الخوري، ومحب الدين الخطيب. انظر، محب الدين الخطيب، الجيل الذي عاصر بعث العروبة، مخطوط من ٢١ ورقة، مخطوط صورة منه في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، ص ١ – ٤.

(٢٢) انظر : محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق، مجموعة آثار رفيق، ص (ج)؛ محمد كردعلي، المعاصرون، ص ٢٢٤؛ محب الدين، مجلة الزهراء، م٢، ج ٣ – ٤، ص ٢٢٦.

(٢٣) محب الدين الخطيب، حياته بقلمه، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي، ١٣٩٩ – ١٩٧٩، ص ١٣؛ محب الدين الخطيب، الجيل الذي عاصر بعث العروبة، مخطوط من ٢١ ورقة، مخطوط في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية، ص ٤.

ولقد هيأت حلقة الشيخ طاهر لروادها – ومنهم رفيق العظم – فرصة التعرف إلى آراء الإمام محمد عبده واجتهاداته من خلال كتاباته ومؤلفاته، التي كانت تناقش في إطار الحلقة. ولم تكن آراء الكواكبي وأفكاره بعيدة عن أجواء الحلقة.

ولما استقر في مصر، حرص على الاتصال بالإمام محمد عبده، والإفادة من علمه وتجربته، فأصبح أحد الملازمين له والمواظبين على حضور دروسه التي كان يعقدها في الرواق العباسي في الجامع الأزهر، وتلك التي كان يلقيها في بيت أحمد تيمور بك[24]، كما كان عضواً رئيساً في المجلس الخاص الذي كان الإمام يعقده مرة في الأسبوع في بيته في عين شمس. وتحضره النخبة الثقافية والفكرية في القاهرة آنذاك منهم الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ أحمد إبراهيم، والشيخ حسن منصور، والشيخ أحمد الحمصاني، والشاعر حافظ إبراهيم، وإسماعيل باشا صبري، وأحمد فتحي زغلول وقاسم أمين، وعبد العزيز جاويش، ومحمد كرد علي[25]، وعبد الرحمن الكواكبي[26]. وفي هذا المجلس دارت مناقشات مفيدة حول مسائل تتعلق بالدين والفلسفة والاجتماع والتربية وغيرها من المسائل الفكرية الهامة[27]، ساهمت في إثراء ثقافة رفيق، وساعدته على تحديد هويته الفكرية بشكل دقيق، وفي تبنيه لوسائل محددة في حركته الإصلاحية، ظل مخلصاً لها

وانظر: محب الدين الخطيب – وثيقة رقم ١/ ٢١٤، مديرية الوثائق التاريخية في دمشق، مقالة نشرت في مجلة الفتح عدد ٨٣٣ سنة ١٩٤٨.

(٢٤) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٣، جزءان، ج١، ص ٣٤١، ويشار إليه محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية؛ تشارلز آدمز، الإسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس محمود العقاد، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٣٥، ص ٢٠٥؛ سامي الدهان، تاريخ الأدب الحديث في سورية، منشورات جامعة حلب ١٩٧٩، الطبعة الثانية، ص ٣٦؛ وانظر محب الدين الخطيب، الجيل الذي عاصر بعث العروبة (مخطوط)، ص ٦.

(٢٥) محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، القاهرة، مطبعة المنار، جزءان ج١، ص ٧٧٤ – ٧٧٥؛ تشارلز آدمز، الإسلام والتجديد، ص ٢٠٥، محمد محمد حسين، م.ن، ص ٣٤١.

(٢٦) د. وميض نظمي، ملامح من الفكر العربي في مصر اليقظة وعلاقته بفكرة القومية العربية، مجلة المستقبل العربي، السنة السادسة، العدد الثاني والخمسون، حزيران، ١٩٨٣، ص ٨٥.

(٢٧) محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج١، ص ٧٧٤ – ٧٧٥.

ومؤمناً بها[٢٨]؛ حتى اعتبر في عداد تلامذة الإمام والمنتسبين لمدرسته الإصلاحية القائمة على انتهاج أسلوب التربية كوسيلة مثلى لتحقيق الإصلاح المنشود[٢٩]. وعرف رفيق كأحد المدافعين عن أفكار الإمام محمد عبده وآرائه بحرارة[٣٠].

واكتسب رفيق جزءاً كبيراً من ثقافته بجهوده الخاصة، ومطالعاته الذاتية الواسعة، التي توزعت على الأدب والتاريخ والشعر واللغة العربية، والعلوم الشرعية[٣١]، ومؤلفات المفكرين والمصلحين العرب والمسلمين، أمثال رفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وهذا يتضح من خلال توجهاته الفكرية التي تكشف عنها كتاباته ومؤلفاته الكثيرة، كما تؤكد الإشارات الكثيرة والتي ترد هنا وهناك اطلاعه على بعض المؤلفات الأجنبية المترجمة إلى العربية. ومما لا شك فيه أن من الإساءة لثقافة الرجل وعلمه وتجربته الإشارة إلى عدد محدد من الكتب في معرض الحديث عن ثقافته وعلمه.

ومما يشير إلى تعدد اهتماماته وتنوعها، محاولاته الدؤوبة إتقان بعض اللغات الأجنبية إلى جانب اللغة العربية، فقد تعلم اللغة التركية وأتقنها محادثة وقراءة وكتابة، وكان ذلك بجهوده الخاصة. كما أنه ألمَّ بشيء من اللغة الفرنسية[٣٢]. إلا أنه انقطع عن مواصلتها فيما بعد.

---

(٢٨) البيطار، حلية البشر، ج٢، ص ٦٣٢.

(٢٩) عمر الدقاق، م.ن، ص ٣٦.

(٣٠) محمد سعيد الباني، رفيق العظم، مجلة التمدن الإسلامي، م٢٦، ج ٢٥ – ٢٨، ص ٦٣٢.

(٣١) محب الدين الخطيب، رفيق، مجلة الزهراء، م٢، ص ٢٢٦؛ البيطار حلية البشر، ج٢، ص ٦٣٠ – ٦٣١؛ الزركلي، الأعلام، م٣، ص ٣٠، دافر، مصادر الدراسة، ج٢، ص ١٠٥.

(٣٢) البيطار، حلية البشر، ج٢، ص ٦٣٢؛ أدهم آل الجندي، شهداء الحرب العالمية الكبرى، مطبعة العروبة، دمشق، ١٩٦٠، دون طبعة، ص ١٥٦؛ محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق، مجموعة آثار رفيق، ص ج.

٣- هجرته إلى مصر :

اشتهر السوريون بالهجرة خارج بلادهم، عبر فترات تاريخية طويلة. وكانت مصر قد حظيت بأعداد من المهاجرين السوريين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[٣٣]. وتعددت الآراء في تفسير الأسباب الكامنة وراء هذه الهجرة فمنهم من يعيدها إلى أسباب اقتصادية للبحث عن فرص عمل وطلباً للرزق أو للتجارة أو للعمل في وظائف الحكومة المصرية. ومنهم من قال بأنها تجيء في إطار الهروب من الاستبداد والظلم وهروب النصارى من التعصب المزعوم[٣٤]. وهذا الزعم ينفيه واقع التسامح الذي كانت تتعامل به الدولة العثمانية مع النصارى. حتى أن الطوائف النصرانية كانت تتمتع باستقلال كبير تحت الحكم العثماني[٣٥].

أما بالنسبة لهجرة رفيق العظم إلى مصر، فقد كانت متعلقة بظروف الدولة العثمانية. وأوضاع ولاية سورية بالذات. كما كانت متعلقة بظروفه الشخصية وأوضاع عائلته. فقد مارس رفيق نوعاً من العمل السياسي، الذي لا ترضى عنه الدولة العثمانية إبان وجوده في دمشق وكان هذا النشاط يأتي في إطار علاقته بحلقة الشيخ طاهر الجزائري ذات الأفكار والرؤى الإصلاحية، التي لم تكن السلطات العثمانية مطمئنة لها، واعتبرتها ذات أهداف سياسية متعلقة بالانفصال والاستقلال[٣٦]. إلى جانب صلاته بأحرار الترك المقيمين في دمشق وفي أوروبا إذ وجد نفسه متفقاً معهم في

---

(٣٣) انظر : د. عبد الله محمد عزباوي، الشوام في مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بلا ن، بلا ت، القاهرة، ١٩٨٦، يعطي معلومات وافية حول هذه الظاهرة.

(٣٤) د. أحمد فهد بركات الشوابكة. محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية. دار عمار، عمان. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م، ص ٢٩.

(٣٥) أنور الجندي، الإسلام وحركة التاريخ. دار الكتاب اللبناني. بيروت، دار الكتاب المصري. القاهرة الطبعة الأولى. ١٩٨٠، ص ٣٤٨.

(٣٦) محب الدين الخطيب. رفيق العظم. الزهراء، م٢، ج ٣ - ٤، ص ٢٢٧.

ضرورة الدعوة إلى عودة العمل بالدستور، وتوطيد دعائم الحكم الشوري الدستوري النيابي في الدولة[٣٧].

وقد عُرف عنه صراحته في توجيه الانتقادات لموظفي الدولة في ولاية سورية، بل توجيه النقد لسياسات الدولة؛ لم يكن من طبعه الصبر على الفساد السياسي والإداري، وكان يوجه النقد تلميحاً وتصريحاً وساعده في ذلك إطلاعه الواسع على الأحوال السياسية والإدارية في الولاية[٣٨].

وكانت له صلات قديمة بمصر تعود لسنة ١٨٩٢، عندما زارها بصحبة زوج خالته، وهو أحد أفراد العائلة الحاكمة في مصر ويدعى شريف باشا. أتاحت له هذه الزيارة معرفة أحوال مصر وظروفها، وأفاد كثيراً من مكتباتها، فصرف جُلَّ وقته في التنقل بينها، حتى أن انهماكه في المطالعة آذى صحته بشكل كبير، أجبره على السفر إلى الأستانة ومنها إلى دمشق، لكنه كان عاقداً العزم على الهجرة إلى مصر فغادر إليها سنة ١٨٩٤، مفضلاً بيئتها السياسية والثقافية. وكثيراً ما يختلط الخاص بالعام، فيجيء اتخاذ القرارات نتيجة هذا التداخل. فبالإضافة إلى الظروف العامة التي ساهمت في اتخاذ رفيق لقرار الهجرة إلى مصر؛ فإن ظروفاً خاصة تتعلق بأسرته وقفت وراء هذا القرار؛ فقد ورث رفيق جزءاً من أملاك تركتها عمة له توفيت في مصر، فكان لا بد من أن يشرف عليها بنفسه، بسبب الظروف المالية الصعبة التي كانت تعيشها أسرته بعد وفاة والده خاصة[٣٩].

٤- نشاطه الثقافي وآثاره :

كان لرفيق نشاط ثقافي متميز ساهم في إثراء الفكر العربي في مطلع القرن العشرين، وفي عملية الإحياء الثقافي العربي، التي قادها عدد من رواد الفكر والإصلاح العرب.

---

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٢٧؛ محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق، مجموعة آثار رفيق، ص (ج – د)؛ محمد كردعلي، المعاصرون، ص ٢٢٤ – ٢٢٥.

(٣٨) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م٥، ج١٢، كانون الأول، ١٩٢٥، ص ٥٦٢.

(٣٩) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م٥، ج١٢، كانون ١٩٢٥م، ص ٥٦٢؛ محمد كردعلي، المعاصرون، ص ٢٢٥؛ أدهم آل جندي، شهداء الحرب العالمية، ص ١٥٦.

وليس بمقدورنا حصر نشاطه الثقافي بشكل دقيق، فقد شمل جوانب مختلفة تراوحت بين التأليف والكتابة الصحفية والترجمة والشعر وإلقاء المحاضرات والدروس والخطب والمشاركة في إنشاء المؤسسات والجمعيات والمنتديات الثقافية والأدبية ودعمها.

وكان رفيق أحد فرسان الكتابة في الصحافة العربية، فمنذ استقراره في مصر بدأ الكتابة في كبريات الجرائد والمجلات الصادرة فيها، وفيما بعد كتب في الصحافة السورية، والصحافة العربية المهاجرة؛ فقد كتب في الأهرام والمقطم والمؤيد واللواء والمقيد والاتحاد العثماني والمقتبس والهدى، كما كتب في المقتطف والهلال والمنار والموسوعات وغيرها[40].

ولما تأسس المنتدى الأدبي في الأستانة سنة ١٩٠٩، كان رفيق في مقدمة المؤيدين لفكرته وأهدافه[41]. وعندما قام رئيسه عبد الكريم الخليل بزيارة للقاهرة طلباً للدعم والمساندة، تم تشكيل لجنة لمساعدة ومؤازرة المنتدى من: محمد الشريفي رئيساً، ورفيق العظم وكيلاً، وعبد الخالق مدكور أميناً للسر، وحسن عبد الرازق أميناً للصندوق، وأحمد تيمور عضواً[42].

ويعتبر رفيق من أهم المساهمين في تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق. وعمل كمندوب له في القاهرة، وعندما شعر بدنو أجله أوصى بالتبرع بمكتبته الخاصة له، وقد حوت ما يزيد عن الألف مجلد أرسلها شقيقه عثمان من القاهرة إلى المجمع في دمشق[43].

---

(٤٠) انظر: محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق العظم، مجموعة آثار رفيق العظم، ص (د).

ولعل من أبرز نشاطاته الصحفية هو مساهمته في تحرير جريدة الشورى العثمانية التي أصدرتها جمعية الشورى العثمانية في فبراير ١٩٠٧، بقسمين عربي يحرره رفيق العظم وآخر تركي يحرره ابن عمه حقي العظم. حول هذه الجريدة انظر: رفيق العظم، الجامعة العثمانية، في مجموعة آثاره ص ١٣٨، وانظر: محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق العظم، في مجموعة آثار رفيق العظم، ص (و).

(٤١) ريتشارد هارتمان: الجمعيات السياسية العربية في فترة ما قبل الحرب الأولى، ترجمة: رضوان السيد، مجلة دراسات عربية السنة ١٤، العدد العاشر، ١٩٧٨، ص ٥٤.

(٤٢) أحمد حسون العلي، حركة الاستقلال العربي (١٩٠٨ - ١٩١٩)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة المستنصرية سنة ١٩٨٨، ص ٦٢.

(٤٣) المرحوم رفيق بك العظم، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م٥، ص ٥٦٣. (لم يذكر اسم كاتب المقال).

آثاره :

أما في مجال التأليف فقد ترك رفيق لنا مجموعة من المؤلفات هي :

١- **كتاب البيان في التمدن وأسباب العمران**، وهو من أوائل ما كتب رفيق العظم وقد صدرت الطبعة الأولى عن المطبعة الإعلامية في القاهرة سنة ١٣٠٤هـ - ١٨٨٧م؛ أي قبل هجرة رفيق إلى مصر، وهذا يشير إلى صلاته القديمة بمصر قبل هجرته إليها.

٢- **كتاب البيان في كيفية انتشار الأديان**، وهو أول كتاب نشر لرفيق بعد هجرته إلى مصر[٤٤]. والمادة الأساسية لهذا الكتاب كانت في الأصل عبارة عن مقالات كتبها رفيق ضمن حوار دار بينه وبين كاتب مجهول، رمز لنفسه بـ (ر.ن) على صفحات مجلة الهلال سنة ١٨٩٥، حول موضوع الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام، بالسيف أم بالدعوة؟[٤٥].

٣- **كتاب الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية :**

وضع رفيق هذا الكتاب ليدرس لطلبة الصفوف العليا في المدرسة العثمانية بالقاهرة، والجزء الأكبر منه قدمه على شكل محاضرات ألقاها على طلبة المدرسة المذكورة، ثم جمعها وزاد عليها وطبعها في كتاب[٤٦]. وتقديراً من الإمام محمد عبده لهذا الكتاب قرر تدريسه لطلاب مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية[٤٧]. وقد عُدّ هذا الكتاب رائداً في مجاله وزمانه[٤٨].

٤- **كتاب تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام :**

بدأ رفيق بتأليفه سنة ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م عندما نشر خمسة مقالات في مجلة الموسوعات الصادرة في القاهرة، وفيما بعد زادها أربعة مقالات أخرى جمعها ونشرها معاً في هذا الكتاب، الذي طبعه بمطبعة الموسوعات سنة ١٩٠٠م[٤٩].

---

(٤٤) محب الدين الخطيب، رفيق العظم، الزهراء، م٢، ج ٣- ٤، ص ٢٢٨.

(٤٥) رفيق العظم، رسالة في بيان كيفية انتشار الأديان، طبع بمطبعة الإسلام بمصر، دون طبعة أو سنة، ص ٢ – ٤.

(٤٦) رفيق العظم، الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية، المطبعة الوطنية، دمشق، الطبعة الثانية، ١٣٢٨هـ، ص ٧.

(٤٧) محمد رشيد رضا، رفيق العظم، مجموعة آثار رفيق العظم، ص (ط – ي).

(٤٨) محب الدين الخطيب، رفيق العظم، الزهراء، م٢، ج ٣ – ٤، ص ٢٢٨.

(٤٩) رفيق العظم: كتاب تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام، طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر، سنة ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م، ص ٢.

٥- كتاب أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة :

وهو أشهر كتبه وأكثرها انتشاراً، واكتسب أهمية خاصة؛ لأنه جاء ليسد فراغاً في المكتبة التاريخية العربية الإسلامية، وفتح باب الكتابة في التراجم الإسلامية في القرن العشرين، شعوراً منه بأن عظماء هذه الأمة لم ينالوا ما يستحقونه من الاهتمام باستقصاء أخبارهم وتتبع تواريخ حياتهم وأفرادها بكتب خاصة تخليداً لذكرهم وتقديراً لقدر كل فرد منهم[٥٠]. وقد طبع هذا الكتاب مرات عدة في مصر ودمشق وأخذ كان أولها في القاهرة سنة ١٩٠٣م.

٦- كتاب الجامعة الإسلامية وأوروبا :

من أوائل المؤلفات التي تحدثت عن فكرة الجامعة الإسلامية ودافعت عنها. وقد صدرت عدة طبعات، كان أولها سنة ١٩٠٧ في القاهرة ونشر ضمن مجموعة آثار رفيق العظم.

٧- مجموعة آثار رفيق بك العظم :

وهي قسمان : الأول ويضم الكتب والرسائل التي لم يسبق نشرها وهي :

* كتاب "السوانح الفكرية في المباحث العلمية".
* كتاب "تاريخ السياسة الإسلامية".
* ورسالة "الجامعة العثمانية والعصبية التركية".

أما القسم الثاني فقد ضم بعض كتاباته المنشورة سابقاً، وهي :

* "خطبة التدوين في الإسلام".
* "خطبة أسباب سقوط الدولة الأموية".
* "خطبة قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الإسلام".
* ورسالة "الجامعة الإسلامية وأوروبا".

وقد اعتنى بجمع ونشر هذه المجموعة، شقيقه عثمان العظم وطبعها على نفقته الخاصة في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م، ونشر في مقدمتها ترجمة لحياة رفيق العظم بقلم صديقه صاحب المنار.

---

(٥٠) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٧٢ – ١٩٧٣، ص ١١ - ١٢.

وفي مجال الترجمة، ساهم رفيق مع ابن عمه حقي العظم في ترجمة كتاب رحلة صادق باشا المؤيد العظم إلى الحبشة من اللغة التركية إلى اللغة العربية[٥١].

أما بالنسبة لإسهامه في مضمار الشعر، فإن علاقة رفيق بالشعر قديمة اكتسبها من والده الشاعر محمود العظم. وبدأ بكتابة الشعر قبل العشرين من عمره. وقد نشر البيطار في حلية البشر مقتطفات من شعره في باب الغزل[٥٢].

وقد رثى أستاذه وشيخه الشيخ طاهر الجزائري الذي توفي عام ١٩٢٠، كما رثى صديقه الزعيم الوطني المصري محمد فريد عندما علم بوفاته في منفاه في أوروبا عام ١٩١٩[٥٣].

وبشكل عام فقد كان مقلاً في شعره ولا ينظمه إلا في حالات خاصة ومحدودة ولم يكن مهتماً بنشره إما لعدم رغبته في أن يُعرف كشاعر أو لعدم ثقته بأهلية هذا الشعر للنشر، حسب رأي صديقه محمد رشيد رضا[٥٤].

٥- ملامح شخصيته وصفاته :

وكان حريصه شديداً على أن تكون الوسائل من جنس الأهداف، فلم يقبل لتحقيق غاياته وأهدافه الشريفة إلا وسائل أخلاقية. وظل يقرن الأخلاق الرفيعة بكل أفعاله وتصرفاته، فوصفه صديقه الدكتور عبد الرحمن شهبندر قائلاً : "لو قايسنا رفيق بك بالرجل الأخلاقي والرجل السياسي، لرجحت كفة الأخلاقي الحازم" وبعث أيضاً معزياً بوفاته برقية إلى شقيقه عثمان العظم يقول فيها : "أعزي الأمة بفقد مثال العفة والاستقامة"[٥٥].

---

(٥١) كان صادق باشا (باور) للسلطان عبد الحميد برتبة فريق أول في الجيش العثماني. وقد أوفده السلطان سنة ١٣٢١هـ - ١٩٠٣م لمقابلة جلالة ملك الحبشة في أديس أبابا، فكتب مشاهداته وانطباعاته في هذه الرحلة. انظر : محب الدين الخطيب. رفيق العظم. الزهراء، م٢، ج ٣ – ٤، ص ٢٣٠.

(٥٢) عبد الرزاق البيطار، حلية البشر، ج٢، ص ٦٣٢ – ٦٣٤.

(٥٣) محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق. مجموعة آثار رفيق العظم، ص (د).

(٥٤) نفس المرجع السابق. ص (د)؛ الزركلي، الأعلام، ج٣، ص ٣٠.

(٥٥) الشيخ محمد سعيد الباني، رفيق العظم. مجلة التمدن الإسلامي، م٢٦، ج٢٥ – ٢٨، ص ٥٨٦.

وظل رفيق مؤمناً بالنهج الإصلاحي التدريجي والعمل المبرمج المدروس، مبتعداً عن الانفعال والاستعجال، محافظاً على التأني والتروي والتفكير العميق قبل الإقدام على اتخاذ القرارات وإصدار الأحكام؛ مما دفع البعض إلى اتهامه بالبطء وتضييع الفرص والوقت، لكنه لم يأبه لاتهامهم، وكان يرد عليهم مطالباً إياهم بالتمهل والتروي، ومنبهاً إلى خوفه من الانتقال من السيء إلى الأسوأ[56].

وعرف عنه ابتعاده عن تولي الوظائف والمناصب منذ بواكير شبابه فقد ابتعد عن الوظائف الحكومية والعمل في سلك الدولة، وعندما كانت تعرض عليه المناصب الرفيعة كان يرفضها معتذراً بظروفه الصحية، فقد رفض أن يرشح نفسه في الانتخابات النيابية ١٩٠٨م، كما رفض أن يتولى وزارة المعارف العثمانية عندما عرضها عليه الاتحاديون بعد مؤتمر باريس ١٩١٣، وفي عهد الحكومة العربية في دمشق رفض أيضاً ما عرض عليه من مناصب رفيعة[57].

ودافع عنه صديقه محمد رشيد رضا أمام من يتهمونه بالسعي وراء الأهداف الخاصة والبحث عن المناصب، فقال نافياً تلك الاتهامات "إن رفيقاً لو عُرضت عليه الصدارة لما قبلها؛ لأن صحته تمنعه من العمل، حتى أنه لم يقبل أن يكون مبعوثاً"[58]. وتميز الرجل بثبات عقيدته ورسوخ مبادئه، وصلابة إرادته، وإصراره على تحقيق أهداف أمته ووطنه على الرغم مما تعرض له من ضغوطات وامتحانات قاسية تارة بالترغيب، وأخرى بالترهيب، ولندع المجال أمامه مفتوحاً ليدافع عن نفسه، ويرد على اتهامات خصومه. فيقول : "لسنا من أولئك الذين يسيرون وراء الأحزاب أمامت أم حسنت أو يناهضونها ضلت أو اهتدت، وإنما نحن طلاب إصلاح قبل أن يكون الاتحاديون، وقبل

---

(٥٦) إبراهيم سليم نجار، رفيق العظم، مجلة الحرية، السنة الثانية، أيلول ١٩٢٥، ج٣، ص ١٨١.

(٥٧) محب الدين الخطيب، رفيق العظم، الزهراء، م٢، ج٣، ص ٢٢٤؛ محمد سعيد الباني، رفيق العظم، مجلة التمدن، م ٢٦، ج ٢٥ – ٢٨، ص ٥٩٠؛ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م٥، ج١٢، ص ٥٦٣؛ رفيق العظم، الانتخابات، جريدة الاتحاد العثماني، ٢٠ تشرين أول ١٩٠٨، العدد ٢٥.

(٥٨) محمد رشيد رضا، المنار، م١٣، ج١٠، ص ٧٨٨.

أن يعلن الدستور ولا نزال على مبدئنا إلى اليوم، ولا نزال عليه إلى آخر نسمة من الحياة؛ لأن المبادئ الصحيحة لا تنزع من الصدور إلا إذا نزعت منها القلوب"[59].

وخلال الأزمة التي عاشها حزب اللامركزية الإدارية العثماني سنة ١٩١٤، نجده يدافع عن نفسه، وينفي اتهامات خصومه الظالمة بقوله :"ولا أطمع بوظيفة، ولو أعطيت لي السلطة لابتعدت عنها، وإنما أنا طالب إصلاح لهذا الملك..." ويمضي رفيق قائلاً : "..أنا عشت ثلاثين سنة في السياسة وأنا شريف، وأريد أن أموت شريفاً، هم يريدون أن يسوؤا سمعتي الآن بما يبلغوا هذا وهذا من الأقوال، ثم يريدون أن يتخذونا آلة لأمر نحن نعمل لغيره، فأنا أريد أن أبتعد عنهم حتى يجربوا الطرق التي يريدون أن يسلكونها، كفاني ما مضى من تعبي لأجل هذه المملكة.."[60].

ويقدم محب الدين الخطيب شهادته في هذا المضمار قائلاً : كان لي شرف الاتصال برفيق العظم منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري، إلى أن توفاه الله إليه، وإني لا أعرف بين من فقدنا من زعماء نهضتنا أشد ثباتاً على المبادئ الصحيحة وأعظم إخلاصاً للوطن والأمة من اثنين من شيوخنا وهما : الشيخ طاهر الجزائري، ورفيق بك العظم[61].

٦- وفاته :

عانى رفيق العظم طويلاً من تردي أوضاعه الصحية، وفي السنوات الأخيرة من حياته تفاقمت حالته الصحية سوءاً، وتضاعف تأثير مرض الربو على صحته. مما اضطره إلى اعتزال العمل السياسي والنشاط الصحفي والتأليف والمطالعة والنشاطات الاجتماعية. وتوفي في الحادي عشر من ذي الحجة ١٣٤٣هـ ، في نهاية حزيران ١٩٢٥.

---

(٥٩) رفيق العظم، (إلى الطبيب الفاضل)، المؤيد العدد ٦٩٩٣، مايو ١٩١٣.

(٦٠) د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨ – ١٩١٨، حزب اللامركزية الإدارية العثماني. مجلة دراسات تاريخية – العددان : الخامس عشر والسادس عشر، كانون الثاني، أيار ١٩٨٤، ص ١٩٦.

(٦١) محب الدين الخطيب، رفيق العظم، الزهراء، م٢، ج٣، ص ٢٣٤.

في القاهرة ودفن فيها، دون أن يترك ولداً فلم ينجب طيلة حياته[٦٢]. وفي هذا الشأن يقول صديقه الشيخ محمد رشيد رضا "ومن آدابه التي يجب أن تذكر بالنص في هذه الترجمة الوجيزة، أنه متزوج ولم يرزق ولداً، ولا كان مغتبطاً ولم أسمع منه ولا عنه منذ عقدت له عقد زواجه إلى أن توفاه الله تعالى كلمة تؤذن بحسرته على الحرمان من الولد أو الميل إلى التزوج بامرأة أخرى مع زوجه أو بعد تطليقها، فهذا من أعجب الوفاء والصبر والقناعة، آداب يقل نظيرها في هذا العصر وفي كل عصر"[٦٣].

---

(٦٢) إبراهيم لجار، م.ن، ص ١٨١. محمد رشيد رضا: ترجمة رفيق، مجموعة رفيق رضا، ص (ل – ج)، محمد سعيد لبلي، رفيق العظم م٢٦، ج ٢٥ – ٢٨، ص ٥٨٢.

(٦٣) محمد رشيد رضا: ترجمة رفيق، مجموعة رفيق، ص (٧).

الفصل الاول

فكره الاجتماعي والتربوي والسياسي

أولاً: فكره الاجتماعي

ثانياً: فكره التربوي

ثالثاً: فكره السياسي

الفصل الأول
فكره الاجتماعي والتربوي والسياسي

أولاً: فكره الاجتماعي

تمهيد:

ركز المفكرون العرب خلال القرن التاسع عشر، على المسائل السياسية والدينية والثقافية، في حين أهملوا إلى حدٍ ما المسألة الاجتماعية، فلم تنل منهم العناية والاهتمام اللازمين[٦٤].

وكان رفيق العظم من أوائل المفكرين العرب المحدثين الذين اهتموا بالمسألة الاجتماعية[٦٥]، فربط ربطاً وثيقاً بين الاجتماع والاقتصاد والدين والسياسة، وآمن بتلازم هذه العناصر وتكاملها.

واهتم كثيراً بالتحليل الاجتماعي، ومناقشة البُعد الاجتماعي لعملية الإصلاح. ويتبدى اهتمامه بالمسألة الاجتماعية بوضوح في ثنايا مؤلفاته المختلفة وكتاباته الصحفية الكثيرة لكنه يتبدى بشكل واضح ومتميز في بعض مؤلفاته، مثل: (البيان في التمدن وأسباب العمران) المنشور عام ١٣٠٤هـ و (السوانح الفكرية في المباحث العلمية)، الذي نشر بعد وفاته، ضمن مجموعة آثاره، و (تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام)، الذي كان في الأصل مجموعة من المقالات، نشرها في مجلة الموسوعات في

---

(٦٤) ز. إ ليفين، تطور الفكر الاجتماعي العربي الحديث، ترجمة عن الروسية، بشير السباعي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ٨

(٦٥) إحميدة النيفر، الفكر الاجتماعي في الكتابات الإسلامية الحديثة، مجلة المسلم المعاصر، السنة ١٢، العدد ٤٧، سنة ١٤٠٦هـ ص ٣١ – ٣٢، ويعود له الفضل في تنبيهي إلى أهمية دراسة الفكر الاجتماعي، فكانت دراستي للفكر الاجتماعي في مصر خلال فترة ما بين الحربين العالميتين.

أعداد ستها الثانية، ثم أضاف إلى هذه المقالات عدداً آخر، ونشرها في هذا الكتاب سنة ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م[٦٦].

١- المدنية والاجتماع :

تحدث رفيق العظم في فترة مبكرة من تاريخ الفكر العربي الحديث بتوسع عن المدنية وشروط قيامها، والأخطار التي تهددها، وعوامل نموها وازدهارها، منطلقاً من الحقيقة القائلة بأن الإنسان مدني بالطبع. وهذا ناجم عن حاجته للضروريات التي تدفعه إلى الاجتماعات البشرية[٦٧]، فلا يستطيع العيش بعزلة عن بني جنسه، فيحدث الاجتماع المفضي بالضرورة إلى صنع المدنية.

أ- شروط قيام المدنية :

ويرى رفيق العظم أن لقيام المدنية شروطاً لازمة منها : الإقبال على طلب العلوم والمعارف، وحب الفنون والصنائع، وإنشاء المعامل والمدارس، وتوفير الشروط المادية والمعنوية اللازمة للتقدم، والأدوات الحسية والمعنوية اللازمة للحالة الحضرية. وكذلك التحلي بالمزايا الشريفة[٦٨] إلى جانب اتباع ما جاء به الشرع، وتوفر الحرية الكاملة المؤسسة على العدل[٦٩].

ويرى بأن التمدن نوعان : تمدن يرجى معه طول البقاء، وتمدن قريب الزوال والفناء[٧٠]، فالأول يكون مبنياً على أسس قوية وعبر مراحل زمنية كافية، تكفل له نمواً

---

(٦٦) انظر : رفيق العظم، تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام، مطبعة الموسوعات، القاهرة، ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م، ص ٢.

(٦٧) رفيق العظم، كتاب السوانح الفكرية في المباحث العلمية، مجموعة آثار رفيق بك العظم، عني بجمعها وطبعها على نفقته شقيقه الأسيف عثمان العظم، مطبعة المنار، مصر، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م، الطبعة الأولى، ص ٦. وسيشار إليه فيما بعد بـ السوانح الفكرية.

(٦٨) رفيق العظم، البيان في التمدن وأسباب العمران، المطبعة الإصلاحية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٠٤هـ، ص ٤.

(٦٩) ن.م، ص ٧.

(٧٠) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٧.

طبيعياً مكتملاً، أما الثاني فلا يستند إلى أسس قوية، ويكون قد ظهر بشكل سريع، كأنه يريد أن يقول إنها طفرة حضارية، سرعان ما تخبو وتتلاشى.

ب- الأخطار التي تهدد المدنية :

ويرى أن المدنية قابلة للزوال بفعل الأخطار التي تهددها وتعمل على إفنائها، وحصرها فيما يلي :

- الحروب المدمرة للعمران الناتجة عن الحقد والحسد[٧١].

- وضعف العصبية الذي يهدد استمرار المدنية[٧٢].

- وانتشار الترف والإسراف والتبذير مع تقدم المدنية؛ مما يؤدي إلى الإقدام على المحظورات التي تعرض التمدن للاضمحلال والتلاشي[٧٣].

جـ- عوامل دوام المدنية :

ولدوام المدنية وازدهارها يرى رفيق بأنه لا بد من توفر جملة عوامل وشروط منها :

- دوام العصبية المدنية والاتحاد الباعث على التقدم.

- المحافظة على الأخلاق الحميدة والإقبال على تحصيل الفضائل والبعد عن الرذائل.

- اتحاد الكلمة والاتفاق على رأي واحد يخدم مصالح الأمة.

- الجد في طلب كل ما يؤدي إلى تقدم الأوطان.

- منع الأسباب الداعية إلى تداخل اليد الغريبة العاملة على بث الفرقة والخلاف[٧٤].

ونحن نرى أن رؤية رفيق العظم لعوامل دوام المدنية هي رؤية شاملة تعالج الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية المتعددة، فتشمل ضرورة وحدة الأمة وترابطها، وضرورة المحافظة على سلامة الأخلاق العامة والفردية للأمة، وضرورة اتقاء الفتن والقلاقل من الحياة السياسية للأمة، وأن تتمتع بالاستقرار السياسي، وضرورة التطلع إلى

---

(٧١) ن.م، ص ٦.

(٧٢) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ١٥.

(٧٣) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٧.

(٧٤) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٨.

التجديد والتطور ومواكبة التقدم المفيد للأمة والوطن، وضرورة التخلص من كل أشكال التدخل الأجنبي لما له من دور في بث الفرقة والخلاف في صفوف الأمة الواحدة.

د- المدنية الإسلامية :

رفض رفيق كل أشكال التبعية الفكرية والاستلاب الحضاري، وأكد أن الشرق هو أصل المدنية؛ لذا فلا مبرر للشعور بالهزيمة والانسحاق أمام الحضارة الغربية؛ فالشرق هو أول من عرف الحياة البشرية قديماً، وهو مهبط الديانات السماوية، بل إن التمدن الأوروباوي مأخوذ عن الشرق[٧٥].

وقد فاخر بالمدنية الإسلامية العظيمة، التي قامت على أساس الدين، فكان بناء الدولة والعمران على أسس دينية، ورأى بأن ضعف الأمة وقوتها أصبح مقترناً بمقدار ضعف أو قوة الدين في حياتها، وهذا يختلف عن حال المدنية الغربية التي قامت على أسس غير دينية.

أما بالنسبة للعوامل التي أدت لازدهار المدنية الإسلامية فهي :

- اتحاد الدول والممالك الإسلامية.
- احترام الحكام للأصول الشرعية (أحكام الشريعة).
- عدم استبداد الحكام وتطبيقهم لمبدأ الشورى.
- إسناد المسؤوليات لأصحاب الكفاءة والدراية[٧٦].

وبيّن أن غياب هذه العوامل أدى إلى تدهور المدنية الإسلامية واضمحلالها، فقد أدى غياب الشورى ولجوء الحكام للاستبداد وإخضاعهم الأمة لسلطتهم القاهرة ونفوذهم المطلق، ومحاولتهم إضفاء الصبغة الدينية على اجتهاداتهم ونشاطاتهم السياسية للحيلولة دون محاسبة الأمة لهم، وغياب التكافل العام من حياة المسلمين، والجمود الذي أصاب حياتهم، كل هذه الظواهر تؤكد ما حلّ بالمدنية الإسلامية من تراجع وتقهقر[٧٧].

---

(٧٥) رفيق العظم، الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية، المطبعة الوطنية، دمشق، ١٣٢٨هـ، الطبعة الثانية، ص ٣ – ٥.

(٧٦) رفيق العظم، البيان في التمدن، ص ٦٣.

(٧٧) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢ – ١٩٧٣، ص ٦٤٢ – ٦٤٣؛ رفيق العظم، الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية، ص ٣ – ٤.

وطرح رؤيته لكيفية استعادة المسلمين لدورهم الحضاري وإعادة بناء المدنية الإسلامية من جديد، ورأى أن ذلك يتحقق من خلال :

- تحرير العقل المسلم من قيود الحجر المعيقة عن الانطلاق في آفاق العلم.

- توحيد المسلمين على مبادئ الشريعة.

- تربية المسلمين على أصول الفضائل الإسلامية التي أهمها استقلال العقل والإرادة والتربية على الأخلاق الفاضلة(٧٨).

نستنتج مما سبق أن وسائله تتراوح بين صيغة الحرية وتقدم العلم وتحقيق الاتحاد الإسلامي وتطبيق أحكام الإسلام. ولا شك أنها وسائل ناجحة إذا ما أحسن تطبيقها في حياة المسلمين ونتفق معه بأنها كفيلة بإعادة المجد الإسلامي.

٢- المشكلة الاجتماعية والمذاهب الاجتماعية :

يعتقد رفيق بأن من النتائج الأكيدة لترقي الحياة الاجتماعية وتقدم المدنية، حدوث ترقي مماثل في مطالب الحياة الاجتماعية، وأحوال المعاش وتشعب الحاجات الاجتماعية لأسباب الرفاه. مما يؤدي إلى ازدياد التزاحم بين طبقات الناس فيصبح الوصول إلى هذه الحاجات والمقاصد صعباً يخلق شقاء الطبقة النازلة(*)، لعدم قدرتها على منافسة ذوي اليسار والقوة في الهيئة الاجتماعية. وهنا العجز يغري الأقوياء بالتسلط على الضعاف والاستئثار بالمنافع دونهم. وهذا فيه ما فيه من امتهان نواميس العدل القاضي بتشويش نظام الاجتماع(٧٩).

هذه القضية شقاء الطبقة النازلة أخذت في أوروبا أبعاداً واسعة من الجدل والتفكير والنقاش، حتى اعتبرها البعض العقدة العظيمة أي عقدة شقاء الطبقة النازلة أو مسألة شقاء العمال كما يطلق عليها بعض علماء الاجتماع الأوروبيين(٨٠).

---

(٧٨) رفيق العظم، ن.م، ص ٤ – ٥.

(*) يقصد بالطبقة النازلة، الفئات الاجتماعية الفقيرة.

(٧٩) رفيق العظم، تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام، مطبعة الموسوعات. مصر، سنة ١٣١٨هـ – ١٩٠٠م، ص ٣ – ٤، وسيشار إليه فيما بعد مطالب الحياة الاجتماعية.

(٨٠) رفيق العظم، ن.م، ص ٤.

ومن هذه المدارس والتيارات الفكرية الأوروبية التي حاولت حل تلك العقدة مدرسة الاشتراكيين، الفوضويين، العلميين، المدرسة الدينية، وأصحاب تيار الاستقلال الذاتي. وقد ناقش رفيق هذه الأفكار، وطرح التصور المقابل لها والكفيل بإيجاد الحل الناجع لتلك العقدة، وهو تطبيق مبدأ التكافل العام، أو التكافل الاجتماعي.

أ- الاشتراكية :

يلخص موقف الاشتراكيين من مسألة شقاء العمال أو الطبقة النازلة، بأنهم يعيدون سبب هذا الشقاء إلى سيطرة الأغنياء على رأس المال، أو الثروة التي هي في رأيهم ناتجة عن عمل المجموع فينبغي أن توزع على المجموع، ويعملون على نشر أفكارهم في صفوف الطبقة النازلة، ويسعون لإقامة حكومتهم التي سوف تعمل على تقسيم نواتج الثروة العامة بين الأفرادت على السواء[٨١]، وقد وجه نقداً شديداً للفكرة الاشتراكية ورأى أنها بلغت الغاية من الخبط والتعقيد واعتبرها غير قادرة على صنع السعادة الموهومة من هذا الطريق الوعر[٨٢]. ورأى بأن حديث الاشتراكيين عن تقسيم الثروة بالتساوي بين من يعمل ومن لا يعمل هو دعوة إلى تعطيل حركة العمل والإنتاج[٨٣]. كما أنه يرفض مساواتهم بين رأس المال وثمرته وجعلها ملكاً للجميع. وراح يعرض الموقف الإسلامي من هذه المسألة والذي يفصل بين العمل وبين ثمرة العمل. فجعل الإسلام العمل هو رأس مال كل إنسان بمفرده، أما ثمرة العمل فيكون التمتع بها بنسبة العمل نفسه؛ أي لكل مجتهد نصيب على أساس من التفاضل بين الجاهل والعالم والبليد والنشيط؛ لأن المساواة بين هؤلاء على تفاوتهم يؤدي إلى انتفاء الدافعية للعمل وغياب الحوافز المشجعة على بذل الجهد لتحصيل الثمرة المناسبة. واستشهد بقوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)[٨٤].

---

(٨١) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٤، ص ٨.

(٨٢) رفيق العظم، ن.م، ص ٤.

(٨٣) رفيق العظم، ن.م، ص ٨.

(٨٤) رفيق العظم، ن.م، ص ٨.

وبين موقف الإسلام من رأس المال بحيث اعتبره حق المالك لا يشاركه فيه سواه، أما ثمرته فهي حقه وحق المسلمين والإسلام يفرض عليه أداء قسم من الثمرة للمنفعة العامة للمسلمين[85].

وأكد أن العقل يفرض جعل العمل مستقلاً والثمرة مشتركة على وجه لا يعبث بقانون التفاضل الباعث على المسابقة في ميدان العمل والعلم[86]. بخلاف ما تذهب إليه الاشتراكية التي توجب اشتراك الجميع في رأس المال وثمرته معاً. واعتبر هذا مقاومة محضة لنواميس الاجتماع الطبيعية يراد بها القضاء على المدنية وشقاء البشر لا سعادتهم[87].

نلاحظ أنه قد تنبأ في مطلع القرن العشرين بفشل النظرية الاشتراكية؛ لأنها منافية لنواميس الاجتماع الطبيعية، ولأنها تقتل روح المبادرة والعمل وتقضي على الحوافز الدافعة لزيادة الإنتاج، بمساواتها بين من يعمل ومن لا يعمل. واعتبر أن هذه النظرية التي تدعي سعيها إلى حل مسألة شقاء الطبقة النازلة، ستفشل في ذلك، وستزيد من شقاء العمال والطبقة النازلة. ونظرة سريعة إلى نتائج التجربة، وأسباب فشلها، تجعلنا نقدر عالياً لرفيق هذا التحليل الدقيق الصائب المستند إلى فهم عميق للحياة والإسلام.

ب- مبدأ الاستقلال الذاتي :

يرى رفيق بأن هذا المبدأ يتميز بتأكيده على دور الفرد في النشاط الاقتصادي، وعلى أهمية الاعتماد على النفس والجد والاجتهاد في حل مشاكل العمال وأفراد الطبقة النازلة، كما يؤكد على الاهتمام بالمصلحة الشخصية الفردية بشكل كبير. ويلخص ذلك بقوله : إن أصحاب هذا المبدأ يرون أن السعادة منوطة بالكد والعمل، وأن كل فرد قادر في نفسه على العمل متى علم منها هذه القدرة وتربى على مبدأ الاستقلال الذاتي، أي بأن يكون أمة في ذاته لا يعتمد على سواه[88].

---

(٨٥) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ١١.

(٨٦) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ١١.

(٨٧) ن.م، ص ١٢.

(٨٨) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٥.

ونادى هؤلاء في الغرب إلى قيام أصول التربية على مبدأ الاستقلال الشخصي الداعي إلى العمل والجد[89]. وهذا يتوافق مع التربية الإسلامية التي غرست في المسلمين الشعور بـ أهمية الذاتية و الاستقلال الذاتي، وبثت فيهم روح الاستقلال وحب العمل، فحققوا ما حققوا من إنجازات حضارية عظيمة، ولا شك أنها نتاج تطبيق هذا المبدأ[90].

لكن رفيق يبين عيوب التطبيق الغربي لهذا المبدأ، بالمقارنة مع التطبيق الإسلامي له، فقد أنتجت التربية على هذا المبدأ عند الانجليز السكسونيين.. الإفراط في الطلب. وهذا كان من دوافع توسعتهم وأطماعهم الاستعمارية لامتلاك خيرات العالم ولو بالقوة. أما في الإسلام، فقد ارتبط هذا المبدأ بـ أحكام العدل المؤدية إلى تحقيق القصد في الطلب ومراعاة حقوق الآخرين، ومعاملتهم على أسس من التقوى، والترفع عن الأذى، والرفق بالأمم المغلوبة[91].

والفرق واضح بين الإفراط في الطلب المؤدي إلى طلب الثروة والسعي لتجميعها بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وبين القصد في الطلب الذي يفرض السعي لجمع الثروة وتنميتها، لكن بالوسائل المشروعة القائمة على العدل، والمستندة إلى مجموعة من المبادئ والمثل السامية.

وانتقد ما يدعو إليه دعاة هذا المبدأ في الغرب من اعتبار الإنسان أمة في نفسه لا أمة له يتكافل وإياها على جلب منافع الحياة الاجتماعية. وهذا ينطوي على مغالاة في تقديس الفردية، والمصلحة الشخصية وتقديمها على المصلحة العامة. وطرح في المقابل التصور الإسلامي لعلاقة الفرد بالمجتمع؛ فقد اعتبر الإنسان أمة مستقلاً في نفسه بالنظر الأخص، وأبناء الملة الواحدة أمة متكافلة على مصالحها بالنظر الأعم[92].

وهذا توفيق بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع، فمن المنظور الخاص للفرد استقلاله الكامل، ومن المنظور العام فالأمة متكافلة لتحقيق مصالحها العامة.

---

(89) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ١٧.

(90) رفيق العظم، ن.م، ص ١٥ - ١٦.

(91) ن.م، ص ١٧.

(92) ن.م، ص ١٩.

وإذا كان من مقتضيات مبدأ الاستقلال الشخصي مغالبة العوارض والسعي وراء الرزق والمجاهدة في ذلك، فإن من الطبيعي أن لا يستطيع الجميع المجاهدة لتحقيق الرزق بالكفاءة نفسها لما يعتري البعض من الوني أو العجز الناتج عن أسباب إما طبيعية في أصل الخلق كضعف قوة الإرادة والعقل. وإما عرضية كالمرض. وإما حكمية كالقيام بوظيفة المرابطة للذب عن حياض الإسلام والذود عن حمى الملك[٩٣]؛ لذا فإن الإسلام راعى مصالح هذه الفئات ليوفر العدالة في توزيع الثروة، فقرر الأخذ بـ مبدأ الاشتراك وتطبيقه جنباً إلى جنب مع مبدأ الاستقلال الذاتي لحماية تلك الفئات ودفع الشقاء عنها[٩٤]، وهنا جمع بين تطبيق النظريتين، نظرية الاقتصاد الحر القائمة على التنافس بين الأفراد ونظرية الاقتصاد الموجه الذي يسمح بتدخل الدولة؛ لحماية مصالح بعض الفئات التي لا تملك نفس القدرة على المنافسة، مع غيرها من الفئات ذات الإمكانات والوسائل والقدرات الفائقة.

وحديثه عن مبدأ الاستقلال الذاتي قاده إلى مناقشة قضية هامة ما زالت موضع نقاش بين علماء السياسة والاقتصاد والاجتماع، وتتركز حول دور الأفراد ودور الدولة في عملية التنمية.

وفي بدايات حياته الفكرية والسياسية، أكد رفيق الدور المركزي والفاعل للفرد في عملية التنمية بأبعادها المختلفة الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية، وجعل دور الفرد متقدماً على دور الدولة في هذا الشأن.

وعدّ تقدم الأمة أو تأخرها رهن بموقف الأفراد لا بموقف الدولة أو الحاكم؛ لأن الدولة في نظره لا تعلق لها إلا بالأمور السياسية التي تلزم للتأليف والاجتماع. أما دور الفرد فهو الأهم فراح يخاطب الأفراد فعلينا أن نؤسس مجامع علمية، وعلى الدولة أن تعضد مباحثها أدبياً، وعلينا أن نوسع نطاق تجارتنا، وعلى الدولة أن تحافظ على

---

(٩٣) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ١٩.

(٩٤) رفيق العظم، ن.م، ص ١٧.

حقوقنا وتمنعنا من تعدي بعضنا على بعض، وتصون السبل والطرقات[٩٥]. هذا ما يقوله رفيق في كتابه السوانح الفكرية في المباحث العلمية الذي يُعتقد بأنه أول مؤلفاته.

ويمضي رفيق في توضيح واجبات الأفراد في عملية النهضة والتقدم، فيرى أن الأفعال الحقيقية، واكتساب العلوم، وتقدم الصنائع والفنون، هي من ضروريات الأهلي المتعلقة بهم، ويرى أن التجربة الأوروبية في هذا المجال جديرة بالاقتداء والتدبر فإن المعامل الصناعية، والسكك الحديدية، والمدارس العلمية، والجمعيات الخيرية والشركات التي في أوروبا ما أنشأتها الملوك ولا أسستها الدولة، بل الذي أنشأها هم الأهلي[٩٦].

إن هذا الحديث عن دور الفرد، هو إعفاء للدولة من كثير من مسؤولياتها الأساسية في سبيل إحداث التنمية والتقدم، وجاء هذا الكلام في مرحلة تاريخية شهدت فيها الولايات العربية إهمالاً شديداً من قبل الدولة العثمانية، واعتقدت السلطة العثمانية بأن مسؤولياتها محصورة في الدفاع عن الدولة، وجمع الضرائب وفض المنازعات ليس إلا، ولا شأن لها بتوفير الخدمات الأساسية، أو تنشيط الحياة الاقتصادية بجوانبها المختلفة. وربما كان رفيق يجاري الدولة في نظرتها لطبيعة مهام الحكم، وإهمالها لقطاعات هامة من الحياة، وتركها لمجرد المبادرة الفردية.

ولكنه في فترة لاحقة عاد للتأكيد على دور الدولة في استصلاح الشعوب، فنجده في آخر مؤلفاته الجامعة العثمانية والعصبية التركية، يتحدث عن مسؤوليات الدولة، ومهمها الأساسية في تحقيق الإصلاح من خلال اهتمامها بـ "طرق الإصلاح القانونية، ونواميس المدنية، المتمثلة في نشر العلم وتعميم المعارف، ووضع قواعد العدل وتوسيد أمور الحكومة للأكفاء، وإنماء موارد الثروة العمومية بالإنفاق على الأمور النافعة، كتعميم الري والسكك الحديدية وإقامة القناطر والجسور وتجفيف المستنقعات، والبحث عن المعادن، وحماية التجارة، وتنشيط أهلها باستعمال وسائل الأمن والترغيب،

---

(٩٥) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٦٤ – ٦٥.

(٩٦) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٦٥.

وغير ذلك من ضروب الإصلاح.. التي هي مناط ترقي الشعوب وسعادتها ومجدها، وعلة اتفاقها حول حكومتها، وتفانيها في سبيل الذب عنها"(٩٧).

وهذا الحديث لرفيق عن دور الدولة ومسؤولياتها الأساسية في عملية التنمية والإصلاح، يأتي في مرحلة تبلورت خلالها معارضته لسياسات الدولة العثمانية، وخاصة فيما يتعلق بإهمالها للولايات العربية، التي عانت كثيراً من الإهمال والتخلف والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والأمنية.

جـ- المبدأ الديني (المؤثر الأدبي) :

هذا المبدأ دعا إلى التربية الدينية الكفيلة بالحد من النزاع حول الثروة والحد من الصراع الاجتماعي لتحقيق المكاسب المادية، وقد تبناه رجال الدين في أوروبا كنظرية مستندة للدين والتربية الروحية تحاول حل المشكلة الاجتماعية.

وتستند هذه الدعوة إلى أسس روحية بحتة ترى أن المؤثر الأدبي أو تربية النفوس على الرضا بالحرمان، وتطهير الوجدان من شوائب حب الذات يؤدي إلى السعادة. ويرى رفيق بأن هذه السعادة التي يتحدثون عنها هي سعادة روحية فقط(٩٨).

وقد أبدى معارضته لهذا المبدأ؛ لأنه استند على نوع من التربية السلبية متعارضة مع "الفطرة والعقل؛ لأن الإنسان خلق ليعمل فيعيش، فلا سبيل لإقناعه بتعطيل وظائف الحياة، بتحمل الحرمان، أو إماتة الشهوات". ورأى بأن الحل الكفيل بـ "تعديل ملكات الشهوة والعمل وتقويم أود النفوس" هو من خلال مراعاة "الحكمة والعدل"(٩٩).

وأكد بأن معالجة النفوس يكون بالحث على "العمل بلا شره والقناعة بلا ترك والصبر بلا يأس، فهذا هو "دواء "العلل التي تهدد الحضارة"(١٠٠)؛ لأن الدعوة إلى تطهير

---

(٩٧) رفيق العظم، الجامعة العثمانية والعصبية التركية أو التأليف بين الترك والعرب، منشور ضمن مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص ١٢٥ – ١٢٦، وسيشار إليه فيما بعد بـ الجامعة العثمانية.

(٩٨) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٥.

(٩٩) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٣٠ – ٣١.

(١٠٠) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٣٠.

الوجدان. والحد من حب الذات والشهوات. لا ينبغي أن يصل الحد الذي يفضي بقتل الهمم ويضعف ثمرات العقول[101].

ورأى بأن أهم سلبيات هذا المبدأ أنه دفع الناس في أوروبا إلى التنكر لجميع الأديان والمطالبة بإبعادها عن الحياة[102]، لتصورهم الخاطئ بأن الأديان جميعاً تؤمن بهذه الأفكار السلبية وتتبنى الدعوة إليها.

وعرض رفيق التصور الإسلامي لهذه المسألة والقائم على انتظام عمل الجسم وعمل الروح لتحقيق السعادة في الحياتين الدنيا والآخرة. بعيداً عن غوائل العبث وآفات التفريط والإفراط[103] وبعيداً عن تعطيل وظائف الحياة. وقصده توضيح الفرق بين التربية الروحية في الغرب، وبين مثيلتها في الإسلام التي تهدف إلى اعتياد القلب على إرادة الخير من طريق العدل فتفاعل الجوارح مع هذه الإرادة لتحقيق السعادة بشقيها الروحي والمادي، أي سعادة الروح والجسد[104].

وبيّن موقف الإسلام المتسم بالوسطية والاعتدال: ففي الوقت الذي دعا فيه إلى الاعتماد على الهمة الذاتية لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة شدد في الوقت نفسه على أن لا يصل ذلك إلى حد الإفراط المفضي إلى إنهاك القوى الحيوية واستشراء شرّ الشهوات النفسية، كما أكد في المقابل على القصد في الطلب، لكن ليس لدرجة الترك والرضا بتحمل الحرمان المفضي إلى تعطيل وظائف الحياة البشرية[105].

وفي سياق حديثه عن التيارات الفكرية والاجتماعية الأوروبية التي حاولت التصدي للمسألة الاجتماعية، عرض بشكل سريع أفكار مدرستين ضعيفتي الانتشار والتأثير هما :

---

(١٠١) رفيق لحقم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٢٧ .

(١٠٢) ن.م، ص ٢٦.

(١٠٣) ن.م، ص ٢٦ – ٢٧.

(١٠٤) ن.م، ص ٢٧ – ٢٨.

(١٠٥) رفيق لحقم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٢٨.

د- الفوضويون : وقد اعتبرهم جزءاً من الاشتراكيين لكنهم ثوريون يريدون الوصول إلى حل مشكلة الشقاء الاجتماعي والاقتصادي الذي يعليه العمال والفقراء بشكل سريع، ومن خلال الانقلاب والثورة.

ونلاحظ مما تقدم أنه ربط بين الفوضوية والاشتراكية، وقرن بين الفوضويين والثورة والفكر الانقلابي، وهو واضح في رفضه للفوضوية، ولأسلوب الثورة والانقلاب.

هـ- العدميون :

وهم في رأيه أولئك الذين ينكرون كل شيء في الوجود، وأن السبيل لتحقيق سعادة الكل هي بعدم الكل[106].

نلاحظ أنه لا يكلف نفسه عناء مناقشة أو حتى عرض أفكار الفوضويين والعدميين بتوسع، ولعل ذلك يعود إلى عدم انتشار أفكار هذين التيارين بشكل واسع ومؤثر في أوروبا، أو لأنه لا يرى في أفكارهم ما يستحق المناقشة لاختلافه جذرياً معهم.

ويرى صاحبنا أن هذا التنوع والاختلاف بين التيارات الفكرية الأوروبية في طرح التصورات والحلول للمشاكل الاجتماعية يُعدّ مؤشراً على ارتباك العالم المتمدن وعجز عقلائه عن التوفيق بين هذه المطالب، وردها إلى حد العدل الذي يمنع تصادم المقاصد[107].

ونادى بالتوصل إلى تصور واضح يجمع بين ما تحويه تلك التيارات والمذاهب من إيجابيات تؤخذ وسلبيات تترك؛ لاحتواء كل منها على سلبيات وإيجابيات، ولأن كل واحد منها يعجز بمفرده عن حل المشاكل الاجتماعية[108]. وهنا يدعوه إلى المناداة بصوتٍ عالٍ وواثق بأن الإسلام هو ذلك القانون الذي يجمع الإيجابيات الواردة في تلك

(١٠٦) رفيق لحطم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٤ .

(١٠٧) رفيق لحطم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٦ .

(١٠٨) رفيق لحطم، ن.م، ص ٦ .

المذاهب، ويخلو من سلبياتها، وينبه إلى أن السعادة أبت أن تكون إلا من الله، وأن يكون القانون الجامع لمطلب الحياة المادية والمعنوية إلا ما أنزل الله (ولو كره المبطلون)[109].

لذا فهو يطرح المبدأ الإسلامي الكفيل بحل المسألة الاجتماعية أو المشاكل الاجتماعية من جذورها وهو مبدأ التكافل العام أو التكافل الاجتماعي.

و- مبدأ التكافل العام :

يعتبر رفيق من أوائل المفكرين العرب الذين استخدموا مصطلح التكافل العام ومن أبرز مفكري التكافل الاجتماعي في العالم العربي[110]، وكان رفيق واحداً من الذين تحدثوا عن التكافل العام كتصور إسلامي يهدف إلى حل مطالب الحياة الاجتماعية. وانطلق رفيق في معالجته للمسألة الاجتماعية في الإسلام من أن الإسلام أحاط بسائر لوازم الحياة الاجتماعية، وأرشد إلى جميع طرق السعادة الدنيوية والأخروية[111]. ورأى بأن تطبيق المسلمين لأحكام الشريعة سيكفل لهم حلولاً ناجعة للمسألة الاجتماعية. وفي اللحظة التي يتعدون فيها عن أحكام الشريعة سيصيبهم الضعف، وستختل الكثير من المعادلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية في حياتهم.

وانطلاقاً من هذا الفهم فإنه يرى بأن ما أصاب المسلمين من تقهقر وتراجع وتخلف مرده ليس إلى ضعف في القانون (الشريعة)، أو بسبب الحاجة إلى وضع أوضاع جديدة أو تراتيب مفيدة في نظام الأمة ولتظام شؤون الدولة، بل إن السبب في ذلك هو الضعف الذي لحق بقاعدتين هامتين كفيلتين بتطبيق سليم وفعال لأحكام الشريعة. وهما : قاعدة عدل القوام، وقاعدة التكافل العام. فالشريعة لا تغني شيئاً على الرغم من أنها أعدل ما جاء من الشرائع[112]، إذا غاب من حياة المسلمين عدل القوام (الحكام)،

---

(109) رفيق العظم، م.س، ص ٧.

(110) د. فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثالثة، طبعة جديدة معدلة، ١٩٨٨، ص ٤٩٨ .

(111) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٣٧ .

(112) رفيق العظم، الإصلاح الإسلامي بعدل القوام أو التكافل العام، المنار، م٢، ج٦، ١٥ إبريل ١٨٩٩، ص ٨١ – ٨٨.

وغياب التكافل العام بين أفراد الأمة بمجموعهم من أجل ضمان حماية الشريعة وسلامة تطبيقها وبشكل يكفل العدالة الاجتماعية.

ويرى بأن غياب (عدل القوام والتكافل العام)، أي السلطة السياسية العادلة والمجتمع المتكافل من أجل تطبيق الشريعة وحفظ أحكامها، سيؤدي حتماً إلى امتناع الفائدة من الشريعة مهما كانت في نفسها عادلة. وبالتالي تعتز التأليف بين النفوس المتغلبة والعناصر المتباينة. وبعبارة أخرى سيحدث خلل كبير في السلام الاجتماعي وتعريض وحدة المجتمع لخطر الصراع والاضطراب. وهو ما أطلق عليه رفيق فقدان الألفة العمومية، الذي ينجم عنه التعطيل في سائر ما تدعو إليه الحضارة وتطلبه الاجتماع[113].

ونفهم من كلامه أن الهدف من وجود قاعدة التكافل العام على قيام شرائع الإسلام، هو صيانة قوانين الشرع وأحكامه من عبث العابثين بما يحفظ العدل. وهذا لا يتحقق إلا عندما تكون المسؤولية عامة متبادلة، ويتناصر المسلمون على قاعدة التكافل العام[114]؛ مما يؤدي إلى بلوغ الأمة مكانة من الألفة الاجتماعية، ثبت بالتجربة قدرتها على دمج مئات الملايين من البشر، ومنحهم ظروفاً حياتية كانت أفضل بكثير من ظروف كل من كان حولهم[115]. ويعتقد بأن الفائدة الكبرى المتحصلة من تطبيق مبدأ التكافل العام أنه يخلق شكلاً من أشكال الرقابة على السلوك العام للأفراد والمجتمع. فيحدد للجميع حقوقهم وواجباتهم[116]. ومن فوائد تطبيقه أيضاً أن الأمم المختلفة التي جمعها الإسلام، تحولت إلى أمة واحدة تتكافل على مصالحها العامة ويستقل كل فرد منها بثمرة عمله الخاص، الذي يجنيه من خلال الجد والنشاط. وبفضله سادت روح الألفة بدلاً من العصبية. وانضوى المؤمنون جميعاً تحت حكم الإخاء العام امتثالاً لقوله تعالى (إنما المؤمنون أخوة)[117].

---

(113) رفيق العظم، الإصلاح الإسلامي بعدل القوام أو التكافل العام، ص ٢٩٠.

(114) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٣٦.

(115) رفيق العظم، الإصلاح الإسلامي، ص ٢٩١.

(116) رفيق العظم، ن.م، ص ٢٩٢.

(117) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٢٠ – ٢١.

أما الشروط الواجب توفرها لضمان تفعيل مبدأ التكافل العام وتحقيق العدل الكافل لحياة الأمم[118] فهي :

أولاً : التعاون العام بين المسلمين لتحقيق المنافع ودرء المفاسد التعاون على البر والتقوى وترك التعاون على الشر، كما يشير إليه قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) ويجب فيه على تعل الإخاء الإسلامي تحري أسباب السعادة من طرق الشرع. كما يجب ارتياد المنافع من وجوه تبادل المصالح لأمن وجوه العدوان...[119].

ثانياً : التكافل العام على قيام شرائع الإسلام[120].

ثالثاً : إطلاق حرية الضمائر واستقلال الأفكار في أداء واجب المناصحة العامة بين المؤمنين والخاصة لكل مؤمن في نفسه وهنا ينجم عنه أمران هما :

الأمر الأول : تحقيق الاستقلال العقلي للأفراد فيصبح كل فرد أمة في نفسه يراعي العدل في كل شؤونه.

الأمر الثاني : تكافل الجميع على تحري المصلحة العامة بالوسائل الشرعية بما يوافق العدل، وهنا يحقق سعادة المجموع وقوته وترابطه[121].

نخلص إلى القول بأن التكافل العام – عنده – يعني تعاون الأمة بمجموعها على حفظ الشريعة وسلامة تطبيقها، وسيادة العدالة بين أفرادها، ومنع الظلم بكل أشكاله؛ ظلم الدولة لأفرادها أو ظلم المجتمع لأفراده أو ظلم الأفراد لبعضهم أو ظلمهم لمجتمعهم. فهو منظومة متناسقة متوافقة على صيانة العدالة الاجتماعية وحفظ حقوق الجميع من العدوان؛ وحماية الفرد وحقوقه واستقلاله الذاتي، وفي نفس الوقت حماية حقوق المجتمع والمصلحة العامة، وتكوين هيئة اجتماعية متكافلة متراحمة تفرض هيبة الشرع والعدل. وهنا بطبيعة الحال يكون مجرد رادع أخلاقي في غياب الوازع أو الدولة التي تفرض سيادة الأحكام والشرائع.

---

(118) رفيق العظم، ن.م، ص 21 .

(119) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص 20 – 21.

(120) ن.م، ص 21.

(121) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص 22 .

ثانياً : فكره التربوي :

تمهيد :

في الوقت الذي تشكل فيه إجماع لدى المفكرين العرب على ضرورة الإصلاح، بقي البحث عن أفضل الوسائل لتحقيق الإصلاح المنشود محل اجتهاد واختلاف بينهم منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وربما حتى يومنا هذا. فاعتقد البعض وعلى رأسهم السيد جمال الدين الأفغاني، بأن أفضل وسيلة لتحقيق الإصلاح هي السياسة، في حين اعتبر آخرون، بقيادة الإمام محمد عبده، بأن التربية هي الوسيلة الفضلى لتحقيق الإصلاح[١٢٢]. وقد تشكلت من حول الإمام محمد عبده مدرسة إصلاحية مؤمنة بنجاعة التربية والتعليم كأسلوب يضمن – ولو بعد حين – تحقيق الإصلاح. وكان من أبرز المتحمسين لها والمؤمنين بأفكارها والمدافعين عن أهمية التربية والتعليم وخطورة دورهما في حياة الأمة ومستقبلها، صاحبنا رفيق العظم.

إن صلة رفيق الفكرية بالتيار المنادي بانتهاج التربية والتعليم كأسلوب فعّال للإصلاح، لا تتعلق فقط بصلاته بالإمام محمد عبده بعد هجرته إلى مصر، بل إن الصلة بهذا التيار الإصلاحي التربوي – إن جاز التعبير – تعود إلى حلقة الشيخ طاهر الجزائري.

١- رؤيته لأهمية التربية :

وقد يكون من الأمثلة الدالة على اهتمام رفيق بالإصلاح التربوي، هو مساهمته في تأسيس المدرسة العثمانية في القاهرة، وتوليه التدريس في صفوفها العليا إلى جانب قيامه بإدارتها. ومن جهوده البارزة في ميدان التربية والتعليم إقدامه على تأليف كتاب الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية لوضعه بين أيدي تلاميذ المدرسة العثمانية. وقد اعتبر هذا الكتاب رائداً في مجاله وزمانه. وتقليداً من الإمام محمد عبده لأهميته فقد قرر تدريسه في مدارس الجمعية الإسلامية[١٢٣]. وقد عوّل رفيق كثيراً على التربية

(١٢٢) د. أحمد الشوابكة، محمد رشيد رضا، ص ١٧٠؛ د. ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨ – ١٩٣٩)، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، بلا تاريخ، ص ٢٢٢.

(١٢٣) محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق بك العظم، منشورة في مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص (ط – ي).

والتعليم في كتابه هذا، وركز على أهمية التربية والتعليم لإعداد الناشئة الإسلامية؛ لما يتنظرها من تحديات ومهام جسيمة في مستقبل أيامها وبما يؤهلها للقيام بدورها الفاعل في نهضة الأمة وتقدمها.

وربط بين الإصلاح التربوي والإصلاح السياسي، وقرن بينهما كعنصرين هامين لإنجاز عملية الإصلاح الشاملة، وأكد ذلك عندما حدد السبيل لإخراج الأمة من حالة التخلف والانحطاط بوسيلتين، الأولى : الاهتمام بالعلم وإصلاح التعليم وتطويره؛ والثانية : هي الإصلاح السياسي بتطبيق النظام النيابي في حياة المسلمين[124].

ورأى رفيق بأن التربية وسيلة فعالة وناجحة في سبيل صياغة الإنسان وتوجيهه في وجهة معينة مبتغاة، ولأن الإنسان قابل للتغير، والتأثر بالمحيط الذي يعيش فيه، كما أنه قابل لتقليد الصور التي يشاهدها، ولأنه مستقبل جيد لما يسمع ويرى؛ لذا فإن التربية حتماً ستكون مؤثرة وذات نتائج.

٢- البعد الأخلاقي للتربية :

ورفيق يعتقد بأن التربية على الفضائل هي أسّ العلم وأفضل معارج الترقي، ودليله على أهمية التربية الأخلاقية الفاضلة، أن تفشي الرذائل بين أمة، إذا لم يمنع من ترقيها، فإنه يكون علة لسرعة سقوطها[125]. ويرى أن ميزان الأمم في الترقي والتدلي هي الأخلاق؛ لذا فإن الدعوة إلى معالجة أمراض النفوس، وتعهدها بالتربية هو ما اهتمت به الشرائع الدينية والبشرية؛ سعياً لتقويم الأخلاق[126]. وتقويم الأخلاق هو نتاج عملية تربوية تعليمية.

وبما أن الأخلاق غير طبيعية في الإنسان، بل هي مكتسبة بالتربية، والمكتسب بالتربية قابل للتغير[127] فإن العمل التربوي يكون مفيداً ومثمراً، ولا سيما أن الإنسان مطبوع على قبول الأخلاق بالعادة، كما أن الأخلاق قابلة للانتقال بالتأديب

---

(١٢٤) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٧٩.

(١٢٥) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية وأوروبا، منشور ضمن مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص ٧٩–٨٠.

(١٢٦) رفيق العظم، مقدمة بقلمه، في كتاب البنين، تأليف بول دومر، ترجمة عبد الغني العريسي، المطبعة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٢٩هـ، ص ٤–٥، وسيشار إليه (مقدمة كتاب البنين).

(١٢٧) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٥.

والمواعظ[128]. وتحدث عن العلاقة الوثيقة بين التربية وفساد الأخلاق، واعتبر أن الانحطاط الذي أصاب الشرق راجع إلى ضعف الأخلاق وفسادها[129]. وبالتالي فساد التربية التي أنتجت تعميم هذه الأخلاق الفاسدة.

وتجدر الإشارة هنا إلى نظرته إلى تصنيف الأخلاق، فهو يعتبر أن فساد الأخلاق لا يقتصر على التهتك وانتشار الرذيلة؛ كما يعتقد البعض، بل الأمر أكبر من ذلك. وينفي أن تكون المدنية الغربية وحدها المصابة بانحطاط الأخلاق بسبب انتشار الرذائل في المجتمعات الأوروبية؛ لأن الرذيلة جزء من الفساد الأخلاقي، ولا تزيد خطورة على أمراض أخرى، مثل الكذب الذي يؤدي إلى انعدام الثقة بين الناس. وأثر ذلك كبير على المعاملات والتجارة والصناعات[130].

ويذكر أمثلة أخرى على الأخلاق الفاسدة التي تعاني منها المجتمعات العربية الإسلامية، منها : الجبن والنميمة والرياء والكبرياء الباطلة والرضا بالقديم ومعاداة العلم، وغيرها من الأخلاق السافلة التي قضت بالشقاء على الشرق. ويقارن هنا بمجال الأخلاق الغربية، فيرى أن شيوع الفاحشة والاستهتار في الغرب، لا يقارن بما لديهم من الثقة المتبادلة، والأمانة في المعاملة، والاعتماد على النفس في معترك الحياة، والنزوع إلى المزيد من القوة والعلم والثروة وحب الحرية، والصدق في العمل والقول، والبعد عن المداهنة والرياء خصوصاً للقادة والزعماء، وغير ذلك من الأخلاق التي شكلت سياجاً واقياً يحمي المدنية الغربية من السقوط التي وقعت فيه المدنية الشرقية[131].

وهنا – لا شك – تصور واعٍ ومنصف لمحاسن الحضارة الغربية، حتى في مجال الأخلاق، في حين تشدد الكثيرون في اعتبار الحضارة الغربية، تعاني من انهيار شامل في الأخلاق.

---

(128) رفيق العظم، ن.م، ص ٢٠ .

(129) رفيق العظم، انحطاط الشرق بانحطاط الأخلاق، مجلة المقتبس، م١، ص ١٣٨ .

(130) رفيق العظم، انحطاط الشرق بانحطاط الأخلاق، مجلة المقتبس، م١، ص ١٤١ – ١٤٢.

(131) رفيق العظم، انحطاط الشرق بانحطاط الأخلاق، مجلة المقتبس، م١، ص ١٤١ – ١٤٢.

وجد رفيق يدعو إلى التعرف إلى ما يكتبه علماء الغرب في التربية والأخلاق لتحدي أهله في النافع من ذلك بما يلتئم مع روح الأقوام الشرقية، ودعا إلى ترجمة ما كتبه هؤلاء للإفادة من النافع فيه(١٣٢).

٣- البعد الديني للتربية :

ويعطي للدين دوراً محورياً في التربية؛ وإيماناً منه بأن بعض الناس لا يقتنع بصحة أي رأي إلا إذا جاءت الدعوة إليه من الغرب؛ لذا يلفت الأنظار إلى موقف امبراطور المانيا الذي نبّه إلى أهمية الدين في التربية، وجعل التعليم الديني إجبارياً في المدارس الألمانية(١٣٣).

ويعبر عن عدم رضاه عن درجة اهتمام المدارس المصرية والعثمانية بالدين، وعدّ ذلك غير كافٍ لتثقيف العقول وتهذيب الأخلاق ومقتصر على العقائد وبعض الأفعال التي تمحوها من ذاكرة التلميذ ما يتلقاه في المدارس الثانوية والعالية من العلوم الطبيعية والرياضية، القائمة على الأدلة العقلية والبراهين الحسية. وبناءً على ذلك فهو يطالب بوسائل أكثر فاعلية في غرس المفاهيم والمبادئ الدينية في نفوس التلاميذ مستندة إلى أسس علمية تكون أكثر تقريباً للإفهام وأشد رسوخاً في العقول، وذلك يتم من خلال تعميم علم الأخلاق، ودرس مبادئ الحكمة الدينية، وتطبيق بعض القواعد الطبيعية، على النصوص الدينية لترسخ وتنطبع في أذهان الأولاد. ويطالب بوضع كتب جديدة تبين مزايا الدين الإسلامي للناشئة الإسلامية، بعيداً عن العقائد الباطلة والبدع(١٣٤).

٤- أهمية التعليم وأسس تطويره :

وإذا كان التعليم يكتسب أهميته من خدمته للعلم، فإنه يصبح ذا مكانة رفيعة في حياة الأمم، خاصة إذا عرفنا أن العلم هو حفاظ الحياة الاجتماعية، وأسّ الحضارة والعمران، وأول المقومات التي لا تقوم إلا بها حياة المجتمعات(١٣٥). كما أن العلم يعتبر

---

(١٣٢) رفيق العظم، مقدمة كتاب البنين، ص ١١.

(١٣٣) رفيق العظم، الخفاف سياج العمران، مجلة الهلال، ج٦، ١٥ نوفمبر ١٨٩٤، ص ٢٢٥ .

(١٣٤) الخفاف سياج العمران، مجلة الهلال، ج٦، سنة ٣، ١٥ نوفمبر ١٨٩٤، ص ٢٢٦ .

(١٣٥) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٦٨ – ٦٩ .

– في نظر رفيق – هو الميزان الذي تكافأ به قوى الشعوب المتنازعة في مضمار الحياة المدنية[١٣٦].

ونادى بضرورة تصحيح التعليم وتطويره لمواكبة تطور الحياة، فأكد مجموعة من الأفكار والمبادئ حول تطوير التعليم نعتبرها في هذه الأيام متعلقة بما نسميه التربية الحديثة. فتحدث عن ضرورة الاهتمام بالعلم وتوسيع نطاق انتشاره بالتوسع في فتح المدارس، وإرسال البعثات الطلابية إلى أوروبا لتلقي العلم. ونادى بالاهتمام بالعلماء وتقديرهم، والاهتمام بالنوابغ والطلبة المتفوقين، والاهتمام بالتأليف والكتابة. ودعا إلى التخلي عن طرق التعليم التقليدية العقيمة المستندة إلى حفظ الشروح والحواشي، وترك المؤلفات والحواشي التي لا يستفيد منها الطالب إلا اضطراب عقله. ونادى بنبذ الأوهام والخرافات وركز على ضرورة الإحاطة بالعلوم الدنيوية كالهندسة والحساب والفلك والجغرافيا وغيرها[١٣٧].

وتطرق رفيق إلى موضوعات كثيرة تتعلق بالتربية والتعليم مثل ضرورة مراعاة رغبات التلاميذ في اختيار التخصصات الملائمة لمواهبهم وميولهم[١٣٨]. ونبه إلى ضرورة الاهتمام بالتعليم المهني، فرأى أنه بعد استكمال التلميذ لمرحلة التعليم الابتدائية والتجهيزية، وفي حال ظهرت لديه ميول نحو الفنون والصنائع، فيجب مساعدته في التوجه نحو هذه الرغبة[١٣٩].

وفيما يتعلق بالتعليم العالي يرى حصره في إطار فئة محددة من أرباب السياسة والحكومة، وأبناء الحل والعقد.. و"ذوي اليسار من الناس" القادرين على التفرغ لمتابعة التعليم العالي، ومن غير العاملين في المهن والحرف. الذين يجب أن يحافظوا على أعمالهم ومهنهم فلا يهجروها[١٤٠].

---

(١٣٦) رفيق العظم، ن.م، ص ٧٣.

(١٣٧) رفيق العظم الجامعة الإسلامية وأوروبا، ص ٧٩ – ٨٠؛ رفيق العظم، مطلب الحياة الاجتماعية، ص ٦٠، ٦٩.

(١٣٨) رفيق العظم، البيان في التمدن، ص ٢٤.

(١٣٩) رفيق العظم، ن.م، ص ٢٤ .

(١٤٠) رفيق العظم، ن.م، ص ٢٣ .

ودعا إلى الدقة في اختيار المعلمين من أصحاب الكفاءة والتخصص والخلق، ونبّه إلى ضرورة توفير أعداد كافية من المعلمين بحيث يكون لكل عشرة أو عشرين تلميذاً معلم؛ لأن ذلك أيسر للتعليم وأقرب لتهذيب التلامذة وتأديبهم[141].

ونادى بضرورة توفير فرص العمل أمام المتعلمين حذراً من تفشي البطالة في صفوفهم؛ إذ أن ذلك سيؤدي إلى إحباط الشباب وعزوفهم عن التعليم والجد والاجتهاد[142].

وانتقد نظام التعليم الأزهري، فدعا إلى تركه وأن يستبدل به نظام عصري، وأيد الدعوة إلى تحديث الأزهر وتطويره التي قادها الإمام محمد عبده، وأبدى ارتياحه إلى ما يجري من تطوير وتغيير في أنظمة الأزهر وشؤونه التعليمية، بما يعيد دوره الفاعل في الحياة[143].

---

(١٤١) رفيق العظم، البيان في التمدن، ص ٢٥ .

(١٤٢) رفيق العظم، ن.م، ص ٢٤ .

(١٤٣) رفيق العظم، الاتحاد العثماني، العدد (١١١)، ١٤ محرم ١٣٢٧هـ ٤ شباط ١٩٠٩، ص ١ – ٢.

ثالثاً : فكره السياسي

تمهيد :

كان رفيق صاحب نظرة شاملة للحياة بأبعادها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، فكان في طليعة المفكرين العرب المحدثين الذين آمنوا بالترابط الوثيق بين هذه الأبعاد المختلفة، فتراه يمزج بينها مزجاً سلساً طبيعياً، دون أن يبني الحواجز أو يقيم الفوارق المصطنعة بينها؛ فعندما يتحدث عن الدين يربطه بالسياسة والاجتماع والاقتصاد وكذلك الأمر عندما يتحدث عن السياسة أو الاجتماع أو التربية فهو يقرن بعضها ببعض، وينبه إلى ما بينها من ترابط وتلازم وتأثير متبادل.

وفي حقل السياسة، مارس نشاطاً واسعاً وفاعلاً على الصعيدين العملي والنظري، فقد مرت فترة من الوقت اعتبر فيها رفيق من أبرز السياسيين العرب العاملين في نطاق الحركة الإصلاحية والقضية العربية. كما اعتبر واحداً من أبرز المهتمين بقضايا الفكر السياسي، ومن الذين أسهموا في نشر الوعي حول تكوين النظام السياسي السليم والدولة القوية النافعة، وواجبتها. كما تحدث عن أشكال الحكومات المختلفة، مبدياً تأييده للدستورية والنيابية والديموقراطية الملتزمة برعاية الحرية، ومعارضته للحكم المطلق والاستبدادية الفردية المكرسة للاستبداد والظلم الذي حاربه رفيق أيما حرب، وقاومه أيما مقاومة. كما تحدث عن النظرية السياسية في الإسلام، ومشكلات الحياة السياسية عند المسلمين.

١- أهمية الدولة ووظائفها :

ونرى لديه قناعة تامة بالترابط الوثيق بين الدين والاجتماع والملك، وبأهمية وجود الدولة؛ لما يترتب عليها من واجب، وما تقوم به من وظائف. أما قناعته بضرورتها فتستند إلى مجموعة من الحقائق هي :

أولاً : أن مصالح البشر لا تتم إلا بالاجتماع، وطبيعة الحياة البشرية تقضي بوجوده.

ثانياً : أن الاجتماع لا يخلو من المنازعات المفضية إلى تغلب القوى المتنازعة وتكافحها في ميدان الحياة.

ثالثاً : لا يمكن منع هذا التغلب إلا بقوة الوازع الذي يناط به تنفيذ أحكام الشرائع للحيلولة دون حدوث ما يخل بنظام المجتمعات ويؤدي إلى فسادها وتداعي أركانها.

رابعاً : بناءً على ما سبق تكون النتيجة أن الحكومات ضرورية للبشر، ولا حياة للأمم والشعوب إلا بحكومة أو سلطان[144]. وهذا تسلسل منطقي يؤكد ضرورة وجود الدولة.

أما بالنسبة لوظائف الدولة فيحددها فيما يلي :

أولاً : حماية القانون والعمل بمقتضاه فهي تهيمن على الشرائع والقوانين وتعمل بها.

ثانياً : متابعة وحماية المصالح التي تعود على الهيئة المحكومة بالخير وتدفع عنها الشر.

ثالثاً : الاهتمام بالشؤون الخارجية، من خلال تنظيم علاقتها مع الأمم المجاورة؛ لتقوية صلات الجوار، وتسهيل أسباب التبادل في المنافع ووضع المعاهدات وإعلان الحرب وإبرام الصلح.

رابعاً : الاهتمام بالشؤون الداخلية المتمثلة في الجباية ورد الحقوق وحفظ الأمن وإقامة الحدود وتأمين السابلة وتسهيل طرق التجارة[145].

٢- موقفه من النظم السياسية السائدة :

ومن ناحية أخرى فقد أبدى موقفه من أشكال النظم السياسية السائدة التي تتراوح بين الحكومة الدستورية المعتدلة، والحكومة النيابية، والحكومة الاستبدادية المطلقة.

وقد ناقش السمات العامة لهذه النظم السياسية، وبيّن سلبيات هذه الأنظمة وإيجابياتها، وأعلن تفضيله ومساندته للحكومات القائمة على أسس دستورية ونيابية، في حين حارب الحكومات الاستبدادية المطلقة.

أ- الحكومة الدستورية المعتدلة :

وعدّ رفيق الحكم الدستوري عنواناً لترقي أخلاق الأمة؛ للأسباب التالية :

١- لأنه يكفل خضوع الأمة لسيادة الدستور والقانون[146].

٢- لأنه يؤكد على مبدأ سلطة الأمة. وهذا - في رأيه - مبدأ هام يؤدي إلى تنبيه القوى الجامعة وربط أواصر الأخوة الوطنية، وبثّ روح العزة في النفوس؛ لتساق إلى مستوى التكافل العام القائم على أساس الحرية والإخاء والمساواة[147].

---

(١٤٤) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٢٥ - ٢٦.

(١٤٥) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٢٦ - ٢٧.

(١٤٦) رفيق العظم، مقدمة كتاب لبنون، تعريب عبد الغني العريسي، ص ١١.

(١٤٧) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، في مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص ١١٨.

٣- لأنه يعتبر وسطاً بين طرفي التفريط (الحكومة الاستبدادية)، والإفراط (الحكومة الجمهورية) [١٤٨]. ونلاحظ أنه يقرن بين الجمهورية والإفراط في الحرية. وقد ربط بين الحكم الدستوري والديمقراطية مبدياً تأييده للديموقراطية الصحيحة؛ لأنها تزيد الأمة تماسكاً، وهو يعتقد بأن العالم يسير إلى الديموقراطية الصحيحة سيراً حثيثاً [١٤٩].

وربط بين الحكم الدستوري وبين التعددية الحزبية؛ لأنه يعتقد بعدم إمكانية التوفيق بين الدستورية وغياب الأحزاب أو بسيادة الحزب الواحد والأحزاب في نظره كالقواعد التي يشاد عليها بناء الدستور، ولا يمكن لقاعدة واحدة أن ترفع تلك البناء لذا فلا يمكن للحزب الواحد مهما بلغ من القوة والحيوية أن يمتلك القوة التي تؤهله لحمل ذلك البناء الثقيل بإزاء أمة جامدة.

ونظراً لإيلائه الأحزاب السياسية هذه الأهمية في نظام الحكم الدستوري، فإنه يرفض اعتزال عامة الشعب للعمل السياسي، ويدعو إلى انخراط الأمة كلها في النشاطات السياسية؛ لتتلاقى الجهود مجتمعة للقيام بأعباء الدولة، والأحزاب السياسية هي القادرة على دمج الشعب في العمل السياسي وهي القادرة على تمرينه على ممارسة الحكم والمحافظة على الحرية والدستور [١٥٠].

وعدّ الدولة الإسلامية الأولى في عهد الخلفاء الراشدين خير مثال على الحكم الدستوري الديموقراطي (الشوري)؛ لأنها قامت على دعامة الشريعة وليس القوة فكانت دستورية لا عسكرية [١٥١]، وهي حكومة ديموقراطية قلّ أن يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصر أحسن لسياسة الأمم منها [١٥٢]، لكن التحول عن الشورى بدأ مع

---

(١٤٨) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٢٧ .

(١٤٩) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، ١٩٧٢ – ١٩٧٣، ص ٤٠٢؛ رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١١٩؛ رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨٢.

(١٥٠) أنظر، أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، الطبعة الرابعة المنقحة، بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٦٧، ص ٨٨. وهو يستند إلى مقالة لرفيق العظم منشورة في مجلة المورد الصافي م٢، ص ٢٤٢. للأسف لم يتسنَ لي الاطلاع عليها.

(١٥١) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٤٠٢ .

(١٥٢) ن.م، ص ١٢١ .

استلام الأمويين السلطة. فكان ذلك مبدأ انقلاب سياسي عظيم، أثر على نظام الخلافة الشرعية والحكومة الديموقراطية في الإسلام، وبذر في بيوت الملك والخلافة بذور الحكم المطلق[١٥٣].

ب- الحكومة النيابية :

وفي إطار حديثه المتواصل عن أهمية الحكم النيابي وفضائله، أوضح أن الشعوب التي تتمتع بالحكم النيابي لم تحصل عليه إلا بعد كفاح طويل وشاق، وبتعبيره بعد جهد وجهاد مع قادتهم المستبدين وأمرائهم القاهرين[١٥٤]، فلم تحصل هذه الشعوب على حقوقها السياسية بسهولة، بل دفعت ثمن ذلك غالياً، وهذه دعوة مبطنة للعثمانيين؛ لانتهاج السبيل نفسه، إن أرادوا الحصول على حقوقهم السياسية.

وعبّر صراحة عن اعتقاده بأن المسلمين لن يبتعدوا كثيراً عن دينهم إذا طالبوا بالحكم النيابي الذي وضع الإسلام أساسه. وانطلاقاً من هذا الاعتقاد راح ينادي بالمسلمين أن قيدوا حكومتكم أنى كان جنسها بالقانون النيابي، إذ بهذا تتم سعادتكم ويسلم استقلالكم وتأمنون على حياتكم السياسية وجوامعكم المليّة[١٥٥].

ورأى بأن الحكومة الإسلامية هي حكومة نيابية، وجعل من عدل عمر بن الخطاب، ومحاسبة الرعية له، واستشارته لهم أفضل مثال على الحكم النيابي[١٥٦]. لكن النموذج الإسلامي للحكم النيابي أصابه التشوه والتراجع، بسبب غياب القوانين من حياة المسلمين، وعدم امتلاكهم لتجربة في أصول الحكومات؛ مما دفعهم إلى إناطة كل شؤون الدولة السياسية والدينية بالخليفة، وأبدى أسفه لأنهم لم يقتبسوا عن الرومان أصول الحكومات النيابية الثابتة التي تقوم بالتكافل بين أفراد الأمة، وتضمن استمرار قاعدة

---

(١٥٣) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٧٧٢ .

(١٥٤) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٩٨ .

(١٥٥) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٧٩ .

(١٥٦) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٩٨ .

الشورى التي أوجبها الكتاب الكريم[157]، وأكد أن التراجع الكبير عن الحكم النيابي جاء مع الأمويين الذين قضوا على الشورى[158].

وحمّل الأمويين مسؤولية القضاء على البذور الديموقراطية التي بذرها الخلفاء الراشدون وبيّن أن السبب الباعث للأمة العربية على الانغلاب لشهوات الملوك من بني مروان إلا ذلك المزيج الذي تألف منه جسم المجتمع الإسلامي يومئذ وأخصهم الموالي من النبط والفرس والروم كما أن الأمة العربية غُلبت على أمرها بتفرق عصبيتها، وتشتت قبائلها في فارس والروم والشام ومصر وإفريقيا والأندلس، فلم يتنبهم تلك الفتح عن استبداد خلفائهم الذين خلا لهم الجو وتفرق عنهم أنصار الحرية[159].

ولو علم الأمويون أن الحكومة النيابية شرط في بقاء الدول، وسياج للملك يقيه وثبات الدول الناشئة، لما نزعوا منازع الجبروت، وهدموا ركن الشورى[160].

جـ- الحكومة الاستبدادية المطلقة :

لم يحارب رفيق شيئاً كما حارب الاستبداد، فقد عرّاه وكشف مخاطره وشروره على الفرد والأمة، وحذّر من عواقبه الوخيمة، ودعا إلى مقاومته والتخلص من آثاره السلبية.

وعدّ حكومة الأفراد أو حكومة الأشخاص أخطر أنواع الحكومات، وهي أجدر من يمثل الاستبداد الذي من طبيعته تخدير القوى الجامعة، وتقطيع وشائج الصلة بين أبناء الوطن الواحد كي تهن الأمة عن مناهضة السلطة المطلقة وتذل لعبّاد الشهوات من زعماء هذه السلطة[161]. والاستبداد قتّال للوجدان، خاذل للنفوس، مانع من ترقي العقول، وتلمس طرق العلم الصحيح[162].

---

(157) نـم، ص ٦٤٤ .

(158) نـم، ص ٢٩٨ .

(159) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٩٩ .

(160) نـم، ص ٢٩٩ .

(161) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١١٨ .

(162) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية وأوروبا، ص ٧٩ .

وبيّن أن مصائب المسلمين ناتجة عن حكم الأفراد المستبدين، وانقياد عامة المسلمين لهم؛ لأن الاستبداد يؤدي إلى موت إرادة الملايين من البشر في إرادة شخص[١٦٣]. وهنا يلائم نظرة الحكومات الاستبدادية لشعوبها، فالشعب في نظرها رعية، بينما الحكومات الدستورية توجد فيها أمة[١٦٤].

وخلص إلى أن من النتائج الخطيرة للاستبداد أن تصاب الأمة بما أسماه القانع العام الذي يصيب الأمم في أواخر عهدها[١٦٥]. وهذا يعني أن الحكم الاستبدادي المطلق لا بد أن يقوّض أركان الملك ويدمر صروح العمران[١٦٦].

وفي نطاق طموحه لفكرة عملية، تجتث الاستبداد من جذوره نجده يدعو إلى نشر العلم؛ لأن العلم يحارب الاستبداد فينادي بالمسلمين قائلاً : قاتلوا بالعلم الحكم الشخصي وقيدوا حكومتكم بالقانون النيابي[١٦٧]. إذاً لا بد من العلم والوعي ولا بد من التشريعات القانونية الثابتة للتخلص من الاستبداد.

إن محاربته للاستبداد بهذه القوة تجعله في طليعة أنصار الحرية ومؤيديها؛ لأنها نقيض الاستبداد ولأنها جوهر الحكم الدستوري والنيابي، وهي في نظره حياة الأمم ودعامة التمدن وأساس الترقي العقلي في هذا الوجود البشري[١٦٨].

وبيّن دورها في تحقيق سعادة الشعوب الغربية المتمدنة وفي المقابل دعا إلى تأمل أحوال الشعوب الشرقية نتيجة عدم احترام الحرية[١٦٩]. وأبدى استغرابه وأسفه الشديدين؛ لأن علماء الأخلاق العرب لم يهتموا بتوضيح العلاقة بين الحرية والأخلاق، مع أن القرآن

---

(١٦٣) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية وأوروبا، ص ٧٨.

(١٦٤) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١١٨ .

(١٦٥) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٤٠٣ .

(١٦٦) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٣٠ .

(١٦٧) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨٠ .

(١٦٨) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٤٥ .

(١٦٩) رفيق العظم، مقدمة كتاب البنون، ص ١٠ .

الكريم الذي استمدوا منه أكثر ما كتبوه في التربية الروحية والفضائل النفسية، أشار في عدة مواضع منه إلى وجوب احترام حرية الوجدان..."[170].

وتحدث عن أشكال متعددة للحرية، منها الحرية السياسية والحرية المدنية والحرية الأدبية والحرية الدينية، والحرية الشخصية التي تكفل إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته لأبناء جنسه..."[171]. كما تحدث عن "حرية التجارة والصناعة والفلاحة والأعمال الفكرية والبدنية، وهي القادرة على التقدم بالبلاد وجميع الدول التي صادرت هذه الحريات أصبحت ثروتها عقيمة ومنافعها عديمة. فالترخيص بها يجلب المنافع العمومية، ويكسب البلاد رونق المجد والترقي إلى الدرجات العلية"[172].

وعلى الرغم من تأكيده المتواصل أهمية الحرية وضرورتها، ومعاداته لمناهضي الحرية والمعتدين عليها، فإنه في بداية حياته حاول تبرير افتئات السلطة على الحرية بحجة عدم أهلية المواطنين لممارستها، فقد جوّز تغييب الحرية عندما الحاكم يرى عدم أهلية الرعية لها، منتظراً بذلك تمكن التربية منهم واستكمالها فيهم، وإصلاح حالهم؛ ليبيح لهم التصرف بالعمليات الواسعة، ويرخص لهم باتساع الدوائر الزراعية والصناعية، ويبين لهم أسباب التمدن والتقدم لتستنير أبصارهم وترشد عقولهم"[173].

وقد جاء كلامه هذا في مرحلة مبكرة من حياته الفكرية والسياسية، ولم تكن مواقفه الفكرية والسياسية قد تبلورت بشكل كامل؛ لأنه من الغريب أن يعتقد رفيق بأن الحرية منحة من الحاكم يقدمها للشعب متى رأى ذلك مناسباً، أو متى رأى أن الشعب مهيأ للتمتع بها، مع أن التربية على ممارسة الحرية وتقديرها، لا يتم إلا بالحرية نفسها والتمتع بها، فلا تدريب على الحرية في غياب الحرية.

---

(170) ن.م، ص ١٠ – ١١ .

(171) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٤٠؛ رفيق العظم، البيان في التمدن وأسباب العمران، الطبعة الأولى، المطبعة الإصلاحية بمصر، ١٣٠٤هـ، ص ٣٥ .

(172) رفيق العظم، البيان في التمدن، ص ٣٨ .

(173) رفيق العظم، البيان في التمدن، ص ٣٨ – ٣٩ .

وفي إطار حديثه عن ضوابط الحرية لصيانتها من أصحاب الهوى والشهوات، فقد طرح وسيلتين لضبط الأمر، الأولى : وجود القيد النفسي، وذلك من خلال الزاجر الديني أو الفضيلة الذاتية؛ والثانية : وجود القيد الخارجي أي الوازع الخارجي، ويعني به السلطة الرادعة. واعتبر هذين القيدين الذاتي والقانوني من ضوابط الحرية، ولا يعني وجودهما انعدام الحرية أو الاعتداء عليها، بل هما إمساك للنفس عن الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة[174].

(174) رفيق العظم، اشهر مشاهير الإسلام، ص 298 .

١- رؤيته للنظام السياسي في الإسلام :

أ- ارتباط السياسة بالدين في الإسلام :

وانسجاماً مع فهمه لطبيعة الإسلام كدين شامل ومتكامل، اهتم بالجوانب المختلفة للحياة سواءً الدينية الروحية والعقلية أم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية؛ لهذا فهو مؤمن بالترابط الوثيق بين الدين والسياسة في الشريعة الإسلامية. وفي هذا الإطار يقول : إن الشريعة الإسلامية جمعت بين السياسة والدين؛ إذ لم تقتصر في قسمها الدنيوي على المعاملات الشخصية فقط، بل شملت الحقوق المشتركة العمومية الداخلة تحت الأحكام السياسية"[١٧٥].

ورأى بأن مقاصد الشرع الإسلامي جميعها، متوجهة إلى منافع الإنسان وحفظ المدنية والعمران بتدبير الدولة، وإقامة شعائر الحق، وتهذيب الأخلاق، وتثقيف العقول..."[١٧٦]، وبما أن تدبير الدولة من وسائل الشرع الإسلامي لتحقيق النفع للإنسان وحفظ المدنية والعمران، فإن الإسلام أوضح الأمور التالية:

أولاً : كيفية ارتباط الأفراد بولي الأمر الإمام الحاكم ارتباطاً دينياً وسياسياً.

ثانياً : ارتباط الإمام بالشريعة في تحديد سلطة الهيئة الحاكمة على الحكومة والتصرف بأمور الرعية، بما لا يتعدى جلب الحكمة.. ولا يتجاوز حدود العدل.

ثالثاً : الشريعة تعيّن للإمام كيفية تصرفاته السياسية، وكيف يعامل الأقوام المحاربة والمسالمة وتدله على سبل مراعاة العلائق الجوارية إلى غير ذلك من المعاملات السياسية، سواءً كانت عمومية ذات علائق خارجية أم خصوصية ذات بواعث داخلية"[١٧٧].

وخلاصة الأمر عنده أن الدولة ضرورة من ضرورات الحياة الإسلامية بسبب الترابط العميق بين وجود الوازع و تنفيذ الشريعة؛ لهذا فإن مؤازرة القوة للدين قاعدة كلية في الشرائع حتى ترتب عليها قيام الدولة في كل ملة من الملل؛ لضرورة وجود الوازع الذي

(١٧٥) رفيق العظم، رسالة في كيفية انتشار الأديان، مطبعة الإسلام، مصر، بلات، ص ٣٠ .

(١٧٦) رفيق العظم، كتاب تاريخ السياسة الإسلامية، منشور ضمن مجموعة آثار رفيق بك العظم ص ٨٢ .

(١٧٧) رفيق العظم، انتشار الأديان، ص ١٠ – ١١ .

يزع الناس بالكتاب والميزان ليقوموا بالقسط"[178]. وإذا كان وجود الشرائع أمراً هاماً فإن الأهم وجود الدولة التي تقوم بتنفيذها"[179].

ويبّن رفيق أن ارتباط السياسة بالدين في الشريعة الإسلامية آعد من المجد وهبأ من ثمرات حسن النظام للأمة الإسلامية ما لا يعلم مقداره إلا من تتبع أحوال الإسلام في قرون مجده الأولى"[180]. وقد تم هذا الترابط وبشكل تكفل بإعزاز جانب الجماعة الإسلامية فكان من أهم المبادئ التي قامت عليها الممالك والدول الإسلامية؛ لهذا ولشعور من الغرب بخطورة ارتباط السياسة بالدين في حياة المسلمين. فقد قامت الدول الأوروبية بمحاولات ومساعي كثيرة لفك الارتباط بين السياسة والدين عند المسلمين؛ إدخالاً للفساد على أساس الحكومات الإسلامية وإضعافاً لقوة أهل الإسلام، الذين هم مع تفرق عناصرهم وانتشارهم في البسيطة مرتبطون بنقطة جامعة هي ذات الخلافة الإسلامية ورأى بأن هذه المحاولات والمساعي الأوروبية محكوم عليها بالفشل، ولن تنجح في تحقيق غايتها البعيدة المنال على توالي الأجيال"[181].

ب- الخلافة الإسلامية :

ويمكن القول بأن المعتقدات الفكرية والمواقف السياسية لرفيق العظم اتسمت بقابليتها لمواكبة التحولات الفكرية والسياسية، ومواءمتها لظروف العصر وتطورات الحياة. فقد ارتبط بالواقع وانطلق منه، غير متجاهل معطياته عندما كان ينشد الإصلاح والتغيير.

وهذا التعاطي مع الواقع دون الرضوخ له والانصياع لشروطه، أعطى لرفيق القدرة على الانخراط الحقيقي في تفاصيل الحياة والقدرة على الفعل والتأثير في الواقع، وأعطى لطروحته الفكرية ومواقفه السياسية المرونة اللازمة لفهم العصر وظروفه. ولعل موقفه من مسألة الخلافة يتسم بمراعاة الظروف السياسية السائدة. فقد تأثر موقفه من الخلافة

---

(178) رفيق العظم، كتاب السياسة الإسلامية، ص 103 .

(179) رفيق العظم، اشهر مشاهير الإسلام، ص 23 – 24 .

(180) رفيق العظم، تاريخ السياسة الإسلامية، ص 74 .

(181) رفيق العظم، تنبيه الأفهام، ص 10 – 11 .

بطبيعة الظروف السياسية للدولة الخلافة العثمانية. فقد تحدث في أوائل كتاباته حول ثبوت تنصيب الأمة لإمام وجوباً شرعياً كفائياً أي هو فرض كفاية إذا قام به البعض - وهم أهل الحل والعقد- سقط عن الباقين[182] ثم تحدث لاحقاً عن اعتقاده بأن الخلافة "واجبة عقلاً لرعاية مصالح البشر الدنيوية"[183] وبما أنها واجبة عقلاً فهنا يثير الحديث حول القاعدة التي تقول بأن "ما وجب بالعقل وجب تحكيم العقل فيه"[184]، ثم انتقل في آخر كتاب له وضعه حوالي سنة ١٩١١ - ١٩١٢- أي في أوج معارضته السياسية للاتحاديين- ، إلى الاعتقاد بعدم وجوب إقامة الخلافة عقلاً وشرعاً فقال عنها : "هذا إذا صح وجوبها بالعقل والشرع"[185].

وقد سبق له أن اعتبر الخلافة منصباً سياسياً لا دينياً؛ أي هي رئاسة دنيوية وليست رئاسة دينية. بمعنى أن الخليفة لا يملك من صفات النبوة شيئاً. فالشرائع تنزل على الرسل الذين يبلغونها للناس "وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسول لمن يخلفه في قومه إلا حماية هذه الشرائع والحكم بينها بما أنزل الله وسنة الرسول وهذه وظيفة.. لا يشترط فيها شيء من النبوة بل النبوة رسالة إلهية يتعلق بها تبليغ الدين ووضع أصول الدعوة وتقرير الشرائع، وتلك رئاسة دنيوية تتعلق بها حماية الشرائع وإقامة أركان الدين"[186].

إذاً الخلافة رئاسة دنيوية، لا علاقة لها بالنبوة ولا يجوز إضفاء صفات النبوة على من يتولاها؛ للحيلولة دون محاسبته ومراقبة أدائه في الحكم والإدارة. فهي منصب سياسي يستمد من يتولاه سلطته من الأمة وليس من الوحي.

---

(١٨٢) رفيق العظم، تاريخ السياسة الإسلامية، ص ١٠٦.

(١٨٣) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٦٠٧ .

(١٨٤) رفيق العظم، أسباب سقوط الدولة الأموية، محاضرة منشورة ضمن مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص ١٣.

(١٨٥) رفيق العظم. الجامعة العثمانية. ص ١٢٢ . ولم يفصل رفيق في ذلك وفي سبب تبنيه لهذه المقولة الغريبة على فكره، وقد وعد بأن يفصل في شرح هذا الرأي في مكان آخر، وبعد أن كتب بضعة أسطر تحت عنوان أرجوحة الخلافة العربية وبطلانها توقف عن الكتابة ولم يكمل هذا الكتاب الذي يعتبر آخر مؤلفاته.

(١٨٦) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٤ .

وتأكيداً على جزمه بأن الخلافة منصب سياسي، يشير إلى عدم ورود نص شرعي حولها وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك أمر الخلافة لرأي الأمة تحكم فيه ضمائرها وعقولها، دون أن ينص على شخص يعينه[(١٨٧)].

وتجدر الإشارة هنا إلى الرأي الذي طرحه الدكتور محمود السمرة حول خطأ الاعتقاد السائد بأن أول من تحدث عن مسألة شرعية الخلافة الإسلامية وسلطتها المزدوجة، هو الشيخ المصري علي عبد الرازق في كتابه الشهير (الإسلام وأصول الحكم)؛ لأن قراءة أفكاره توحي بأنه يعيد الأفكار نفسها التي تناولها رفيق العظم في وقت سابق. ويرى بأن الأفكار التي طرحها الشيخ علي عبد الرازق، أخذت قوة انتشارها وذيوعها من كون الشيخ عضواً في مشيخة الأزهر. وقد أثارت مسألة طرده من هذه المشيخة ضجة كبيرة حول الشيخ وأفكاره وكتابه[(١٨٨)]، خاصة أنها جاءت في وقت أثيرت فيه قضية الخلافة على أوسع نطاق، فقد نشر الكتاب عام ١٩٢٥؛ أي بعد فترة وجيزة من إقدام حكام تركيا الحديثة العلمانيين بقيادة مصطفى كمال أتاتورك على إلغاء الخلافة رسمياً في ٣ (مارس) آذار ١٩٢٤. وأصبح العالم الإسلامي للمرة الأولى بدون خليفة، وبدأ الكثيرون يتطلعون لتجديد هذه الخلافة في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي[(١٨٩)].

ونلاحظ اتفاق كل من رفيق العظم والشيخ عبد الرازق على التشكيك في وجوب الخلافة شرعاً، وأن القرآن الكريم والسنة النبوية والحديث الشريف لم يرد عنهما ما يثبتها[(١٩٠)]، وإذا كان الشيخ عبد الرازق ينفي أية علاقة أو ارتباط بين الدين والسياسة في الإسلام، فإن رفيقاً يرى خلاف هذا الرأي، ويؤكد الترابط بين السياسة والدين في

---

(١٨٧) رفيق العظم، أسباب سقوط الدولة الأموية، ص ١٢.

(١٨٨) رفيق العظم، الجامعة الشملية، ص ١٤٤. وانظر ص ١٢٢ للتعرف على أصل الرجولة الخلافة العربية؛ وانظر Samra, P 292

(١٨٩) علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، دراسة ووثائق بقلم محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ٧- ٨.

(١٩٠) ن.م، ص ١٢٣، ص ١٨٢.

الإسلام(١٩١). وإذا كان الشيخ عبد الرازق ينفي وجود الدولة من حيث المبدأ في التشريعات الإسلامية وينفي بناء الرسول صلى الله عليه وسلم لأي شكل أو صيغة تدل على كيان سياسي(١٩٢)، فإن رفيق لا ينفي وجود الدولة في الإسلام بل اعتبرها من ضرورات الحياة ومستلزمات الدين والشريعة الإسلامية. واعتقد بأن موقفه من الخلافة هو التشكيك في التسمية والشكل لا في الجوهر بمعنى أنه مؤمن بوجود الدولة في الإسلام لكنه يرى بأن الإسلام لا يوجب إطلاق اسم الخلافة عليها، فمن الجائز تسميتها بأي اسم آخر. وقد اتفق كلاهما على توجيه النقد اللاذع لما أصاب الحياة السياسية للمسلمين من تطاحن وخلافات وفتن وحروب وتغلب وصراعات حول السلطة السياسية وإضفاء الصبغة الدينية على تلك الصراعات السياسية البحتة، كما اتفقا على رفض كل أشكال الربط بين المنصب السياسي والقدسية الدينية على اعتبار أن النبوة المستمدة من الوحي شيء مختلف تماماً عن الخلافة، التي هي رئاسة دنيوية تستمد شرعيتها من السلطة التي تمنحها لها الأمة. واتفق الرجلان على مدى الإهمال الذي تعرضت له العلوم السياسية عند المسلمين وغياب أية اهتمامات حقيقية وجادة لديهم في نطاق البحوث المتعلقة بالأنظمة السياسية وأصول الحكم والشورى والتشريع(١٩٣).

---

(١٩١) علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، دراسة ووثائق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ٤٦ .

(١٩٢) م.ن، ص ٤٥، ص ١٧٠ – ١٧١ .

(١٩٣) علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم ص ١٢٧ .

جـ- تحديات ومشكلات الحياة السياسية للمسلمين :

١- الأفكار والفلسفات التي نشرها الأعاجم :

يرى رفيق بأن كثيراً من الخلافات السياسية التي جرى تحويلها إلى خلافات عقدية دينية، وجعلت التنافس السياسي يتخذ الصفة الدينية، كانت بفعل الأعاجم من الفرس والروم الذين دخلوا الإسلام بعد مضي صدر من خلافة عثمان (رضي الله عنه)[١٩٤].

وحمّل الأعاجم والمجوس قدراً كبيراً من مسؤولية إفساد الدين والسياسة في حياة المسلمين بإثارتهم الفتن والخلافات حول مسألة الخلافة فخلطوا السياسة بالدين وضربوا بسلاحهما في وجوه المسلمين فزعموا أن منصب الخلافة فرع من النبوة لا يتخلف عن أصله. ولا يصح وضعه في غير محله. واشترطوا فيه ما يشترط في النبوة من العصمة[١٩٥]. واتهمهم بتحويل مجرى السياسة الاجتماعية للمسلمين إلى ما يشبه اللصوصية والفوضى مستغلين مراحل الخمود والوهن عبر التاريخ الإسلامي[١٩٦]، وهذا كلام وإن اتخذ صفة التحليل فإنه لا يخلو من التحامل .

٢- إصطباغ الدولة منذ نشأتها بالصبغة الدينية :

رأى رفيق بأن واحداً من أهم عوامل الفساد السياسي في حياة المسلمين وبخاصة فساد نظام الخلافة هو اصطباغ الدولة منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لأولياء الأمة بعد الخلفاء الراشدين للأخذ على أيدي الرعية وأفواهها باسم الدين. وجعل الحياة السياسية للأمة حياة دينية لا سبيل معها لنوابغ الأمة وعقلائها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي الذي تقتضيه حالة كل عصر، سواءً كان في حياة الأمم السياسية أو حيثها الاجتماعية، خاصة بعد إغلاق باب الاجتهاد مما أدى إلى تنامي الضعف في جسم الأمة، وصار الانقياد العام للحكام عرفاً تتداوله الأجيال بحكم العادة[١٩٧].

---

(١٩٤) رفيق العظم، أسباب سقوط الدولة الأموية، ص ١٥.

(١٩٥) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٢٦ – ٢٧ .

(١٩٦) رفيق العظم، كتاب السياسات الإسلامية، ص ٨٢ .

(١٩٧) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٦٤٣ .

نلاحظ هنا رفضه استغلال الحكام للدين، واستخدامه وسيلة لمنع الشعب من محاسبتهم على اعتبار امتلاكهم لقدسية دينية تحميهم، من المراقبة والمحاسبة والعزل، ولمنع الاجتهاد والتطوير في الحياة السياسية، من حيث الأنظمة والمؤسسات والوسائل التي تفرضها تطورات العصر، محبذين ومستغلين إغلاق باب الاجتهاد ومتغافلين عن أن الإسلام فرض الاجتهاد في شؤون الحياة ومستجداتها مفرقاً بين العقائد والعبادات، وبين وسائل العيش وضرورات الحياة وأمور الدنيا الخاضعة للاجتهاد .

كما نلاحظ أنه ربط بين غياب أصول الشورى القانونية من حياة المسلمين السياسية وتحويل الشأن السياسي إلى شأن ديني؛ مما جعل الأمة منقادة إلى أمير واحد تناط به كل شؤون الدين والدولة وهذا أدى إلى دخول الاضطراب منذ عهد الخليفة الثالث[198].

٣- إغلاق باب الاجتهاد :

اعتقاداً منه بشمولية الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان، وقدرته على مواكبة تحديات الحياة ومشكلات العصور المتتالية، فإنه يرى ضرورة تفعيل مبدأ الاجتهاد في حياة المسلمين وصولاً إلى حلول عملية وعصرية لقضايا العصر ومشكلاته.

وإذا كان الاجتهاد هو إدارة الأحكام على المصلحة على تمادي الزمان[199]، فهذا يدل على أهميته النابعة من ضرورة طرح الأحكام الشرعية المتوافقة مع الأزمان المتعاقبة. وتتضح أهمية الاجتهاد إذا عرفنا أن الإسلام لم يأتِ بكل ما تحتاجه المجتمعات الإسلامية من الأحكام الجزئية في المعاملات، ولم يقيد الأمة بقيود الحصر بما جاء فيه من كليات الأحكام، دون التوسع فيما يقتضي لها من الجزئيات[200]، وأنه سمح باستمرار الاجتهاد في مسائل المعاملات التي اعتبرها الشارع دنيوية، وأجاز فيها الاجتهاد تيسيراً على الأمة في وضع الأحكام بإزاء الحوادث التي لا تتناهى، ويجادل بأنه إذا كان الاجتهاد في المعاملات مباحاً فما بالك بأمور الأمة السياسية التي يناط بها قيام الدول، لا جرم أنها أولى أن تعتبر دنيوية؛ ليكون الاجتهاد فيها مباحاً والاجتهاد إذا شمل الشؤون السياسية

---

(١٩٨) ن.م، ص ٦٤٦ – ٦٤٧ .

(١٩٩) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ١٠١ .

(٢٠٠) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ١٠٢ .

للأمة، فإنه سيساعد على التمييز والفصل بين الاعتقادات الدينية والاجتهادات والتدابير السياسية[201].

وقد بيّن مخاطر إغلاق باب الاجتهاد على النظام السياسي للمسلمين؛ مما أتاح لقادة الأمة العبث بالشريعة ومهّد للحكام سبيل الهوى، فكانوا في كثير من العصور الإسلامية آفة الأمن وسُمّ الاجتماع[202]؛ هذا فإن الرأي المنادي بإغلاق باب الاجتهاد وافق هوىً في نفوس الأمراء الذين تعاكس قاعدة الاجتهاد مقاصدهم، فراحوا يؤيدون العلماء (الفقهاء) الداعين لهذا الرأي، ولعلوهم على قومهم، وبهذا فإن المسؤولية مشتركة بين العلماء والأمراء. وقد كانت المصلحة تقضي بسد كل ثلمة يتسرب منها جور الرؤساء إلى الأمة، وفي هذا غلّ لأيديهم عن الاستبداد وصدّ لأهوائهم عن التصرف بنفوس العباد[203].

وكان من أخطر نتائج إغلاق باب الاجتهاد، الفقر الذي أصاب التشريعات والقوانين لدى المسلمين، والنقص في الاجتهادات والآراء التي تنظم الأوضاع السياسية، مما أضر بإمكانية قيام نظام سياسي محكم البنيان ثابت الأركان يدرأ الظلم والاستبداد ويرسخ مبادئ العدل والحرية والإخاء والمساواة التي جاء بها الإسلام.

والتأثير السلبي لإغلاق باب الاجتهاد يتضح جلياً في ميدان القضاء والتشريع وتطبيق الأحكام الشرعية خاصة التي لم يرد فيها نص شرعي صريح فظلت عرضة للتلاعب بها حسب أهواء الحكام والولاة وتذرعوا بها للتطاول على أموال الناس وحقوقهم[204].

وأشار أيضاً إلى الفوضى القانونية لدى المسلمين فدعا إلى استنباط قانون من أحكام الشريعة يكون شاملاً لأحكام العقوبة والحقوق، ولا يكون عرضة للخلافات حوله، وتلتزم الدولة بالعمل بمضمونه؛ مما يمنع أذى التلاعب بالنصوص، ويحسم داء الفوضى القانونية عند المسلمين، كما يكون قريباً من الصواب وسنة الخلفاء الراشدين[205].

---

(٢٠١) ن.م، ص ٦٤٣ .

(٢٠٢) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ١٠٥ .

(٢٠٣) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ١٠٨ .

(٢٠٤) ن.م، ص ١٠٥ – ١٠٦، ١٠٨ .

(٢٠٥) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ١١٠ – ١١١ .

٤- غياب الشورى والاختيار :

إن إيمانه الشديد بالحرية والشورى والمبادئ الدستورية والنيابية والديموقراطية التي تحترم سيادة الأمة، ورفضه الشديد لأشكال الاستبداد والتسلط والفردية والسيطرة المطلقة للحاكم، كل هذا جعله شديد الحساسية لمسألة تغييب الشورى والاختيار من الحياة السياسية للمسلمين.

فقد اعتبر إهمال المسلمين لوضع قواعد الشورى على أصول ثابتة منذ نشوء الدولة[٢٠٦]، واحداً من أهم العوامل التي أتاحت المجال واسعاً للاستبداد والظلم وحدوث الفتن والاختلافات التي وصلت حد الاقتتال والحروب. وبغياب الشورى والاختيار في مبايعة الخليفة وتنصيبه، اتخذت الخلافة شكلاً ترك ثغرة كبرى للولوج إليها من طريق القوة والتغلب، فأوجد نزاعاً مستمراً من أجلها في الأمة أفضى إلى مصير الأمر ليد الغالب، والغالب لا يتقيد بالشورى ولا يجاري رغائب الأمة بالضرورة[٢٠٧].

ويلقي بالمسؤولية على الأمويين في الانحراف الذي أصاب حياة المسلمين السياسية؛ فقد كرسوا مبدأ التغلب بالقوة وهدموا أساس الشورى والانتخاب، واستأثروا بالملك بقوة الإرهاب وسطوة الغالبين[٢٠٨].

ونلاحظ أن رفيق حاول تمرير الأفكار التي طرحها حول النظام السياسي في الإسلام، وفي مجال الفكر السياسي بشكل عام بصيغة البحث التاريخي الذي يناقش قضايا تاريخية تعود إلى عصور إسلامية ماضية، لكن هذا لا يمنع من اعتبارها معالجات ذكية وغير مباشرة لأوضاع الدولة العثمانية، دولة الخلافة الإسلامية آنذاك وإن لم يسمها بالاسم وهو معذور في ذلك نظراً لطبيعة الظروف السياسية.

وعلى الرغم من كل ما سبق، فقد ظل رفيق وفياً لقناعته الراسخة بأحقية آل عثمان بالخلافة، وأكد أن الإسلام لا يحصرها في فئة محددة، فالإسلام لم يمنع أن تكون فيمن يقع عليه اختيار الأمة ورضاها في عهد الصحابة الكرام، ولو من غير بني هاشم

---

(٢٠٦) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام، ص ٨٢٧ .

(٢٠٧) ن.م، ص ٦٤٢ .

(٢٠٨) ن.م، ص ٧٧٢ .

والتاريخ يعيد نفسه[209]. وفي هذا السياق لم يكن رفيق متحمساً للفكرة الداعية إلى الخلافة العربية، واعتبر الحديث عن رغبة العرب في تولي الخلافة عبارة عن أرجوفة وأكذوبة لا أصل لها. مؤكداً إخلاص العرب لدولة آل عثمان[210].

---

(٢٠٩) رفيق العظم، أسباب سقوط الدولة الأموية، ص ٢٧ .

(٢١٠) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٤٤ .

الفصل الثاني

موقفه من التيارات الفكرية والسياسية المعاصرة

أولاً : التيار التجديدي التغريبي

ثانياً : التيار المحافظ التقليدي

ثالثاً : تيار الجامعة الإسلامية

رابعاً : تيار الجامعة العثمانية

خامساً : الفكرة القومية

سادساً : الفكرة الوطنية

الفصل الثاني
موقفه من التيارات الفكرية والسياسية المعاصرة

عرفت الدولة العثمانية والبلاد العربية عدداً من التيارات الفكرية والسياسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كان وراء ظهورها في المنطقة عوامل عدة ومجموعة من الظروف والمتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إلى جانب مجموعة من التحديات الداخلية والخارجية.

وقد تصارعت هذه الأفكار فيما بينها لاكتساب مواقع التأثير والنفوذ ولترسيخ وجودها ونشر تعاليمها على أوسع نطاق؛ لذا فإن البلاد العربية شهدت حوارات فكرية وسياسية كبيرة وجهداً ثقافياً كبيراً للتعريف بهذه التيارات والدعوة إليها أو توضيح سلبياتها وعيوبها. وكان رفيق العظم واحداً من أهم مفكري تلك الفترة الذين كان لهم عناية فائقة بهذه الشؤون. أما أهم التيارات التي ظهرت آنذاك فهي:

- التيار التجديدي التغريبي
- التيار المحافظ التقليدي
- تيار الجامعة الإسلامية
- تيار الجامعة العثمانية
- الفكرة القومية
- الفكرة الوطنية

أولاً: التيار التجديدي التغريبي:

شهدت الدولة العثمانية والبلاد العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دعوات متزايدة للتجديد والإصلاح، بفعل ما وصلت إليه الدولة من ضعف وتأخر. فكان تيار الدعوة الإصلاحية التجديدية تياراً قوياً، لكن أتباعه تفرقوا في تحديد وسائل الإصلاح ومناهجه، على الرغم من إجماعهم التام على ضرورة الإصلاح.

وقد نادى بعضهم بالتجديد والإصلاح على أسس غربية بحتة، وكان أغلب هؤلاء من النصارى، أمثال شبلي شميل (١٨٦٠ – ١٩١٧)، وجورجي زيدان (١٨٦١ –

١٩١٤)، وفرح أنطون (١٨٧٤ – ١٩٢٢)، وسلامة موسى (١٨٨٧ – ١٩٥٨)، في حين نادى فريق آخر بالتجديد المستند إلى التوفيق بين التراث الإسلامي والثقافة الغربية، موجهين العلمانية التي تضع الدين في نطاق التراث والممارسات الفردية، بعيداً عن التدخل في سياسات ومؤسسات الدولة والمجتمع. وكان في مقدمة أصحاب هذا الموقف كل من قاسم أمين (١٨٦٣ – ١٩٠٨)، ومحمد فتحي زغلول (١٨٦٣ – ١٩١٤)، وأحمد لطفي السيد (١٨٧٢ – ١٩٦٣)، وطه حسين (١٨٨٩ – ١٩٧٣) وغيرهم. وكان هناك فريق آخر يدعو إلى التجديد القائم على التوفيق الحقيقي بين التراث والمعاصرة أو بين تشريعات الإسلام من جهة وبين تقدم الغرب من جهة أخرى، مع التأكيد على الدور الحيوي للإسلام في توجيه مؤسسات الدولة والمجتمع. دون أن يتنكروا لأهمية الإفادة من إنجازات الحضارة الأوروبية[٢١١]، وقد شكل هؤلاء تياراً قوياً عرف بتيار الإصلاح الإسلامي، أو أصحاب "الموقف الإصلاحي" كما أسماهم الدكتور هشام شرابي، وقد ركزوا على ضرورة استعادة الإسلام لدوره في الحياة[٢١٢].

وكان يحفزهم للبحث عن الإصلاح، ويدفعهم للإفادة من الحضارة الغربية، قناعتهم بعدم معارضة الإسلام لذلك إلى جانب شعورهم بخطورة التحدي الذي يفرضه الخطر الغربي[٢١٣].

وقد كان في طليعة دعاة هذا "الموقف الإصلاحي" العلامة جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ محمد رشيد رضا، وصاحبنا رفيق بك العظم، ولا بد من الإشارة إلى أن دعاة التجديد بعامة يُعدّون من تلامذة الأفغاني وعبده.

اختلف رفيق مع أصحاب التيار التغريبي الداعين إلى الانسلاخ من تراث الأمة وحضارتها، المبهورين بتقدم الغرب وثقافته الساعين إلى متابعته وتقليده تقليداً أعمى، وأسماهم "المتفرنجين".

---

(٢١١) د. أحمد الشوابكة، محمد رشيد رضا، ص ٢٤، ص ٨١ – ٨٢.

(٢١٢) د. هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، ص ٢١.

(٢١٣) د. هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، ص ٣٧ – ٣٨.

ووجه نقداً لاذعاً لما أسماه ظاهرة التفرنج، وعدّها إحدى مصائب الشرق والشرقيين، وعاب على المتفرنجين أنهم راحوا يتشبهون بالغرب في الأشياء الدنيئة وأعرضوا عن الأشياء التي جعلت أوروبا تسمو إلى مراقي المدنية، والتي عليها مدار التمدن والتقدم(٢١٤).

واتخذ ما تكوّن لدى المتفرنجين من قناعات وآراء دفعتهم إلى الشعور بالهزيمة أمام الغرب، والاعتقاد باستحالة تحقيق قدر مماثل من الإنجازات التي حققها الغرب، فقد بلغت (حضارة الغرب) عندهم مبلغاً يعز على الشرقيين الوصول إليه(٢١٥).

وبيّن خطورة ما يحملونه من آراء ومعتقدات، دفعتهم للحديث عن تفوق أوروبا الأصيل وعن تخلف الإسلام الأصيل.

مؤكداً أن حضارة الغرب وتفوقه لم يستندا إلى أسس عنصرية أو عرقية، يمتاز بها الغربيون عن بقية البشر، ويتعذر على غيرهم امتلاكها. وإنما توفرت لهم مجموعة من الظروف والشروط التي ساعدتهم في بناء هذه الحضارة. وأكد أن امتلاك المسلمين للظروف الملائمة، المتمثلة في امتلاك العلم وامتلاك الحرية، ويعني بالحرية هنا قيام الحكم الدستوري، سيوفر دون أدنى ريب فرصة قوية لنهوض المسلمين وتقدمهم، والسماح لهم بالتنافس مع الغرب(٢١٦).

وفي رده على آراء هؤلاء واعتقاداتهم الخاطئة راح يؤكد أن الشرق هو أصل الحضارة، وصاحب الفضل على الغرب، وأن الشرق لديه الكثير من عوامل ومقومات التقدم والمدنية، بل إن أصل التمدن الأوروبي مأخوذ عن الشرق(٢١٧).

لذا فهو يحتار في سر انبهار المتفرنجين بحضارة أوروبا، في حين أن العرب هم أهل الفضل على أوروبا، بما اقتبسته عنهم من علوم ومعارف. وذكرهم بأن أوروبا كانت على عهد التمدن الإسلامي على حالة، إن لم تقترب من الهمجية، فإنها ليست على

---

(٢١٤) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٦٥ .

(٢١٥) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٦١ .

(٢١٦) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨٠ .

(٢١٧) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٦٣ .

شيء من الحضارة. وإن ما حققته من إنجازات حضارية كان بعد اتصالها بالمسلمين من خلال الحروب الصليبية، ومن خلال طلابها الذين تلقوا العلم في الأندلس، أو من خلال ما جمعه الأوروبيون من كتب ومخطوطات عربية، قاموا بترجمتها والإفادة من كنوزها العلمية[٢١٨]، التي استنبطوا منها الكثير من أصول مدنيتهم الجديدة[٢١٩].

وهو لا ينكر تفوق أوروبا، أو فضلها الحضاري على الإسلامية، ويرى أن من الإنصاف والعدل الاعتراف بفضل المدنية الأوروبية، التي نهضت بالإسلامية إلى منزلة سامية لم تبلغها من قبل، ويقر بأن: "الاحتكاك بالأوروبيين قد نفع الشرق نفعاً محسوساً نلمسه بالأيدي لمساً، ويمضي ليقول فنحن مدينون لهم بالترقي العقلي والصناعي". وينبه إلى ضرورة أن لا تمنعنا الخلافات السياسية من الاعتراف بفضلهم على الحضارة ولا أن تحول دون توثيق عرى الصلة الإنسانية معهم في كل مكان وزمان. وهذه نظرة إنسانية عميقة لمفهوم متطور للعلاقات بين الأمم تقوم على الإنصاف والعدل والاحترام والاعتراف بالحقيقة وبفضل الآخر، وتنزيه العلاقات الإنسانية عن الخلافات السياسية، وتقوم على قاعدة تبادل المنفعة[٢٢٠].

ويرى بأن توثيق العلاقات مع الغرب، لا يؤدي إلى نفع المسلمين فقط بل إن أوروبا فيما إذا أحسنت التعامل مع المسلمين وأنصفتهم، ومنحت الخاضعين منهم لحكمها، الحرية والعدل ونشرت بينهم العلم فإن ذلك سيحقق لأوروبا فوائد عظيمة، في مقدمتها فتح أسواق البلاد الإسلامية أمام تجارتها وصناعتها. ويلخص حاجة الشرق والغرب إلى توثيق الصلات فيما بينهم بقوله: "الشرق مهما ترقى لا يستغني عن الغرب، والغرب كذلك في حاجة إلى الشرق"[٢٢١].

ويعبر بصراحة ووضوح عن اعتقاده بأن نهضة المسلمين الحالية التي جاءت بعد طول معاناة من الاستبداد وغياب الحرية والعلم، هي نتيجة لخطر التحدي الأوروبي الذي

---

(٢١٨) رفيق العظم، كيف كان حال العالم لو لم يفتحه المسلمون، الهلال، ج١٤، السنة ٨، ١٥ إبريل، نيسان، ١٩٠٠، ص ٤٣٣ – ٤٣٤.

(٢١٩) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٣٥.

(٢٢٠) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨١.

(٢٢١) ن.م، ص ٨٦ – ٨٧.

هذا الشرق متمثلاً بالاستعمار في إفريقيا وآسيا، فقد ارتعدت له فرائص المشرق، واهتزت له أعصاب المسلمين في كل أنحاء الأرض، فشعروا بالخطر المحيط بهم(٢٢٢). هنا إلى جانب اتصال المسلمين بالغرب بوسائل متعددة سواءً كان في المعاشرة والمتاجرة أو باقتباس العلم عنهم في أوروبا وفي الشرق فاستفادوا من العلوم والمبادئ التي نهض بها الغرب(٢٢٣).

ولإيمان رفيق بتفوق أوروبا الحالي على المسلمين وبفوائد الاتصال بها، فإنه يدعو إلى التوصل إلى صيغة جيدة للتعامل معها، ولا يدعو إلى مقاطعتها أو معاداتها، وركز انتقاداته على أسلوب دعاة التفرنج في التعامل مع الغرب، لا على مبدأ التعامل مع الغرب أو الاقتباس عنه، فهو يؤكد أهمية الاقتباس لكنه يشدد على لونه ونوعه: فناشد المتفرنجين إلى تقليد أوروبا بالأفعال الحسنة والإقبال على الفنون والمعارف، بدلاً من تقليدهم بالخصال السيئة والأفعال التي لا طائل تحتها سوى الجهل بحقيقة التمدن وحب التقليد بالأشياء الدنيئة(٢٢٤).

وإذا كان المتفرنجون ينظرون للغرب على أنه نموذج حضاري مثالي يجب تقليده تقليداً كاملاً، فإن رفيقاً يختلف مع هذه الرؤية ومع أصحابها، وراح يلفت الأنظار إلى بعض عيوب الحضارة الغربية.

فتراه يرفض الحرية في صيغتها ومفهومها الأوروبي، واعتبر الحرية في الغرب فكرة مشوهة ومتعوصة تكتنفها عيوب كثيرة، وهذا يتضح من قوله : إن حرية كحرية الغربيين الآن يفرّق فيها بين الشرقي والغربي، والمسلم والنصراني، بل بين البروتستانتي والكاثوليكي، والحق فيها للقوي يسحق بقوته الضعيف، ويستهين بحقوق من عداه لحريه حرية بالنبذ والاستهجان لأنها ابتعاد تأباه الإنسانية ولا ينطبق على قانون الحرية في كل عصر وزمان(٢٢٥). كما انتقد الإفراط في الحرية الشخصية المطلقة السائدة في

---

(٢٢٢) ن.م، ص ٨٤.

(٢٢٣) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ٦١ .

(٢٢٤) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٥٦ – ٥٧.

(٢٢٥) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٤٧ .

الغرب، بشكل أدى إلى التفريط بالفضيلة، وأدى إلى انتشار الفساد والرذائل وهذا في رأيه لا يتفق مع طبيعة النظرة الإسلامية للحرية[٢٢٦].

ووجه نقداً شديداً لادعاءات الغرب العريضة في نصرة الإنسانية ونشر التمدن وما شابه ذلك من الألفاظ، واستغرب حديثهم الدائم وبصوت مرتفع عن حقوق الإنسان وعن مهمات الغرب وواجباته الإنسانية والحضارية الهادفة إلى نشر التمدن والحضارة في العالم، وإقرار حقوق الإنسان، في حين أن واقع الحال ينقض هذه الادعاءات، وينسفها من جذورها؛ لأن سياسات الغرب تجاه المسلمين "لا يمكن أن توصف إلا بالتهور والأنانية الباطلة"[٢٢٧].

فالسياسات الغربية تجاه المسلمين تتميز بالازدواجية الواضحة فهم يعاملون المسلمين "بالقسوة المتناهية" وتأكيداً على هذه الازدواجية فقد خاطب الغربيين بقوله : "إذا ثار على المسلمين شعب مسيحي تألبتم لنصرته باسم الإنسانية، وإذا نال شعباً مسلماً من حكومة مسيحية ظلم.. لا تأخذكم عليه الرحمة، ولا تدفعكم إلى نصرته الإنسانية"[٢٢٨]، وبعد مرور حوالي قرن على حديث رفيق هذا، هل نرى تغيراً يذكر في السياسات الغربية تجاه المسلمين؟؟

وفي قضية المرأة نجده ينكر على دعاة التغريب انبهارهم بالغرب على غير وجه حق، ورفض الادعاء القائل بأن الغرب هو أول من اهتم بالمرأة وأنصفها ومنحها حقوقها، وأن على الآخرين الاقتداء بهم، بحيث تصبح المرأة الغربية قدوة لغيرها من النساء في العالم، وعمد إلى تفنيد ادعاءاتهم بأن المرأة في الشرق عموماً والإسلام خصوصاً منحطة عن الرجل مهانة منه. فرفض هذه الادعاءات واعتبرها متهافتة، لا تستند إلى الحقيقة، ورأى بأن وضع المرأة في الغرب قد أصابه الكثير من الدناءة والاستعباد. وأكد أن الغربيين لم يعرفوا حقوقاً للمرأة إلا في القرون المتأخرة، واعتبر التقولات الباطلة حول

---

(٢٢٦) رفيق العظم، أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة، ص ٣٩٨؛ رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٤١ .

(٢٢٧) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨٦ – ٨٧ .

(٢٢٨) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨٥ – ٨٦ .

وضع المرأة المسلمة، إنما سببها التعصب والغرض الذي يعمي ويصم. وأكد أن الشريعة الإسلامية قد أوصت بالمرأة خيراً، ومنحتها المساواة في الحقوق مع الرجل، منذ ثلاثة عشر قرناً[٢٢٩].

ويتضح مما سبق سمة أساسية من سماته الفكرية، وهي الوسطية والاعتدال، ورفض التطرف بكل أشكاله، فهو ضد الاستلاب الحضاري والتغريب والتقليد الأعمى، وفي الوقت نفسه هو داعية للانفتاح على العالم والاتصال بالحضارات الأخرى، والإفادة من منجزاتها، والانتفاع من حسناتها، على أن يتم الاختيار بدقة وتوازن. فقد دعا إلى الإفادة من الحضارة الأوروبية، والاقتداء بالتجربة اليابانية.

(٢٢٩) رفيق العظم، تاريخ السياسة الإسلامية، ص ٩٨ .

ثانياً : التيار التقليدي المحافظ

كان تيار التقليد والمحافظة واحداً من أبرز التيارات الفكرية الموجودة على الساحة العربية والإسلامية. وقد قاد هذا التيار علماء الدين المحافظون الذين قاوموا التغيير، خاصة إذا ما قام على أسس ومفاهيم غربية. وكان في طليعة هؤلاء علماء الأزهر ومتخرجوه وطلابه[230].

اتسم أتباع هذا التيار بالجمود والتقليد ومقاومة التجديد والاجتهاد، وحاول هؤلاء إضفاء الصبغة الدينية على آرائهم ومواقفهم والبحث عن سند شرعي يدعم مواقفهم؛ مما أدى إلى حدوث خلط لدى المراقبين وعامة الناس بين الدين بصفائه ونقائه من جهة والمفاهيم والاجتهادات الخاطئة خلط لدى المراقبين وعامة الناس بين الدين بصفائه ونقائه من جهة والمفاهيم والاجتهادات الخاطئة لدعاة تيار الجمود والتقليد من جهة أخرى.

وقد أبدى رفيق العظم موافقته على المقولة التي تربط بين علماء الدين عامة والأزهريين خاصة، والجمود والتمسك بالقديم ولكنه يؤكد أن علماء الدين ليسوا سواء؛ فقد كان منهم منارات للهدى والعلم في عصور سابقة، وفي هذا العصر نجد بعضهم يقود حركة الإصلاح وسط المجموع الإسلامي ويجتهد في الدعوة إلى الرشد وفي تحليل علل وأمراض الأمة ووصف الدواء لها[231].

ودعا إلى ضرورة التمييز بين تجار الدين والمتعصبين للتقاليد وعلماء الدين والإصلاح الغيورين، مطالباً بفتح المجال أمام المصلحين؛ ليعملوا على تطهير العقول من أدران الاعتقاد الباطل الذي تلبّس به سواد الأمة[232].

---

(230) د. أحمد الشوابكة، محمد رشيد رضا، ص ٣٤، ص ٧١.

(231) رفيق العظم، الإصلاح وعلماء الدين، الاتحاد العثماني، العدد (١١١)، ٤ شباط، ١٩٠٩، ص ١؛ رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٥

(232) رفيق العظم، خطر علينا وعلى الدين، مجلة المقتطف، م٢٩، ج٥، ١ مايو (أيار) ١٩٠٤، ص ٤١٠.

وعدّ أن التمسك بالتقليد والجمود تحكّم في الدين، وخروج عن سنة المتقدمين وأن الدافع إلى التقليد والجمود هو الجهل وسوء التعليم[٢٣٣]. وبيّن الأسباب التي جعلت بعض العلماء حماة للجمود والتقليد والبدع، وحصرها فيما يلي :

- عجزهم عن فهم الكتاب والسنة حق الفهم.
- مجاراتهم للعامة في التمسك بالبدع التي ينكرها الشرع.
- مداجاتهم للأمراء وسكوتهم عن إنكار المنكر، وخضوعهم للاستبداد.
- وتهافتهم على الدنيا[٢٣٤].

ورأى بأن هذه الحال التي يعيشها العلماء أبعدتهم عن واجباتهم الأساسية المتمثلة في وعظ الأمة بالقرآن، وبيانه حق البيان، ومطاردة البدع والمبتدعين، ومقاومة البغاة والظالمين[٢٣٥].

وانتقد مواقف العلماء الراغبين في التغيير والإصلاح؛ لأنهم لم ينهضوا للقيام بمهامهم خير قيام؛ ففريق منهم غلب عليه اليأس، وفريق آخر ضعيف الإرادة لا يستطيع مقاومة جَهَلة المتعممين المتصدين للعادة والتقليد[٢٣٦].

وعدّ انحطاط المسلمين ناتج عن اتخاذهم البدع والعوائد ديناً، و استسلامهم للرضا بما وجدوا عليه آباءهم الأولين. وهنا يفرض تحرير العقل المسلم من هذه الأوهام والاعتقادات الباطلة كشرط أولي لتحقيق الإصلاح[٢٣٧].

وتتبع رفيق يحلل العوامل التي أدت إلى تشويه حقيقة الدين، وإفساد عقائد المسلمين وجعلها منحصرة فيما يلي :

- الانحطاط الذي أصاب العلم والمعارف والأخلاق.
- عدم التوصل إلى فهم سليم لمرامي القرآن الكريم والسنة النبوية.

---

(٢٣٣) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٤٤ – ٤٥، ص ٥٢ .

(٢٣٤) رفيق العظم، ن.م، ص ٣٩، ص ٥٧؛ رفيق العظم، الإصلاح وعلماء الدين، الاتحاد العثماني، ع (١١١)، ص ١ .

(٢٣٥) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٦٣ .

(٢٣٦) رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص ٧٢ .

(٢٣٧) رفيق العظم، خطر علينا وعلى الدين، مجلة المقتطف، م٢٦، ج٥، ص ٤١٠ .

- تخلف التعليم
- سوء أحوال العلماء
- استبداد الحكام
- التساهل مع البدع والأباطيل
- انتشار الفلسفات الوثنية والمادية على يد الأعاجم
- تشويه العقائد الإسلامية بفعل القصّاص والوضّاعين[238].

ونلاحظ أن للعلماء التقليديين دوراً هاماً في صنع هذه العوامل على تنوعها؛ مما يلقي عليهم تبعات جسيمة.

وحرص رفيق على تبديد ما قد يتسرب إلى نفوس البعض من شكوك حول حقيقة الدين وجوهره فأكد أن شريعة الإسلام هي أساس التمدن، وأنها وافية بالغرض من جميع الوجوه[239]؛ لذا فهي قادرة على تقديم الحلول العملية لمشكلات الحياة المعاصرة ولا يقبل من أحد وصمها بالتخلف والجمود أو اعتبارها سبباً في حالة الضعف والجمود التي أصابت المسلمين. كما أنه لا يقبل من أحد تشويه حقيقة هذا الدين وحصره في الشروح والمتون والحواشي، وخلطه بالعقائد الفاسدة والبدع والخرافات وعزله عن واقع الحياة، كما يفعل علماء الجمود والتقليد المشتغلون بتوافه الأمور. خصوصاً أن شريعة الإسلام توافق كل زمان ومكان، وتجيز لكل ضرورة حكماً يوافق مقتضى المصلحة والحال[240].

وينطلق رفيق من هذه المقدمات ليصل إلى تأكيد ارتباط الإصلاح الديني بعملية الإصلاح الشاملة، بل جعل الإصلاح الديني شرطاً أساسياً لا بد منه للنهوض بالأمة إلى مصاف الأمم الحية النامية، وأكد أن الإصلاح المدني تابع.. للإصلاح الديني[241].

---

(238) رفيق العظم، خطر علينا وعلى الدين، المقتطف، م29، ج5، ص 406 – 407، رفيق العظم، مطالب الحياة الاجتماعية، ص 37، 57 .

(239) رفيق العظم، تنازع الأديان، ص 11 .

(240) رفيق العظم، قضاء الفرد وقضاء الجماعة، في مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص 37 – 38 .

(241) رفيق العظم، خطر علينا وعلى الدين، المقتطف، م29، ج5، ص 406 .

وحث على الاستفادة من التجربة الأوروبية في هذا الشأن، عندما جرى تقديم الإصلاح الديني على الإصلاح المدني. وبيّن أن هذا المنهج في الإصلاح قد أفاد المدنية بإطلاق العقل من قيود السيطرة الخارق، فبلغ من السعادة الدنيوية ما أراد وأفاد الدين بتطهيره من شوائب المبتدعين حتى تلقته العقول بالقبول وصار الدين في كل الممالك التي ساد فيها مذهب الإصلاح قوي الدعائم[242].

ويبدو بوضوح معارضته لمنهج اتباع هذا التيار في النظر إلى حقيقة الدين وجوهره وطبيعة دوره في الحياة. ويبدو أيضاً حرصه على التفريق بين فئات مختلفة لعلماء الدين، فهم عنده – كما هو الواقع – ليسوا سواء، وكذلك يحرص على توضيح الفرق الكبير بين حقيقة الدين وجوهره واجتهادات ومواقف أصحاب التيار المحافظ التقليدي. ودعا إلى تقديم الإصلاح الديني على الإصلاح المدني، وجعل الإصلاح الديني شرطاً لازماً وضرورياً لتحقيق عملية الإصلاح الشاملة. ومن المهم أن نعرف أنه يريد تطهير الدين من البدع والخرافات والعقائد الباطلة التي ألصقت به، وهو منها براء. ونظرته إلى دور الإسلام الحيوي والفاعل في الحياة ليست موضع شك أو مناقشة.

(٢٤٢) رفيق العظم، خطر علينا ومنى للدين، المقتطف، م٢٩، ج٥، ص ٤٠٦، رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨٢.

تيار الجامعة الإسلامية :

ظهرت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية[٢٤٣]، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فشكّلت تياراً فكرياً وسياسياً قوياً[٢٤٤]، تزعّمه فكرياً السيد جمال الدين الأفغاني وسياسياً السلطان عبد الحميد الثاني الذي حاول استثمار هذه الفكرة لتعزيز مكانة الدولة العثمانية، دولة الخلافة الإسلامية، وسخّر إمكانات كبيرة للدعوة للوحدة الإسلامية والالتفاف حول راية الخلافة العثمانية، للوقوف في وجه التحديات والأخطار الخارجية[٢٤٥].

وطرحت الفكرة بشكلها السياسي من خلال السعي لإقامة اتحاد فدرالي، يضم الدول الإسلامية القائمة آنذاك وهي الدولة العثمانية وإيران وأفغانستان ومراكش ويترأس السلطان العثماني هذا الاتحاد؛ على اعتبار أنه يرأس أكثر الدول الإسلامية قوةً وتقدماً[٢٤٦].

سعى تيار الجامعة الإسلامية لتحقيق مجموعة من الأهداف تمثلت في وقف الاعتداءات والأطماع الأوروبية المهددة لتيار الإسلام والسعي لتحرير بلاد المسلمين

---

(٢٤٣) برز مصطلح الجامعة الإسلامية (The Pan - Islamic Movement) لأول مرة عام ١٨٨١، على يد الصحفي الفرنسي جبرائيل شارمزي. Gabriel Charms، انظر :

Samra, Mahmud, Christian Missions and Western Ideas in Syrian Muslim Writers 1860 – 1914, Ph. D. Dissertation, University of London, 1957 – 1958, P. 262.

(٢٤٤) د. نقولا زيادة، الجذور التاريخية للثورة العربية الكبرى، في دراسات في الثورة العربية الكبرى، الشركة الأردنية العالية للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٦٧، ص ٢٩، وسيشار إليه (د. نقولا زيادة، الجذور التاريخية للثورة العربية).

(٢٤٥) Dr. Hassan Saab, The Arab Federalists of the Ottoman Empire, Djambatan-Amsterdm, 1958, P. 187.

وحول علاقة السلطان عبد الحميد بالجامعة الإسلامية – انظر : Samra, P. 264. وانظر : د. أحمد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية، الزرقاء : مكتبة المنار، ١٩٨٤، ص ٢١ – ٢٣ .

(٢٤٦) Samra, 268 - 269 .

من الاستعمار الأوروبي، والدعوة إلى نهوض المسلمين وإصلاح أحوالهم؛ لاستعادة دورهم الحضاري الجيد[٢٤٧].

وجاءت هذه الدعوة استجابة لتحديات العصر التي واجهها العالم الإسلامي والأخطار الأوروبية الاستعمارية وتمثلت في بعدين الأول : سياسي دفاعي، يهدف إلى بناء قوة إسلامية قادرة على المواجهة، والثاني : فكري إصلاحي يدعو إلى دفع عجلة الإصلاح والتغيير في العالم الإسلامي وهذا ما نلمسه بوضوح في الجهود الفكرية والسياسية لدعاتها.

انتشرت الدعوة لهذه الفكرة انتشاراً واسعاً في أرجاء العالم الإسلامي، غير أن انقلاب الاتحاديين ١٩٠٨، وخلع السلطان عبد الحميد الثاني ١٩٠٩، أضرّ بمسيرة هذه الدعوة فأخذت التيارات الفكرية والسياسية القومية تتصاعد بين الترك والعرب[٢٤٨]، وقد لعبت سياسات الاتحاديين العنصرية، دوراً رئيساً في دفع عجلة الفكرة القومية العربية بين أنصار الجامعة الإسلامية من العرب، الذين أخذوا في التحول التدريجي إلى الاكتفاء على الذات والقضية العربية[٢٤٩].

إن تصاعد الدعوة للجامعة الإسلامية إبان فترة معينة، دفع الأوروبيين إلى الشعور بأن هذه الفكرة تهدد مصالحهم ونفوذهم، فراح عدد من مفكريهم وسياسييهم وقساوستهم يهاجمونها ويحذرون من مخاطرها ويدعون إلى الوقوف في وجهها ومحاصرتها[٢٥٠].

هذا التحريض المتعمد والتشويه الناتج عن سوء الفهم أو تعمد الإساءة دفع عدداً من مفكري الإسلام إلى الدفاع عن فكرة الجامعة الإسلامية وتوضيحها بجلاء وتبيان

---

(٢٤٧) د. نقولا زيادة، الجذور التاريخية للثورة العربية، ص ٢٩ .

(٢٤٨) د. علي سلطان، تاريخ سورية (١٩٠٨ – ١٩١٨)، نهاية الحكم التركي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٧، ص ٢٠ .

(٢٤٩) د. فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

(٢٥٠) د. توفيق علي برو، العرب والترك، دار طلاس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص ٤٧ – ٤٨. ولمزيد من المعلومات حول موقف مفكري الغرب وخاصة المبشرين من فكرة الجامعة الإسلامية، انظر : Samra 255-266 .

حقيقتها، لعلمانية أوروبا من جانبها، وكان في مقدمة هؤلاء المدافعين عن الفكرة صاحبنا رفيق العظم.

دافع رفيق عن الجامعة الإسلامية دفاعاً قوياً، واهتم بتفنيد الأوهام والادعاءات الكاذبة التي أحاطت بها، فأفرد لذلك كتاباً خاصاً هو : الجامعة الإسلامية وأوروبا الذي نشر سنة ١٩٠٧، وتحدث حول الفكرة في كتاب آخر هو الجامعة العثمانية والعصبية التركية أو التأليف بين العرب والترك، فقد ناقش فيه موضوعات فكرية وسياسية هامة، تتصل بالجامعة الإسلامية، وردّ الافتراءات حولها، والدعوة إلى الوفاق بين الشرق والغرب.

ويرى رفيق بأن الاجتماع الطبيعي تفرضه طبيعة البشر وطبيعة الحياة، وتقتضيه حاجات العنصر البشري، ولهذا الاجتماع صيغاً وأشكالاً متعددة نظامات وروابط وهي العصبيات، ومن أهمها رابطة العشيرة أو الجنس أو الوطن أو الدين. وهذه العصبيات من مستلزمات الاجتماعات الأولى التي يقوم بها نظام البشر، لما يترتب عليها من تكافؤ القوى، بين الجمعيات البشرية المدفوعة إلى التغالب بحكم الأنانية والطمع، المفطور عليهما هذا الإنسان.

إذاً الغرض من هذه الروابط هو حفظ التوازنات بين الجماعات المختلفة، التي يسعى كل منها للتحصن بواحدة من تلك الروابط، وتتسع دائرة الرابطة التي تبحث عنها جماعة، كلما قامت الجماعة المناوئة لها بتوسيع دائرة الرابطة التي تعتمد عليها[٢٥١].

ويؤمن رفيق العظم بوجود الرابطة الدينية؛ لإيمانه بأن الدين هو دعامة الاجتماع وبه يُصان نظام الأمم من الخلل والتفريق، ويدفع خطر الفوضى والعصبيات الجنسية التي تهوي بالشعوب من المنكة إلى مكان سحيق[٢٥٢]، وبناءً على هذه الأهمية للدين في حياة البشر، يغدو تمسك المجتمعات بمبدأ التآلف الاجتماعي تحت راية الأديان، أمراً مستمراً، لم تخلُ منه الشعوب في كل زمان[٢٥٣]؛ لهذا فلا غرابة أن يترابط المسلمون على أساس ديني،

---

(٢٥١) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية وأوروبا، في : مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص ٤٨ – ٤٩ .

(٢٥٢) رفيق العظم، تنشار الأديان، ص ٦ .

(٢٥٣) رفيق العظم، ن.م، ص ٦ .

وهو إذا حدث أمر طبيعي لا سُبة فيه ولا مؤاخذة عليه. إلا في حالة واحدة، وهي أن يتخذ البشر جميعهم الرابطة الإنسانية أساساً لهم، وهذا أمر استحالته واضحة إلا إذا تغير البشر عن طبيعتهم[٢٥٤].

وتحدث رفيق عن موقف الإسلام من الرابطة الدينية، فاعتبره قائماً على أسس متينة من العناية بالعلاقات الإنسانية بين البشر، بما يكفل التعاون والتفاهم بينهم فهو دين عالمي جاء للبشرية جمعاء ويحوي مفاهيم إنسانية رفيعة بعيداً عن التعصب والانغلاق.

وبيّن أن الإسلام يدعو إلى الارتباط الأخوي بين المسلمين ارتباطاً خاصاً، ثم الارتباط الإنساني بين الناس كافة ارتباطاً عاماً. وهذا يوضح اعتناء الإسلام بالتداخل بين رابطة الأخوة الإسلامية ودائرة الإخاء البشري العام[٢٥٥].

وأوضح أن الرابطة الدينية في الإسلام لا تهدف للعدوان، بل تعتبر خطوة على طريق تحقيق المساواة العامة بين أفراد البشر، وهي دفاعية؛ لرد خطر من يعادي المسلمين ويتربص بهم الدوائر، وخالية تماماً من الروح العدوانية التي يحاول الغرب إضفاءها عليها، مع أنه هو الذي يمارس العدوان ضد المسلمين وغيرهم من الشعوب الشرقية[٢٥٦].

لكن وعلى الرغم من تأكيد الإسلام بناء الإخاء الإسلامي تحت جامعة الدين، وتأكيده ضرورة اتحاد سائر بنيه (الإسلام) للذب عن شرائعه والانتصار له[٢٥٧]، إلا أن الواقع يخالف ذلك؛ فالفرقة والانقسامات تلف حياة المسلمين، وأعاد سبب ذلك إلى غلبة العصبية الجنسية أو الوطنية على العصبية الدينية، من ناحية، وخلافات الحكام ونزاعتهم من ناحية أخرى[٢٥٨].

ويؤكد رفيق أن الرابطة الدينية نادرة الظهور بين الأمم ولا يُلجأ إليها إلا حين الضرورة القصوى، فقليلاً ما جمع الدين كلمة أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم إلا

---

(٢٥٤) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية وأوروبا، ص ٥١ – ٥٢ .

(٢٥٥) رفيق العظم، ن.م، ص ٥٣ – ٥٤ .

(٢٥٦) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢٥٧) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٢١ .

(٢٥٨) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٥٢ .

في العواطف دون الفعل[٢٥٩]، واستشهد بواقع المسلمين لتدعيم هذا الرأي: فالفرقة والخلافات تسودهم، وإذا حلت بمسلم مصيبة لا يتعدى موقف إخوانه منه دائرة الشعور، فلا يتضامنون تضامناً عملياً مثمراً، بل تنحصر مواقفهم في إطار المشاعر، وهم أقل الأمم اجتماعاً على الدين منذ انقضاء عهد النبوة وخلافة أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما)[٢٦٠]. بل وصلت أوضاعهم في مراحل معينة إلى حد أن كان بعضهم عدواً لبعض يتربص به الدوائر[٢٦١].

لذلك كله فلا داعي – في رأيه – لشعور أوروبا بالخوف من الحديث عن اتحاد المسلمين وهو يستغرب من تخوفات أوروبا من خطر مزعوم يتهددها من الجامعة الإسلامية، التي هي من الألفاظ الوضعية التي أراد واضعوها إيغار صدور الأمم على المسلمين، وهي من موضوعات السياسيين في هذا العصر التي لم ترد في تاريخ الإسلام، وليس لها في الدولة الإسلامية شأن غير سياسي أصلاً، وأنها جاءت كرد فعل على الخطر الأوروبي المتمثل في اتحاد أوروبا على اكتساح ممالك الإسلام، مما دفع المسلمين كالاعتصام بجامعة كبرى تقابل اجتماع الدول المسيحية[٢٦٢].

وهذه الدعوة للاتحاد الإسلامي أو الجامعة الإسلامية لم تنشأ عن التعصب كما تدعي أوروبا، بل نتجت عن أسباب قاهرة وطبيعية، وبناءً عليه فلا مبرر للخوف منها، بل يجب على أوروبا أن تدعم الفكرة لأنها قائمة على الحرية والعلم، وأن حزب الإصلاح الإسلامي الداعي إلى إصلاح الدين، هو الذي يريد مثل هذه الوحدة لتحقيق التقارب بين الشعوب[٢٦٣].

يبدو أن رفيقاً يعتقد بعدم وجود شيء واقعي وملموس يسمى الاتحاد الإسلامي أو الجامعة الإسلامية، وأن الأمر يقتصر على مجرد حديث سياسي يدور في أوساط السياسيين ليس غير، ولا توجد له دلالات تنم عن تعصب ديني، وأن لا علاقة لهذه

---

(٢٥٩) ن.م، ص ٤٩.

(٢٦٠) ن.م، ص ٤٩ – ٥٠.

(٢٦١) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٧٣.

(٢٦٢) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٥٢ – ٥٣.

(٢٦٣) ن.م، ص ٥٥.

الدعوة بشيء غير السياسة. وهي مجرد ترتيبات سياسية دفاعية في مواجهة تحالف الأمم المسيحية المحتلية على المسلمين[٢٦٤]؛ كما نلاحظ أنه مؤمن بالمبررات الفكرية والعملية لوجودها، لكنه يتساءل عن حقيقة وجودها واقعياً في حياة المسلمين.

وهذا الموقف الأوروبي المعادي لفكرة الجامعة الإسلامية. يقوده إلى أن ينكر على أوروبا دأبها على التحريض ضد المسلمين وتشويه صورة الإسلام، وتصوير اتحاد المسلمين وجمعتهم على شكل خطر يتهدد المدنية. مع أن أوروبا تضطهد المسلمين في المستعمرات، وتسعى إلى تحويل الأنظار عن ممارساتها وعدوانها إلى خطر مزعوم على المدنية من الجامعة الإسلامية، وهذا برأيه دلالة على رجوع الإنسانية القهقري وتقدم المدنية إلى الوراء[٢٦٥].

وأعاد أسباب هذا التمادي الأوروبي في الحديث عن خطر الجامعة الإسلامية والتعصب الإسلامي، إلى الرغبة في التمهيد والإعداد لعدوانهم على العالم الإسلامي. مع أن ضعف المسلمين ليس بحاجة لهذا التمهيد[٢٦٦]. وأنه لا داعي لشعور أوروبا بالخوف من المسلمين، فعلى الرغم من كل ما تعرضوا له من الأخطار والتحديات القادمة من أوروبا، فإن تلك لم يدفعهم إلى الاستجابة لتلك التحديات أو النهوض للدفاع عن النفس من خلال وحدة فعلية تجمعهم وتوحدهم بل ظلوا يعلوا من الفرقة والخلاف[٢٦٧].

وحذّر الأوروبيين من أن تكون النتائج خلاف ما يريدون، فتوقع أن إكثارهم من الحديث عن التعصب الإسلامي والاتحاد الإسلامي، سوف يؤدي إلى تنبيه شعور المسلمين بقصورهم في جلب دينهم الذي يأمرهم بالتعاون ويربطهم برباط الإخاء؛ ليفزعوا إلى الاعتصام به جزعاً من جيوش السياسة التي تطاردهم في كل مكان[٢٦٨].

---

(٢٦٤) ن.م، ص ٨٥ .

(٢٦٥) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٥٦ .

(٢٦٦) ن.م، ص ٥٧ – ٥٩ .

(٢٦٧) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٥٥ .

(٢٦٨) ن.م، ص ٧٦ – ٧٧ .

وعبّر عن فهم عميق للسياسات الأوروبية تجاه المسلمين. فالهجمة الدعائية الغربية ضد الإسلام والمسلمين، وتشويه صورتهم، وتهويل المخاطر الناجمة عن اتحادهم، تعود إلى رغبة حكومات الغرب في إقناع بعض الفئات الأوروبية المستنيرة والمعارضة للحروب والاستعمار، بأن المسلمين يشكلون خطراً على المصالح الاقتصادية لأوروبا؛ لحمل هذه الفئات على تأييد السياسات الحكومية العدوانية ضد المسلمين، تحت ستار حماية المصالح الأوروبية، وإبعاد خطر التعصب الإسلامي الذي يهدد هذه المصالح"[٢٦٩].

وهذه السياسة الأوروبية القديمة التي تحدث عنها رفيق العظم في مطلع القرن العشرين هي عينها السياسة الأمريكية، بل والغربية الراهنة التي نعايشها في مطلع القرن الحادي والعشرين !!.

(٢٦٩) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٥٧ – ٥٨ .

رابعاً: فكرة الرابطة العثمانية

تصاعدت الدعوة إلى الجامعة العثمانية في وقت تزايدت فيه الأخطار والتهديدات المحيطة بالدولة العثمانية منذ أواخر القرن التاسع عشر بشكل خاص. ونادت هذه الفكرة بترابط العناصر العثمانية جميعها في إطار الإخاء الوطني العثماني بغض النظر عن المعتقدات الدينية والانتماءات القومية، لكن دون القضاء على شخصية وهوية أي من هذه القوميات، وهي بعبارة أخرى دعوة إلى التنوع في إطار الوحدة.

ولا شك أن هذه الفكرة تحاول الانسجام مع الواقع، والتكيف مع مقتضياته، على الصعيدين الداخلي والخارجي؛ ففي الداخل هناك تنوع كبير في الأعراق والديانات واللغات والثقافات. وفي الخارج ثمة موازين قوى دولية لا بد من مراعاتها، وهي تفرض على قطاع واسع من العناصر العثمانية، وخاصة العربية والتركية، المحافظة على الدولة قوية ومنيعة؛ لتحقق لهم الحماية من الأطماع الأجنبية في بلادهم[٢٧٠].

وقد كان لهذه الفكرة أنصارها ودعاتها في البلاد العربية، وإن كان التأييد في البلاد العربية وخاصة مصر قوياً في أوساط المسلمين، فإنه لم ينعدم في أوساط النصارى العرب، فقد ظهر عدد من المفكرين العرب النصارى المؤمنين بهذه الفكرة من أمثال إبراهيم تقلا مؤسس الأهرام (ت ١٨٩٢)، وشكري غانم وجورج سمنه وسليمان البستاني وغيرهم، بل إن الأخير تطرف في عثمانيته فنادى بجعل اللغة التركية لغة رسمية في المقاطعات العربية[٢٧١].

ويعدّ رفيق العظم واحداً من أبرز دعاة الجامعة العثمانية. وهنا يتبدى بوضوح تام من مسيرة حياته الفكرية والسياسية، فقد ظل مقتنعاً بأهمية المحافظة على بقاء وسلامة

---

(٢٧٠) نظر: نقولا زيادة، الجذور التاريخية للثورة العربية، ص ٢٩ – ٣٠.

(٢٧١) د. نقولا زيادة، الجذور التاريخية للثورة العربية، ص ٣٠، د. هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، ص ١٥٩؛ محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج١، ص ٦٣؛ رتشارد هارتمان، الجمعيات السياسية العربية، ترجمة رضوان السيد مجلة دراسات عربية، ع (١٠)، ١٩٧٨، ص ٥٤؛ علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ – ١٩١٤، الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٥، ص ١١٨.

الدولة العثمانية، ولم يتخلَ عن هذه القناعة، إلا عندما أصبحت الظروف جميعها تدفع باتجاه فناء هذه الفكرة.

وقد دافع عن الفكرة العثمانية، وبيّن عوامل قوتها وضعفها، وأبدى حرصه عليها، وإيمانه بها في مناسبات كثيرة من خلال مواقفه الفكرية والسياسية، وتدلّ جميع مؤلفاته وكتاباته الصحفية على درجة إخلاصه للفكرة العثمانية.

لقد آمن رفيق بوجود شيء اسمه "الأمة العثمانية" تشكل هوية جامعة للعناصر المختلفة المكوّنة للدولة، لا بد من المحافظة عليها وحمايتها، من أخطار التفريق بين العناصر، لهذا فهو يرفض سلوك الاتحاديين القائم على إظهار "النعرة الجنسية" والتمسك "بمبدأ سيادة التركي على العناصر العثمانية، كلها"، وهذا السلوك أدى إلى "تنبيه العصب الحساس من الشعوب العثمانية الذي أقلقته نفحات (حرية، إخاء، مساواة) في مبدأ إعلان الدستور، فعادت الروح القومية للظهور في أرجاء الدولة من جديد"[272].

ورأى بأن المساواة والحكم الدستوري والإصلاح السياسي الشامل، كلها عوامل تساهم في تحقيق ترابط أكبر بين عناصر الدولة، وتعزيز الرابطة العثمانية، فالدستور يعمل على "ربط أواصر الأخوة العامة بين الأمة" ويؤدي إلى تقوية "جامعة الأمة" وتقوية ترابط العناصر العثمانية[273].

وأكد أن أي ضعف يصيب أي عنصر من العناصر "الأقوام" المكوّنة للدولة، كالعرب والأرناؤوط والكرد، يعتبر ضعفاً للترك والدولة، "وخذلان للأمة العثمانية جميعاً"، وهنا يأتي في إطار بحثه عن أسباب سعي الاتحاديين لإضعاف العناصر الأخرى، وخاصة العرب، وفي سياق تدليله على أن انقسام العناصر العثمانية على نفسها باسم العصبية الجنسية سيؤدي إلى إنهاك قوى الدولة، ودفعها إلى التردي والاضمحلال[274].

وراح يؤكد رفضه الشديد لأي إحياء للقوميات "العصبيات الجنسية" في إطار الرابطة العثمانية، لما يشكله ذلك من مخاطر تؤدي إلى تداعي بنيان الدولة.

---

(٢٧٢) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، في : مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢٧٣) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٢٤ .

(٢٧٤) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٢٨ .

وقد ادعاءات البعض بأن هذا العصر هو عصر القوميات المتصاعدة كما في أوروبا. فبيّن أنه إذا صحّت الدعوة إلى العصبيات الجنسية (القومية) في الغرب، فإن ذلك لا يصح في المملكة العثمانية، التي لا يزيدها تفكك أعضائها إلا ضعفاً، ولا يزيد الدول الغربية فيها إلا طمعاً، لأن ضعف الدولة سيغري بتزايد التداخل الأجنبي في هذه المملكة، لهذا فإن السبيل الوحيد لمقاومة الأطماع الأجنبية يتحقق بتوثيق الرابطة بين العناصر العثمانية[٢٧٥].

وإدراكاً منه لموازين القوى في العالم، ولطبيعة الأطماع الاستعمارية، فهو يدعو جميع العثمانيين على اختلاف مذاهبهم وتباين أجناسهم إلى رفع أكف الضراعة إلى الله بأن يديم لهم الدولة العليا العثمانية، ويدعوهم إلى الاتحاد على دفع كل ما من شأنه أن يفرّق الكلمة، ويحل عرى الوفاق، وذلك يتحقق بدوام المحافظة على الوحدة الجامعة، وعدم الانصياع إلى دسائس المفسدين الذين يرومون تشتيت قوتنا، وتفريق كلمتنا مع قناعته بأن هؤلاء المفسدين لن ينجحوا في ذلك ما دمنا تحت راية واحدة، وهي راية الهلال العثماني[٢٧٦]. ونلاحظ أن هذه الثقة القوية بدوام ارتفاع راية الهلال العثماني، وعدم نجاح المفسدين في إنزالها، كانت في فترة مبكرة تعود إلى حين كتابته هذا الكلام في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وقبل أن تواجه الرابطة العثمانية أخطاراً حقيقية، ظهرت معظمها بعد انقلاب الاتحاديين ١٩٠٨، واتباعهم السياسات القومية والمركزية المتطرفة، وبعد تزايد الثورات والقلاقل في البلقان وغيرها من مناطق الدولة.

ولقد اهتم رفيق بتوضيح أسباب اضطراب حبل الجامعة العثمانية، والوقوف على الظروف والمستجدات التي ساهمت في إضعاف الرابطة العثمانية، وأشار في هذا السياق إلى سببين هما :

الأول : مقاومة بعض الشعوب العثمانية للدولة، وتواصل ثوراتهم ضدها، وتشكيلهم العديد من الجمعيات السرية والعصابات الثورية الساعية إلى الانفصال، ولا سيما في مقدونيا.

---

(٢٧٥) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٤٢ .

(٢٧٦) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ١٧ .

والثاني : سياسات الاتحاديين بعد تسلمهم السلطة إثر انقلاب ١٩٠٨، فأظهروا النعرة الجنسية، والتمسك بمبدأ سيادة الترك على غيرهم من العناصر، واستعمالهم سياسة العنف والشدة مع الشعوب العثمانية الأخرى.

ولا يفوته التنبيه إلى أن العرب هم أكثر الشعوب إخلاصاً للدولة، وانعدمت في بلادهم الثورات والفتن، إلا قليلاً في اليمن وهي حالة استثناء بسبب ثوراتها الدائمة[٢٧٧].

وقد حلل رفيق في كثير من كتاباته طبيعة العلاقات العربية – التركية، وما طرأ عليها من تغيرات، وما استجد عليها من أحداث وظروف، أدت إلى توتر هذه العلاقات وتدهورها. خاصة بعد وصول الاتحاديين للسلطة، وما اقترفته أيديهم من جنايات بحق الفكرة والدولة العثمانية، وبحق العناصر غير التركية وخاصة العرب من ظلم واستبداد وتمييز وعنصرية[٢٧٨].

وكان إخلاصه للرابطة العثمانية – في مرحلة ما – يدفعه إلى التحذير من الصراع القومي داخل الدولة، ويُحذّر العرب من ارتكاب نفس خطأ الاتحاديين بالدعوة إلى الجامعة العربية في مواجهة الجامعة التركية. ودعا العرب إلى التعاون مع أحرار الترك لخدمة الدولة، وحذّر من مجارات غلاة الترك في انتهاج سياسة قومية عربية مضادة[٢٧٩].

وبيّن أن الإسلام قد أزال الفوارق الجنسية بين أتباعه، ونادى القرآن الكريم إنما المؤمنون أخوة[٢٨٠].

وحذّر من هبوب ريح التدابر والشقاق والشحناء في آفاق البلاد العثمانية، وعدّ ذلك بداية نهاية الدولة. فلا يمكن دفع الأخطار عنها بالترك وحدهم، ولا بالعرب

---

(٢٧٧) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٢١ – ١٢٥ .

(٢٧٨) رفيق العظم، ن.م، ص ١٣٢ – ١٣٨ .

(٢٧٩) رفيق العظم، العرب والترك، الاتحاد العثماني، العدد (١٥٠)، ٢٠ آذار ١٩٠٩، ص ٢؛ رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٢٨ .

(٢٨٠) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٢٨ .

وحلمهم. ودعا الأمتين العربية والتركية إلى الاتحاد الصحيح لئلا يتدلى بنيان هذه الدولة باسم العصبيات الجنسية[٢٨١].

ويتضح مدى إخلاصه للرابطة العثمانية إبان الحرب البلقانية (١٩١٢)، عندما كان يستصرخ العثمانيين إلى حماية الوطن العثماني والدفاع عنه في وجه أطماع أوروبا التي تحركها الأحقاد والتي تسعى إلى تقليص ظل الإسلام من أوروبا والحلول محل الدولة العثمانية في ولاياتها المقدونية، وراح يطالب المسلمين والعثمانيين ببذل الأنفس والأبناء والأموال للدفاع عن حياض الخلافة[٢٨٢].

خامساً : الفكرة القومية :

عرفت البلاد العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهور مؤشرات أولية للفكرة القومية، وقد عبّرت اليقظة العربية الحديثة بأبعادها الثقافية والأدبية والفكرية بشكل أو بآخر عن مضامين قومية كانت بحاجة إلى مرور وقت كافٍ ليستوي عودها ويكتمل نضجها[٢٨٣].

وقد كان للنصارى العرب دور بارز في الحديث عن الفكرة القومية العربية في تلك المرحلة، ولعل ذلك راجع إلى انفتاحهم على الغرب وتأثرهم بالتيارات الفكرية الأوروبية، إضافة إلى إحساسهم بأن الدولة العثمانية هي دولة إسلامية بالدرجة الأولى لا يربطهم بها دين أو جنس أو لغة ليشعروا نحوها بالولاء أو الانتماء. في حين مزج المفكرون العرب المسلمون بين الانتماء العربي والإخاء الإسلامي، ولم يشعروا بأي

---

(٢٨١) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٤١ – ١٤٢.

(٢٨٢) رفيق العظم، عقب العثمانيين لدولتهم، المؤيد، عدد (٦٨٠٩)، ٢٢ أكتوبر ١٩١٢، ص ٤.

(٢٨٣) انظر: محمد محمد حسين، م.س، ص ٩٩؛ فردريك زريق، نهضة العرب، التحرر، فالاستقلال، فالدولة، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٤٩، ص ١١؛ مجيد خدوري، المسألة السورية بحث في نشوء وتطور الحركة القومية في الشرق العربي قبل الحرب والنضال بينها وبين الاستعمار في سوريا بعد الحرب، مطبعة أم الربيعين، ١٩٣٤، ص ٣٢ – ٣٣.

تناقض بين العروبة والإسلام[284]، فتعاملوا مع الأمر ببساطة وتلقائية، بعيداً عن اختلاق التناقض بين العروبة والإسلام.

إن الجذور الفكرية لرفيق العظم، التي تعود إلى حلقة الشيخ طاهر الجزائري[285]، تجعله في عداد المؤمنين بالترابط الوثيق بين العروبة والإسلام. ولم يحدث أن شعر بأي تناقض بين انتمائه العربي وانتمائه الإسلامي. ويشهد على ذلك كتاباته ومؤلفاته، وجهوده الإصلاحية والسياسية. فقد كان مؤمناً بالجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية.

وكان انتماؤه للأمة العربية، وبلادها ولغتها أمرٌ واضح نلمسه من خلال جهوده الفكرية والسياسية. فقد ساهم في عملية الإحياء الثقافي العربي في بلاد الشام ومصر. وساهم في حمل راية الدعوة إلى الحكم الدستوري والحياة النيابية الشورية، والإصلاح اللامركزي؛ لاعتقاده بأن ذلك سيحقق للولايات العربية العثمانية، فرصة حقيقية للتطور والبناء والمساهمة الفعّالة في حفظ كيان الدولة وإدارة شؤونها.

عندما يتحدث رفيق عن الأمة العربية يشعرك بقدر عظيم من الفخر والاعتزاز بهذه الأمة وهويتها وحضارتها، ويفاخر بأن علماء الغرب اعتبروا العرب أساتذة العالم[286]. ونظر إلى الأمة العربية باعتبارها أمة عريقة، ذات تاريخ يمتد إلى خمسة آلاف سنة، وهي أول واضع للشرائع المدنية منذ عهد حمورابي، وحافظت على لغتها وعاداتها وقوميتها واستقلالها قبل الإسلام، وحملت دينها ولغتها وسلطانها بعد الإسلام في البلاد بين جبال هملايا في آسيا شرقاً والبرنيه في أوروبا غرباً[287].

وعندما تحدث رفيق عن الروابط المختلفة كضرورة من ضرورات الاجتماع والحياة البشرية، رأى أن هذه الروابط تتراوح بين الرابطة الدينية والرابطة القومية (العشائرية)

---

(٢٨٤) أبو خلدون، ساطع الحصري، محاضرات في نشوء القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، طبعة خاصة، ١٩٨٥، ص ١٢٤؛ د. هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٨، ص ١١٦؛ محمد محمد حسين، د.م، ص ١١٣ .

(٢٨٥) انظر: محب الدين الخطيب، الجيل الذي عاصر بعث العروبة، ص ٥ .

(٢٨٦) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٤٠ .

(٢٨٧) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٥٢ .

والرابطة الوطنية والرابطة الجنسية (القومية). والروابط الودادية أو السياسية القائمة على تبادل المصالح.

وأكد على أن أكثر هذه الروابط ظهوراً بين الأمم والشعوب هي الرابطة الجنسية (القومية)، والرابطة الوطنية. وأشار إلى أن رابطة الجنس والوطن.. طبيعة الوجود لا سبيل إلى انحلالها إلا بانحلال القوم المنتسبين إليها، ويلي هاتين العصبيتين في المنزلة العصبية الدينية(٢٨٨).

ويرى رفيق أن الجوامع الجنسية هي الغالبة عند الأمم وبخاصة المسلمين وأعاد تفرّق المسلمين في مواجهة الدول المسيحية، إلى غلبة العصبية الجنسية أو الوطنية على العصبية الدينية(٢٨٩).

ولأن رفيق يدعو إلى نظرية مواجهة العدو بنفس أسلحته فقد تحدث عن ضرورة ترابط المجتمع المهدد بخطر ما واجتماعه على نفس الرابطة التي يستند إليها المجتمع مصدر الخطر، فإذا كانت رابطة المعتدي دينية أو جنسية أو وطنية يجب مواجهته برابطة مكافئة لها ومن نوعها. لذا فعندما يتحدث عن ضرورة مواجهة المسلمين لعدوان الدول المسيحية فهو يؤكد على ضرورة اتحاد المسلمين على أساس من عقيدتهم ودينهم. وإيمانه بالرابطة الدينية لا يمنعه من الاعتقاد بإمكانية الترابط على أساس قومي أو وطني، فهو يرى أن السير نحو الديموقراطية يجعل تباين الاعتقادات الدينية غير قادر على منع توثق عرى القومية. لذا فهو يدعو أبناء الوطن الواحد إلى التماسك والترابط والتعاون لما فيه خير وطنهم وجنسيتهم. مؤكداً على الترابط بين جميع أبناء الديانات في الوطن الواحد وداعياً إلى ضرورة الاعتقاد بالقومية لمواجهة الأخطار الغربية(٢٩٠).

وإذا كانت الأمة العربية ذات تاريخ مجيد وإسهام عظيم في الحضارة العالمية تحدث عنه رفيق طويلاً، وإذا كان علماء الغرب يعتبرون العرب أساتذة العالم فهو يستغرب

---

(٢٨٨) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٤٨ – ٤٩ .

(٢٨٩) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٥٢ .

(٢٩٠) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٧٨٢ .

تجاهل الترك هذه الحقائق ويطالبهم بالاعتراف بأن العرب هم أساتذتهم في دينهم وآداب لغتهم وعلومهم وهم (العرب) تاركوا ميراث الملك والخلافة للترك[٢٩١].

وبما أن الدعوات القومية التركية العنصرية بدأت تهيمن على سياسات الاتحاديين وراح الحديث عن فرض التتريك والتشدد في المركزية يتصاعد في أروقة جمعية الاتحاد والترقي فإن رفيق ينبه هؤلاء إلى استحالة أن تكون الأمة العربية محكومة من الأتراك كحكم السادة للعبيد كما يريد أولئك المتهوسون بحب السيادة المغالون بالجنسية[٢٩٢] يقصد – طبعاً – الاتحاديين الذين يحاولون فرض سياسات التتريك على العرب مهملين حقيقة أن للعرب شخصيتهم وهويتهم ولغتهم التي هي أساس وحدتهم وهي لغة الإسلام دين الدولة الرسمي فيحذر من معاداة هذه اللغة ومن معاداة الأمة العربية التي لا تحكم بالعنف، ومن صفاتها الملازمة لها أنها تنفر ممن يحاول قهرها ولم يحدث عبر تاريخها أن استطاع أحد أن يحكمها بالقوة[٢٩٣].

سادساً : الفكرة الوطنية :

بفعل الاتصال بأوروبا والاطلاع على ثقافتها عرفت البلاد العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حديثاً متزايداً حول الوطن والوطنية والرابطة الوطنية كمفهوم سياسي[٢٩٤].

وصار من المألوف الحديث عن حب الوطن والولاء له وعن حب الوطن من الإيمان[٢٩٥] على رأي رفاعة الطهطاوي وجرى الحديث حول إشراك أبناء الوطن بروابط وحقوق وواجبات مشتركة[٢٩٦] وعن ضرورة التخلص من التعصب الديني والعمل على إشاعة التسامح بين أبناء الوطن الواحد وعن كون خدمة الوطن من

(٢٩١) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ١٤٠ – ١٤١ .
(٢٩٢) ن.م، ص ١٤١ .
(٢٩٣) ن.م، ص ١٣٥ ، ١٤٠ .
(٢٩٤) علي محافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، ص ١٢١؛ د. الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ١٤٨.
(٢٩٥) د. الدوري، التكوين التاريخي، ص ١٤٣؛ علي محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص ١٢١ .
(٢٩٦) د. الدوري، التكوين التاريخي، ص ١٤٣ .

أوجب الواجبات وألزم الفرائض[٢٩٧]، وعن أهمية خلق هوية وطنية تشكل قاعدة مشتركة تتخطى الخلافات الداخلية والطائفية[٢٩٨].

وكان ظهور الفكرة الوطنية وتزايد الحديث عن خلق هوية وطنية مشتركة تجمع أبناء الوطن الواحد بغض النظر عن اختلافاتهم الدينية أو العرقية في مرحلة شهدت تحديات حقيقية للعرب، فمثلاً في مصر كان الأتراك والشراكسة يتحكمون في مقدرات البلاد وحرم المصريون من المساواة مع هذه العناصر الغريبة، وفي بلاد الشام هددت الفتن الطائفية أمن واستقرار البلاد بشكل خطير. فكانت أحداث دمشق وبيروت الطائفية سنة ١٨٦٠، دافعاً قوياً للبحث عن صيغة تفاهم بين أبناء الوطن الواحد[٢٩٩]. وكان لنصارى بلاد الشام دور هام في إثارة الحديث حول الرابطة الوطنية، فكان من أبرز دعاتها في بلاد الشام كل من: بطرس البستاني (ت ١٨٨٣)، وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ – ١٨٨٧) وأديب اسحق وغيرهم[٣٠٠].

أما في مصر فقد تحدث رفاعة رافع الطهطاوي حول الوطنية بعد عودته من باريس سنة ١٨٣١ موضحاً إعجابه بالفكرة الوطنية، كما تحدث الشيخ محمد عبده والشيخ علي يوسف حول الفكرة الوطنية[٣٠١].

وعندما تحدث رفيق العظم عن الروابط الجامعة للبشر، والضرورية لحياتهم اعتبر الوطنية واحدة من أقوى هذه الروابط وأكثرها ظهوراً في حياة الأمم. وراح يتحدث عن الوطن ويتغنى به كالشعراء فأعطاه مكانة سامية في حياة الإنسان لأنه "طينة الفرد التي نبت فيها أصله، ونما فرعه، ونشأة حياته، وهو "مقرّه الذي تتجاذبه عوامل الشفقة

---

(٢٩٧) علي محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص ١٢٤ .

(٢٩٨) د. الدوري، التكوين التاريخي، ص ١٤٨ .

(٢٩٩) د. الدوري، نفس المصدر، ص ١٤٣ . وحول ظهور الفكرة الوطنية في مصر، انظر، محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج١، ص ٧٥ – ٧٦ .

(٣٠٠) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج١، ص ٧٨ .

(٣٠١) د. الدوري، التكوين التاريخي، ص ١٤٧ – ١٤٨ ؛ محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ج١، ص ٧٠، ص ٧٥– ٧٨؛ علي محافظة، الاتجاهات الفكرية، ص ١٢٢ – ١٢٥ ؛ د. هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، ص ٧٤ – ٧٥.

عليه[٣٠٢]. وتحدث عن حب الوطن واعتبر سلطان هذا الحب، فوق كل سلطان وأثره لا ينمحي عن صفحات الجنان. فكم بيعت في سبيله النفوس بيع السماح. وكم رخصت دونه أرواح وغلت أرواح، بل كم رفع لرجال ذكراً كان خاملاً[٣٠٣].

وحب الوطن – عنده – هو أشرف خلق يتحلى به الإنسان، وأحسن شيمة ينطوي عليها الجنان. وهو من أخلاق الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة يحنّ إلى وطنه مكة حنيناً كثيراً...[٣٠٤]. وبما أن حب الوطن من الإيمان فهذا يعني أن حقوق الوطن على المؤمن هي حقوق الإيمان من حيث تحمل المصاعب والمشاق، والكف عن الإسراف والتبذير، والتضحية بالنفس والمال[٣٠٥].

وللوطن مكانة مهمة لتحقيق الاستقرار والسعادة والمدنية لأن الوطن جامع ما تفرّق وضام الشتيت من الإنسان. وإنما تقوم المدنية حيث يكون الاجتماع وتستبحر الحضارة حيث تآلف القلوب على العمل، ويمتد العمران حيث يجتمع الناس[٣٠٦]. وهذا كلام صريح ومحدد يبين أهمية استقرار الإنسان في وطن آمن ليتفرغ لبناء المدنية والحضارة.

واجبات الإنسان نحو وطنه (حقوق الوطن) :

١- المحافظة على وحدة الوطن واتحاد كلمته؛ ليكون مستعداً لمقاومة أعدائه، وليبقى أبناؤه أحراراً يتمتعون بحقوقهم المدنية[٣٠٧].

٢- وجوب الإقبال على العلم والمعرفة، وجلب الفنون والصنائع، وعمل المشاريع النافعة.

٣- المحافظة على المصلحة الوطنية العامة، وتقديمها على المصلحة الشخصية[٣٠٨].

---

(٣٠٢) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٨٢ .
(٣٠٣) ن.م، ص ٨٣ .
(٣٠٤) ن.م، ص ٨٣ .
(٣٠٥) ن.م، ص ٨٤ .
(٣٠٦) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٨٥ .
(٣٠٧) رفيق العظم، البيان في التمدن، ص ٣٢ .
(٣٠٨) ن.م، ص ٣٢ – ٣٣ .

٤- إقامة الأفراد في وطنهم وعدم الهجرة منه، إلا في حالة الشعور بضيق العيش أو المعاناة من ظلم الحكام، فهذا عذر مقبول للبحث عن مكان يأمن فيه المواطن على نفسه وحريته[٣٠٩].

٥- العمل الدائب المخلص لخدمة الوطن، ونبذ الكسل والتواكل لأن مجد الوطن وسعادته يبنيه بنوه بالعمل، ولأنه ما أصيب وطن من أهله بمثل الكسل، كما لم يحتز وطن من أهله بمثل العمل[٣١٠].

الوحدة الوطنية :

ولتحقيق وطن آمن مستقر، لا بد من وحدة وطنية حقيقية بين أبناء الوطن الواحد وهذا - برأي رفيق - يتحقق بإشاعة العدل والمساواة وحماية حقوق الجميع بشكل شامل لا يستثني أحداً[٣١١].

وجعل توثيق عرى الإخاء الوطني من مسؤولية الجميع، يشترك فيها المسلم واليهودي والنصراني من أبناء الوطن العربي الواحد ليستطيعوا الوصول إلى الديموقراطية الصحيحة التي ترفع شأن الأمم وتحوط الأقوام السياسية بسور من القوة[٣١٢]، مؤكداً أن الواجب والمصلحة تفرض إزالة الشقاق، وتأليف القلوب بين أبناء الوطن الواحد الذي يساوي الجميع بالحقوق والواجبات[٣١٣].

ولأن الوطن للجميع مسلمين ومسيحيين ويهود فقد حمّل الجميع مسؤولية حماية الوحدة الوطنية، فخاطب المسلمين قائلاً "تناصروا مع أهل وطنكم واعرفوا لهم حقوقهم التي عرفها قبل ذلك نبيكم صلى الله عليه وسلم، وقررها شرعكم وأرشدكم إليها آداب دينكم.."[٣١٤] وخاطب مواطنيهم من أتباع الأديان الأخرى، يدعوهم إلى نبذ

---

(٣٠٩) رفيق العظم، البيان في التمدن، ص ٣١ .

(٣١٠) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٨٥ .

(٣١١) رفيق العظم، الدروس الحكمية، ص ٣٨ .

(٣١٢) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨٢ .

(٣١٣) رفيق العظم، إلى الشعب الفاضل، المؤيد (٦٩٩٣)، ٢٦ مايو ١٩١٣، ص ١ .

(٣١٤) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨٠ .

التعصب وإزالة أسباب البغضاء والتنافر التي بينهم وبين المسلمين وأن يحفظوا حق الجوار والسكن والجنسية للمسلمين حيثما جمعهم وإياهم وطن واحد[٣١٥].

وفي سبيل التخلص من أخطر ما يتهدد الوطن، وهو تفرق أبنائه وانقسامهم إلى طوائف متحاربة، يشعر بعضها بالتبعية للأجنبي، والنظر إليه كحامي ومدافع في مواجهة باقي أبناء الوطن. لذا فإن رفيق يخاطب أبناء الوطن من غير المسلمين، وينبههم إلى حقيقة أن الشرقي مهما كان لا يكون في عوائده وأخلاقه ومعيشته وحكومته غربياً قط[٣١٦].

وهذه إشارة واضحة لبعض الطوائف النصرانية التي كانت تشعر بالتبعية للغرب، وتتمتع بحمايته مما يشكل خطراً على وحدة الوطن وسلامته، ويضع علامة استفهام حول وطنية هؤلاء، ويذكرهم بعوامل الاختلاف بينهم وبين الغرب الذين يلحقون أنفسهم به، وبعوامل الترابط مع أبناء وطنهم من المسلمين والمتمثلة في وحدة الحضارة والثقافة والأخلاق والعادات والتقاليد وأسلوب الحياة، في حين أن الاختلاف الوحيد هو في العقيدة. وهذه دعوة إلى تغليب عوامل الوحدة على عوامل الفرقة، والبحث عن القواسم المشتركة بين أبناء الوطن الواحد للاتفاق عليها؛ لتوحيد جهودهم في خدمة وطنهم ورد الأطماع الخارجية عنه.

وأكد على ضرورة سحب البساط من تحت أقدام الدول الأوروبية التي تتخذ من حماية المسيحيين ذريعة لأطماعها، فدعا إلى إفشال هذه الذريعة، برفع شعار الشرق للشرقيين في مقابل أوروبا للأوروبيين وهذا الشعار بحاجة لقوة تحميه، يرى أنها تتمثل في العلم. ويشير إلى ضرورة الاقتداء بالتجربة اليابانية التي يعتبرها جديرة بالتقليد والاتباع[٣١٧]. خاصة وأنها تثبت قدرة الشرقيين على التقدم والنهوض. ونقدر لرفيق عالياً انتباهه المبكر لأهمية التجربة اليابانية وقدرته على استشراف مستقبلها المشرق ودعوته للاقتداء بها.

---

(٣١٥) ن.م، ص ٨٢.

(٣١٦) رفيق العظم، الجامعة الإسلامية، ص ٨٢ – ٨٣.

(٣١٧) ن.م، ص ٨١.

الفصل الثالث

جهوده السياسية في نطاق القضية العربية

أولاً: موقفه من الحكم العثماني:

- موقفه من سياسة السلطان عبد الحميد الثاني
- موقفه من سياسة حكومة الاتحاد والترقي

ثانياً: نشاطه السياسي في الجمعيات والأحزاب السياسية العربية

- جمعية الشورى العثمانية
- حزب اللامركزية الإدارية العثماني
- جمعية الجامعة العربية

الفصل الثالث
جهوده السياسية في نطاق القضية العربية

أولاً : موقفه من الحكم العثماني :

إن إخلاص رفيق للدولة العثمانية لم يكن في يوم من الأيام محل شك أو بحاجة إلى إثبات، فقد قضى شطراً طويلاً من حياته في سبيل خدمتها والدفاع عنها ككيان سياسي قوي يشكل رادعاً في وجه الأطماع الأوروبية في المنطقة.

وقد بذل جهوداً فكرية وسياسية كبيرة تدعم سلامة واستمرارية الدولة العثمانية، فنادى بالاتحاد الإسلامي، ودافع عن فكرة الجامعة الإسلامية كوسيلة فعّالة في دفع أخطار الأمم المسيحية، وآمن بالرابطة العثمانية، وسعى جاهداً لتقويتها، وصيانتها، من مخاطر التفتت الديني والعرقي، فنادى بنبذ الدعوات العنصرية والقومية التي تهدد وحدة وسلامة الوطن العثماني، وتفتت أوصال الأمة العثمانية.

وبقي إخلاصه للكيان العثماني يشكّل قاعدة يستمد منها القوة في معالجة سياسات الحكومات العثمانية. ولم يمنعه التزامه الفكري والسياسي بالحفاظ على الدولة العثمانية من اتخاذ الموقف الذي يراه مناسباً تأييداً أو معارضة ضمن رؤية واضحة لطبيعة الظروف، ومقتضيات العصر، ومستلزمات القناعة الفكرية، والاجتهاد السياسي.

عاش رفيق في ظل مرحلتين مختلفتين تحت كنف الدولة العثمانية، هما : مرحلة حكم السلطان عبد الحميد الثاني ومرحلة حكم الاتحاديين بعد انقلابهم ١٩٠٨، وعزلهم السلطان عبد الحميد ١٩٠٩، وفي المرحلتين نجده في البداية يؤيد ويناصر، ثم يتحول إلى صفوف المعارضة.

١- موقفه من سياسة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩) :

أ- تأييد سياسة السلطان عبد الحميد الثاني :

تفاوتت الآراء والمواقف من سياسات السلطان عبد الحميد فقد جمعت سياسته بين الإيجابيات والسلبيات، أما إيجابياته فكان في مقدمتها تدينه الشديد وتمسكه بالشريعة

وتبنيه لسياسة الجامعة الإسلامية[318]، وحبه للعرب وسعيه لكسب ودهم، واهتمامه بالمقدسات الإسلامية في بلادهم[319]، وتقريبه لعدد من الشخصيات العربية التي أسبغ عليها مظاهر التكريم[320]، كما جعل حرسه الشخصي من الجنود العرب[321]، وعيّن بعضهم في مراكز عسكرية وسياسية مرموقة[322]، وكان موقفه الشجاع من المخططات الصهيونية، والأطماع الاستيطانية في فلسطين[323]، واحداً من أبرز إيجابياته.

وقد لعبت هذه السياسات والإيجابيات دورها في تحجيم المعارضة في صفوف المسلمين من العرب، فلم تعرف بلادهم محاولات حقيقية وجوهرية لمعارضته، وبقي عامة الناس قانعين بحكم الخليفة حامي حمى الإسلام والمسلمين. كما غابت وتوارت مشاعر الخلاف أو العداء بين العرب والترك في حين كانت للنصارى العرب ملاحظاتهم على السلطان وسياسته الإسلامية مما أشعرهم بالفرح عند قيام انقلاب الاتحاديين[324].

وفي المقابل، جرى حديث واسع بين المؤرخين والسياسيين عن سلبيات السلطان عبد الحميد واستبداده وظلمه، حتى أطلق بعضهم عليه لقب السلطان الأحمر، ووصفوه

---

(318) أنطونيوس، يقظة العرب، ص ١٣٨ – ١٣٩؛ عبد العزيز عوض، بحوث في تاريخ العرب (١٥١٤ – ١٩١٤)، مكتبة المحتسب، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ص ٩٠؛ غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص ٢٤٨ .

(319) أنطونيوس، المرجع السابق، ص ١٣٩ – ١٤٠؛ د. علي سلطان، تاريخ سورية ١٩٠٨ – ١٩١٨، ص ٦١ – ٦٣ .

(320) من أبرز الشخصيات العربية التي كانت مقرّبة من السلطان عبد الحميد كل من : أبو الهدى الصيادي، عزت باشا العابد، الشريف الحسين بن علي، الشريف علي حيدر وغيرهم، انظر H. SSAB. P. 188 .

(321) أنطونيوس، يقظة العرب، ص ١٤٠ .

(322) د. الدوري، التكوين التاريخي، ص ١٦٤.

(323) غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص ٢٤٨ .

(324) د. عبد العزيز عوض، بحوث في تاريخ العرب الحديث، ص ٩٠؛ د. علي سلطان، المرجع السابق، ص ٥٦ – ٥٨ .

بأبشع النعوت والصفات، واعتبروه مثلاً للظلم والاستبداد[325]. ونفى آخرون ما يسمى استبداد وتسلط عبد الحميد متسائل عن الشواهد والحيثيات الدالة عليه خاصة في البلاد العربية، وطالب بأسماء محددة طالها الأذى والقتل والإعدام أو أشخاص جرى اعتقالهم لأسباب فكرية أو سياسية خاصة في البلاد العربية[326].

ودافع الأمير عبد الله بن الحسين عن السلطان عبد الحميد بقوله : "ولقد زعم الناس أن عبد الحميد كان ظالماً، لقد كذب الناس. والله لم يكن بظالم ولكنه الحذر المتحوط ولقد عُرف بعد أن ذهب، أنه لم يقتل أحداً، ولم ينفذ حكم إعدام في محكوم أبداً، إلا مرة واحدة والبقية كانوا يتركون في السجون حتى يدركهم الموت. وأما الذين يُنفون من بلادهم.. فيخرجهم إلى مكان لا يعرفون فيه، فيقي بذلك التدبير، القتل. ولئن أحصى الناس ما وقع بعده من صلب وتشريد وإدارات عرفية وصولات في شام وعن من الحكومات الاتحادية لعلم أن ظلم عبد الحميد بالنسبة إلى أفعالهم كان عدلاً محضاً[327].

ولعل مقدار التشويه الذي لحق بالسلطان جاء من الدوائر الغربية، القادرة على إثارة الرأي العام، ضد كل من يخرج على مخططاتها وسياساتها، وربط بعضهم بين تشويه صورة السلطان عبد الحميد وبين ثورة الأرمن سنة ١٨٩٤، والمذابح التي حدثت لهم سنة ١٨٩٦، فبدأت الدعاية الإعلامية الغربية ضده تتزايد وتتشعب، خاصة في انكلترا والولايات المتحدة[328]، ولعل وقوفه في وجه المخططات الصهيونية وتصديه للخطر الصهيوني هو الذي أودى به .

---

(٣٢٥) نزيه المؤيد العظم، كلمة بعنوان "لماذا تحتفل سورية باليوم الثامن من مارس" كتب في ٨ مارس ١٩٣٠، مخطوطة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، القسم الخاص، مجموعة "الأعلام، أوراق المجاهد نزيه المؤيد العظم، إضبارة رقم ٤٨، الوثيقة رقم ١/١؛ وانظر د. عبد العزيز عوض، بحوث في تاريخ العرب الحديث، ص ٩٠؛ د. علي سلطان، المرجع السابق، ص ٥٧؛ آرنست رامزور، تركية الفتاة، ص ٤٦ .

(٣٢٦) علي سلطان، المرجع السابق، ص ٥٧، ص ٦٤ – ٦٥؛ وانظر، رامزور، تركية الفتاة، ص ٦٣ – ٦٤ .

(٣٢٧) عبد الله بن الحسين (ملك الأردن)، الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين، بيروت : الدار المتحدة للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص ٥٠ – ٥١ .

(٣٢٨) رامزور، تركية الفتاة، ص ٤٦ .

إن إعلان السلطان عبد الحميد العمل بالدستور سنة ١٨٧٦، وإجراءه انتخابات نيابية لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م فاز فيها ستة عشر نائباً عربياً من أصل مئة وخمسة عشر نائباً، تعتبر التجربة الديموقراطية الأولى في الدولة لكنها لم تعمّر طويلاً إذ سرعان ما أعلن السلطان بعد سنة تقريباً وقف العمل بالدستور وحلّ المجلس النيابي[٣٢٩].

وظلت قضية المطالبة بإعادة العمل بالدستور، تشغل حيزاً واسعاً، من النشاط السياسي والفكري في الدولة. وظهرت مجموعات سياسية كثيرة، تبنى الدعوة لحياة دستورية نيابية. وغادر عدد كبير، من أقطاب المعارضة، إلى خارج حدود الدولة، لا سيما إلى أوروبا. وهناك مارسوا نشاطاً سياسياً وإعلامياً معارضاً للسلطان ومطالباً بالعودة إلى الدستور.

ومن أبرز الشخصيات العثمانية، التي قادت هذا النشاط السياسي خليل غانم وضيا بك الخالدي، والأمير أمين أرسلان، وأحمد رضا، الذي أصدر بالاتفاق مع خليل غانم جريدة "مشورت" في باريس، ولحق بهم عام ١٨٩٩، الداماد محمود (ابن الأمير خليل باشا زوج أخت السلطان محمود الثاني)، مع ولديه البرنس صباح الدين والبرنس لطف الله. وكان من أبرز نشاطات هؤلاء المعارضين، تقيمهم لمؤتمر هام في دار البرنس صباح الدين بباريس سنة ١٩٠٢، حضره ممثلون عن كافة الشرائح، الدينية والقومية، التي تتألف منها الدولة العثمانية[٣٣٠].

وظهر داخل المؤتمر وفي أعقابه تياران سياسيان، الأول : بقيادة أحمد رضا تبنى الدعوة لإقامة سلطة مركزية ذات صبغة تركية، والثاني : بقيادة البرنس صباح الدين، نادى باللامركزية الإدارية. وفيما بعد تجسّد التيار الأول في جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٧ ومقرها باريس. واستطاعت قيادة انقلاب ١٩٠٨ وعزل السلطان ١٩٠٩. أما التيار الثاني فقد تجسّد في "جمعية التشبث الشخصي واللامركزية الإدارية" وبالتركية "تشبث

---

(٣٢٩) حول جهود مدحت باشا في إقناع السلطان بفكرة الدستور، نظر : - H. SSAB, P. 183 . 187

(٣٣٠) د. توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري، ١٩٠٨ – ١٩١٤، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص ٦٠ – ٦٢؛ رامزور، تركية الفتاة، ص ٩٣، ص ١٠١ .

شخصي وعدم مركزيت جمعيق. وقد دعت هذه الجمعية إلى الحكم على أساس اللامركزية الإدارية، وتوسيع المأذونية (الصلاحية) في الولايات[٣٣١].

بدأ رفيق حياته مؤيداً للسلطان عبد الحميد الثاني، فمدحه في أول مؤلفاته الموسوم "السوانح الفكرية في المباحث العلمية"، الذي يُعتقد بأنه كتبه في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وقد نشر بعد وفاته ضمن مجموعة آثاره[٣٣٢].

ففي مقدمة هذا الكتاب، أثنى على السلطان ودعا إلى الالتفاف حول الرابطة العثمانية، والابتعاد عن كافة عوامل الفرقة والخلاف، ونبذ دعوات المفسدين الهادفة إلى خلخلة الوحدة تحت راية الهلال العثمانية، وأن الدولة في عهده بدأت بالترقي في المدنية، وغاب الظلم والاستبداد، وتوفرت أسباب العمران، في زمن السلطان عبد الحميد الذي أشرقت البلاد بنور عدله ورأفته، ولم يسبقه من العثمانيين ملك بما بذل من الجهد لتقدم رعيته، الملك المؤيد من الله بالنصر المبين، أمير المؤمنين السلطان الغازي عبد الحميد خان، دام كرسي خلافته العظمى..."[٣٣٣].

ووصف الأحوال في عهد السلطان فقال : "... وقد انتشر العدل في هذه الأيام، وتساوت بالحقوق سائر الأفراد، واتخذت لذلك أسباب المدنية تمتد رويداً رويداً بالممالك المحروسة، وارتفعت أيدي الظلم والاستبداد، وتوفرت بالمملكة أسباب العمران"[٣٣٤].

(٣٣١) برو، م.ن، ص ٦٤، ٦٧، د. سهيلة الريماوي، تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين ١٩٠٠ – ١٩١٨، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان الثالث عشر والرابع عشر، تشرين الأول ١٩٨٣، ص ١٤٠ – ١٤١؛ رامزور، تركية الفتاة، ص ١١٥؛ وانظر : د. سهيلة الريماوي، جمعية العربية الفتاة السرية، دراسة وثائقية ١٩٠٩ – ١٩١٨، الطبعة الأولى، عمان : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ١٩٨٨، ص ١٢٦ .

(٣٣٢) يعتقد الشيخ محمد رشيد رضا بأن رفيق امتنع من نشر هذا الكتاب بسبب مدحه للسلطان في مقدمته. انظر محمد رشيد رضا، رفيق بك العظم، في مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص (ط).

(٣٣٣) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ١٦ – ١٧ .

(٣٣٤) رفيق العظم، السوانح الفكرية، ص ١٧ .

ب- معارضة سياسة السلطان عبد الحميد الثاني :

غير أن تحولات فكرية وسياسية استجدت في حياة صاحبنا، نقلته إلى صفوف المعارضة للسلطان وسياسته. وعند البحث في طبيعة هذه التحولات، لا يمكن عزلها عن الجو العام الذي ساد بلاد الشام في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر، من حركة نهضة فكرية وثقافية، ونشاط سياسي كان في بواكيره الأولى. وما افرزه هذا الجو، من تقدير فئة، لقيمة الحكم الدستوري والحياة النيابية. وكان رفيق واحداً من القلائل الذين تأثروا بهذه الأجواء، وساعده على ذلك نشأته في وسط سياسي عريق، ومطالعاته الكثيفة، وانضمامه لحلقة الشيخ طاهر الجزائري، وزيارته لمصر التي دامت سنة كاملة، قضاها في البحث والمطالعة، ثم زيارته للأستانة سنة ١٨٩٤، في طريق عودته إلى الشام من مصر، واطلاعه على مجريات الحياة في عاصمة الدولة. إضافة إلى علاقاته مع المعارضين الترك من ضباط وموظفي حكومة، يعملون في دمشق.

من هنا نفهم علاقته بالشباب العثماني المعارض لسياسات السلطان عبد الحميد في دمشق في مقتبل شبابه[٣٣٥]. وهذا الاتصال بدعاة الدستور ومعارضي السلطان، اعتبره كل من صديقه الشيخ محمد رشيد رضا[٣٣٦]، وصديقه محب الدين الخطيب[٣٣٧] سبباً في هجرته إلى مصر ليأمن على نفسه، من ملاحقة الحكومة العثمانية له، وليتسنى له ممارسة نشاطه السياسي بحرية أكبر.

وقد أكد رفيق ممارسته لنشاط سياسي معارض للسلطان عبد الحميد قبل وبعد هجرته إلى مصر، فيقول : "لا أتذكر أني ساعفت نفسي يوماً واحداً بالسكوت عن محاربة استبداد عبد الحميد في نفس سورية ثم في مصر ومحاربة من كان مثله بعده ولم يزعزعني عن مبدأي شيء من الترغيب أو الترهيب..."[٣٣٨].

---

(٣٣٥) محمد كردعلي، المعاصرون، ص ٢٢٤ .

(٣٣٦) مجموعة آثار رفيق بك العظم، المقدمة بقلم محمد رشيد رضا، ص ج - د .

(٣٣٧) محب الدين الخطيب، ترجمة رفيق بك العظم، مجلة الزهراء، م ، ص ٢٢٦ .

(٣٣٨) رسالة من رفيق إلى محمود الحمصاني، انظر، ملحق رقم (١) .

وفي مصر ضاعف رفيق من نشاطه السياسي المعارض للسلطان، وزاد في توثيق صلاته بالأحرار العثمانيين المعارضين. وكان خير عون لهم، وساندهم بشكل قوي جعله تحت مراقبة أجهزة الخفية والتجسس العثمانية[٣٣٩].

ومن بواكير نشاطه السياسي المعارض للسلطان عبد الحميد الثاني، بعد هجرته إلى مصر، مساهمته في تأسيس وإدارة جمعية عثمانية سرية، في القاهرة هي جمعية الشورى العثمانية التي تأسست سنة ١٩٠٥.

وقد توثقت علاقاته مع رجالات المعارضة التركية، أثناء عبورهم بمصر، أو زيارتهم لها، أو هجرتهم إليها. وكان من أبرزهم البرنس صباح الدين المدافع الأول عن فكرة اللامركزية في الدولة. وقد حدث انسجام فكري بينهما. مما دفع رفيق إلى المساهمة مع ابن عمه حقي العظم في تأسيس فرع لجمعية التشبث الشخصي واللامركزية الإدارية في دمشق سنة ١٩٠٦[٣٤٠].

وظل رفيق على وفائه للمعارضة العثمانية، يشارك في أنشطتها وفعالياتها السياسية. واستمرت معارضته للسلطان عبد الحميد في التجذر والرسوخ، حتى جاء انقلاب جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨، فكان في مقدمة المؤيدين له.

ولما قامت الثورة المضادة للاتحاديين في ربيع ١٩٠٩، (الثورة الارتجاعية) المؤيدة للسلطان عبد الحميد والمنادية بحكم الشريعة، حققت بعض النجاح في أيامها الأولى لكن كان مصيرها الفشل. وانتهت بعزل السلطان عبد الحميد الثاني وتنصيب ولي عهده سلطاناً باسم محمد رشاد الخامس[٣٤١]. كان موقف رفيق واضحاً كل الوضوح في

---

(٣٣٩) محمد سعيد لبابي، رفيق العظم. التمدن الإسلامي، م٢، ج ٣ – ٤، ص ٥٨٧.

(٣٤٠) برو، العرب والترك ص٥٥، د سهيلة الريماوي. مفهوم اللامركزية. دراسات تاريخية. العددان ١٣ + ١٤، ١٩٨٣، ص ١٤٣؛ وانظر : A. L. TIBAWI, A modern History of Syria, including Lebanon and Palestine. London : Macmillan, 1969, P. 199. وانظر د عبد العزيز الدوري. التكوين التاريخي، ص ١٩٥.

(٣٤١) د عبد العزيز عوض. الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٤٨؛ د. تاج السر أحمد حران. تطور الفكر القومي العربي من خلال العلاقات العربية – التركية في الفترة ١٩٠٨ – ١٩١٤، المعهد العربي للأبحاث والدراسات. بغداد، ١٩٨٣، ص ٢٥ – ٢٦.

مهاجمة هذه الثورة التي قادها بوليه "حزب التقهقر". واستنكر خوفهم على الشريعة في عهد الاتحاديين، ورأى بأنه لم يحدث أي انتقاص من مكانة الشريعة، وأن الشيء الوحيد الذي حدث هو نقل السلطة من يد الفرد إلى أيدي الجماعات، التي طبقت القانون الأساسي على أصول الشرع الإسلامي"(٣٤٢).

وحتى بعد عزل السلطان، ظل رفيق يتحدث عن السلطان المخلوع الذي شمل بظلمه المسلمين والمسيحيين والترك والعرب على السواء. وحارب الأحرار من كل الجنسيات(٣٤٣).

ويتضح مما سبق أن رفيق أيد السلطان عبد الحميد الثاني في بداية حياته الفكرية والسياسية، ثم لما بلغ مرحلة النضوج الفكري والسياسي، بدأت تتبلور لديه أفكار ومبادئ تتعلق بطبيعة الحكم وحدود السلطة ونوعيتها، مما جعله يتحول إلى صفوف المعارضة لسياسة السلطان عبد الحميد.

---

(٣٤٢) انظر : توفيق علي برو، العرب والترك ص ١٢١ – ١٢٢. مأخوذ من مقالة لرفيق نشرت في الأهرام، ع (٩٥٤٣) بتاريخ ٢٣/ ٤/ ١٩٠٩.

(٣٤٣) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، في : مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص ١١٨، ١٢٠ – ١٢١ .

٢- موقفه من سياسة حكومة الاتحاد والترقي :

أ- تأييد سياسة الاتحاديين :

تبدأ الحقبة الاتحادية بحدث هام وهو الانقلاب العسكري بتاريخ ٢٤ تموز ١٩٠٨، الذي تمخض عن إجبار السلطان عبد الحميد على إعلان العمل بالدستور (المشروطية)، وتبع ذلك صدور الإرادة السلطانية بإعادة مجلس المبعوثان وصدور الأوامر عن الباب العالي بإجراء انتخابات نيابية[٣٤٤].

كان رفيق في مقدمة المحتفلين بهذا الحدث، وسماه اليوم السعيد على هذه الأمة التي علقت الآمال الكبيرة على جمعية الاتحاد والترقي، ووصف مشاعر الفرح والسرور التي كان يلمسها في مصر وسوريا بعد إعلان الدستور[٣٤٥].

وبعد يوم واحد من صدور الإرادة السلطانية بإعادة مجلس المبعوثان وإجراء الانتخابات، اجتمع عدد كبير من العثمانيين في دار رفيق العظم في القاهرة للتباحث في مستجدات الأحداث والترتيب لاحتفال يليق بالحدث الكبير. وقرر المجتمعون إرسال برقية تهنئة إلى الأمير صباح الدين في باريس لشكره على جهوده ورجاءه تبليغ الشكر والتهنئة لقادة الجيش الذين قاموا بالثورة، وإلى الصدر الأعظم، في حين رفض بعضهم إرسال برقية شكر إلى السلطان عبد الحميد فالتزم الجميع بذلك. وقرروا إقامة احتفال عام في حديقة الأزبكية[٣٤٦].

وبعد فترة وجيزة من حدوث انقلاب الاتحاديين انخدع الكثيرون من العرب بشعاراتهم وبرامجهم فانتسب عدد من الزعماء العرب لجمعية الاتحاد والترقي، من بينهم رفيق العظم وحقي العظم ومحسن السعدون وياسين الهاشمي، وطالب النقيب

---

(٣٤٤) أنطونيوس، يقظة العرب، ص ١٧٥ .

(٣٤٥) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

(٣٤٦) محمد رشيد رضا، مختارات من مجلة المنار، تقديم ودراسة وجيه كوثراني، بيروت : دار الطليعة، ١٩٨٠، ص ١٣١ – ١٣٢.

وعزيز علي المصري، وعبد الرحمن الشهبندر، وسليم الجزائري، وعدد كبير من الضباط والسياسيين والموظفين في سورية والعراق[347].

وعندما جرت الانتخابات سنة ١٩٠٨، أصرّ على عدم ترشيح نفسه اعترافاً بعجز الصحة عن القيام بمثل هذه المهمة، ودعا الأمة السورية إلى إظهار إخلاصها للدستور واستعدادها للرقي، وأهاب بالأهلي أن يؤازروا الأحرار العثمانيين الذين تحملوا الشقاء والتعذيب وتعرضوا للأخطار في سبيل حرية الأمة والحصول على الحكومة الشوروية[348].

واتضح منذ البداية أن ما يربطه بالاتحاديين هو درجة إخلاصهم للدستور، والتزامهم بالعمل السياسي ضمن الضوابط والمحددات التي يفرضها الدستور، وأكد على أن الدستور هو الحكم، والفيصل بين الحكومة والشعب، وعدّ التمسك به أو التخلي عنه هو المعيار الحقيقي لقياس مستقبل الدولة، وبيّن أن أي تهديد للدستور وللحكومة الشوروية لن يكون سبباً في عودة الحكم الاستبدادي والرجوع إلى الماضي بل سيكون سبباً في القضاء على حياة الدولة وتمزيقها واستعباد الترب للعثمانيين[349].

ولم يتوانى عن دعوة القادة العسكريين الذين قادوا الثورة إلى الابتعاد عن العمل السياسي فواجبهم ينحصر في المحافظة على الأمن والاستقرار وحماية الدستور[350]. وهذه الدعوة الجريئة في مثل تلك الفترة التي كان الاتحاديون خلالها يتمتعون بشعبية كبيرة وفي أيديهم كل مقدرات الحكم والسلطة تعتبر دعوة جريئة ومخلصة. وتكشف عن رؤية

(٣٤٧) برو، العرب والترك، ص ٨٤؛ د. محمود حسن صالح منسي، تاريخ الشرق العربي الحديث، دار الوزانات للطباعة والنشر، بلا تاريخ أو طبعة، ص ١٣٠.

(٣٤٨) رفيق العظم، الانتخابات، جريدة (الاتحاد العثماني)، العدد (٢٥)، ٢٠ تشرين أول سنة ١٩٠٨، ص ١ – ٢.

(٣٤٩) رفيق العظم، ماذا يجب علينا اليوم، الاتحاد العثماني، العدد (٤٠)، ١٠ تشرين الثاني ١٩٠٨، ص ١ – ٢.

(٣٥٠) رفيق العظم، خاطرات نيتزي أو صحيفة من تاريخ الانقلاب العثماني، الاتحاد العثماني، العدد (١٣٨)، ٧ آذار ١٩٠٩، ص ٤.

سياسية متحضّرة وعن فهم عميق لطبيعة العسكر المتناقضة مع مبادئ وأسس الحكم الدستوري الصحيح.

وتأتي زيارته إلى سورية في أوائل ١٩٠٩، لتؤكد على متانة العلاقة مع الاتحاديين فقد جرى له استقبال حافل في دمشق، شارك فيه كبار موظفي الحكومة، وضباط الجيش، وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وأعيان دمشق والجنود والأهلي.

وخلال هذه الزيارة قام بنشاط سياسي واسع لدعم الحكومة الاتحادية، والتبشير بمستقبل أفضل للدولة والأمة في ظل الحرية. وتجوّل في ربوع سورية فزار بيروت ودمشق وحمص وحماة وغيرها. ولمس خلال هذه الزيارة مدى فرحة الأهلي بإعلان الدستور(٣٥١).

وبما أن الانخداع بالاتحاديين لم يدم طويلاً، أو أن قدرتهم على التظاهر والخداع بدأت بالتلاشي، وأخذت منطلقاتهم الفكرية والسياسية تبدو واضحة أمام الناس، فإن التململ ظهر في صفوف العرب وبدأوا بالتساؤل عن حقيقة شعارات (حرية، إخاء، مساواة)، التي أخذت تسحقها سياسات العساكر الاتحاديين القومية، مما أثار مخاوف حقيقية لدى العرب(٣٥٢).

ورفض رفيق في البداية ما يدور من حديث حول "مسألة الترك والعرب" ونفى الإشاعات حول تطرف بعض أعضاء الاتحاد والترقي، وكرههم للأمة العربية، وإظهارهم القومية التركية، وتسلطهم على الحكم دون غيرهم من العناصر العثمانية، وإقالتهم الموظفين العرب، وإحلالهم الترك مكانهم، واعتبر هذه مجرد ظنون لم تبلغ مبلغ الحقيقة، وحكم لم يأن بعد أن يُسجل على إخواننا الترك. مع اعتقاده بإمكانية نسبة هذه التصرفات لبعض أفرادهم(٣٥٣).

---

(٣٥١) محمد سعيد الباني، رفيق العظم، مجلة التمدن الإسلامي، م٢٦، ج ٢٥ – ٢٨، ص ٥٨٧ – ٥٨٨؛ رفيق العظم، الجامعة العثمانية والعصبية التركية، في : مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص ١٢٩ .

(٣٥٢) د. زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، مع دراسة في العلاقات العربية التركية، بيروت : دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٢، ص ٨٦ – ٨٧؛ أنيس صايغ، تطور المفهوم القومي عند العرب، الطبعة الأولى، بيروت : دار الطليعة، ١٩٦١، ص ٦٦ .

(٣٥٣) رفيق العظم، العرب والترك جريدة الاتحاد العثماني، العدد (١٥٠)، ٢٠ آذار ١٩٠٩، ص ٢ .

ونفى سعيهم إلى فرض التتريك، واعتبر هذه التخوفات ناجمة عن سوء فهم ليس إلا، وطلب نبذ العصبية الجنسية مع إيمانه بأن تشيع كل إنسان لجنسيته أمر طبيعي، وناشد العرب بعدم التسرع في إصدار الحكم على مقاصد الأمة التركية الكريمة بغلو بعض المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقي في الانحياز إلى الترك وحذر العرب من الرد على هؤلاء الغلاة بالدعوة إلى القومية العربية، واعتبر أن الحل يتمثل في التعاون مع أحرار الترك[٢٥٤].

ولعل موقفه من تأسيس جمعية الإخاء العربي العثماني[٢٥٥] تعتبر من أقوى الأدلة على حرصه على علاقات طيبة مع الاتحاديين وبعيدة عن الشكوك والمنغصات. فقد رأى بأن تأسيسها قد يضر بالانسجام مع الاتحاديين ويسبّب التشويش على جمعية الاتحاد والترقي بكثرة الجمعيات التي تؤلفها العناصر المختلفة. ويقول في هذا الصدد: أنا وكل الذين يؤيدون جمعية الاتحاد والترقي من العرب، لم تنظر بعين الرضا إلى تعجل أبناء العناصر في الأستانة في تأسيس الجمعيات، مهما كان نوعها، بسبب أن جمعية الاتحاد والترقي كانت لم تتم مهمتها بعد على وجه ثابت القواعد[٢٥٦]. وكتب إلى ابن عمه شفيق المؤيد العظم (أحد المؤسسين) يلومه وزملائه لوماً شديداً على تعجلهم في هذا الأمر لا سوء ظن بهم، بل خشية أن تشوش كثرة هذه الجمعيات على جمعية الاتحاد والترقي، ويخبرنا رفيق بأن جواب شفيق المؤيد كان بأنهم لم يفعلوا ذلك إلا اقتداءً بباقي

---

(٢٥٤) م.ن، ص ٢.

(٢٥٥) أسسها في الأستانة سنة ١٩٠٩ عدد من المبعوثين (النواب) والطلاب ومن أبرزهم عارف المارديني، شكري الأيوبي، الأمير علي الدين الجزائري، مسعود الكواكبي، وندرة مطران، وشفيق المؤيد العظم. وفي أعقاب الثورة الارتجاعية في ١٣ نيسان ١٩٠٩ أقدم الاتحاديون على إغلاق الجمعية بحجة تأييد بعض أعضائها للثورة الارتجاعية. انظر: د. محمود منسي، تاريخ الشرق العربي الحديث، دار الوزارات للطباعة والنشر، بلا ت، ص ١٢٢؛ وانظر: د. منير مشابك موسى، الفكر العربي في العصر الحديث، بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر، ١٩٧٣، ص ١٩٨ – ١٩٩.
وانظر: حول تأسيس هذه الجمعية وآثاره: G. Ernest Dawn, The Rise of Arabism in Syria, M.E.J., v. 16, No. 2, Spring 1962. p. 146.

(٢٥٦) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٢٠.

العناصر التي ألّفت الجمعيات وافتتحت المنتديات، وأنهم يعدون بضم الجمعية إلى جمعية الاتحاد والترقي بلا أدنى تردد[٣٥٧].

وجاء قرار الاتحاديين بحل هذه الجمعية، ليعتبر أول هزّة في العلاقات بين العرب والاتحاديين. كما اعتبر مؤشراً قوياً، على حقيقة نواياهم نحو العرب. وقد علّق العظم فيما بعد على هذا القرار فاعتبره دليلاً على سوء الظن؛ لأنهم ناهضوا الجمعيات العربية دون غيرها[٣٥٨].

وبعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني في ٢٧ نيسان ١٩٠٩، قام رفيق في صيف هذه السنة بزيارة إلى الأستانة. ليقف على حقيقة ما يقال عن تصرفات الاتحاديين وليسعى إلى إزالة أسباب سوء التفاهم إذا كان في الإمكان إزالتها. وليتأكد مما يشاع حول مواقف الاتحاديين من العرب، من خلال إجراء حوارات نافعة وصريحة مع قادة الاتحاد والترقي. والتقى فعلاً مع رئيس مجلس المبعوثان أحمد رضا بك، وغيره من قيادات الاتحاديين. واهتم خلال أحاديثه معهم، بالبحث عن سبل كفيلة بتجاوز الأخطاء ومعالجتها. وأكد للاتحاديين إخلاص العرب للدولة، ونقل مخاوف العرب وملاحظتهم، التي تعرّف عليها جيداً، من الزعماء العرب في الأستانة[٣٥٩].

وزيادة في حرصه على صيغة العلاقات بين العرب والاتحاديين من كل سوء، كتب مقالة دعا فيها للتآليف بين العنصرين؛ لكن صحف الأستانة رفضت نشرها.

وقبل مغادرته العاصمة طلب إلى صديقه الدكتور حسين أفندي حيدر، وهو أحد السوريين المؤيدين لعلاقات جيدة مع الاتحاديين، أن يقوم بتنظيم لقاء بين بعض أركان الاتحاديين في الأستانة، وبين بعض وجوه العرب فيها، عساهم يتمكنوا بعد تبادل الرأي ومعرفة أسباب الشكوى، من إزالة هذه الأسباب وإحلال الوفاق؛ لكن الدكتور حسين لم ينجح في عقد اللقاء؛ لبروز الفرق الواضح بين أفكار الجانبين[٣٦٠].

---

(٣٥٧) ن.م، ص ١٣١ .

(٣٥٨) ن.م، ص ١٢٩ – ١٣٠ .

(٣٥٩) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٣١ – ١٣٢ .

(٣٦٠) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٣٢ – ١٣٣ .

وقبل سفره إلى الأستانة كانت قد صدرت دعوة عن جمعية الجامعة السورية، التي أسسها لحلة باشا المطران ورشيد المطران في باريس، تنادي باستقلال سورية، فسارع رفيق إلى استنكار صدور هذه الدعوة، وفي مثل هذه الفترة التي يواجه فيها الاتحاديون ظروفاً صعبة، وبعد سقوط دولة الجبارين وفرار عميد رهط الظلم والاستبداد وعماد الخريون واتهم أصحاب هذه الدعوة بأنهم يبذرون بذور التفريق بين الأمة العثمانية التي كانت أحوج في غضون ذلك الانقلاب العظيم إلى مواس حكيم ومؤلف رحيم[٣٦١]. ونلاحظ أن رفيق يبالغ كثيراً في مهاجمة السلطان عبد الحميد وبشكل غريب على أخلاقه وسلوكه السياسي المعتدل.

ب- معارضة سياسة الاتحاديين :

لقد لعبت مجموعة من الظروف والعوامل، دورها في دفع العلاقات العربية التركية، نحو الهاوية، وكانت البداية مع الانقلاب المضاد (الحركة الارتجاعية) في آذار ١٩٠٩، فقد تصاعدت سياسات التشدد القومي التركي الصرف، وظهرت حقيقة نوايا الاتحاديين نحو العناصر الأخرى وبخاصة العرب[٣٦٢]. وشهدت ساحات عديدة الكثير من الظواهر السلبية التي زادت في حدة الخلاف بين الطرفين كان في مقدمتها الساحة الصحفية، فقد لعبت الصحافة دورها في الإثارة[٣٦٣]. كما شهدت الساحة النيابية العديد من المعارك

(٣٦١) رفيق العظم، ما هذه النزعات الفاسدة، الاتحاد العثماني، العدد (١٠١)، ٢٣ كانون الثاني، ١٩٠٩، ص ١ .

(٣٦٢) حول تأثير هذه الحادثة في سياسة جمعية الاتحاد والترقي، انظر : توفيق برو، العرب والترك ص ١٣١ – ١٣٦ .

(٣٦٣) لعبت الصحافة دورها في إفساد العلاقات بين العرب والترك فقد سعت الصحف التركية إلى تعزيز المفاهيم القومية التركية والسخرية من القوميات الأخرى، والإساءة إليها. وكان من أشهر الأمثلة، تهجم جريدة اقدام في شباط ١٩١٠، على عرب اليمن، وتهامهم بعبادة المال والتضحية بكل شيء حتى بالأعراض في سبيله، مما أثار ردة فعل قوية بين العرب في الأستانة. وفي الجانب الآخر ساهمت الصحافة العربية في الرد على الصحافة التركية، وبالتالي في توسيع شقة الخلاف. انظر : أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٥؛ برو، العرب والترك، ص ١٤٤ – ١٤٥ .

الحفية، بين المبعوثين العرب والاتحاديين[٣٦٤]، إضافة إلى ما ثار من خلافات حول مسائل اللغة العربية والتعليم وإسهام العرب في إدارة الدولة ووظائفها[٣٦٥].

الحقيقة أن ما كان يجري في الخفاء أصبح في بداية سنة ١٩١٠ يمارس في العلن، وأخذت عوامل الفرقة والخلاف تتزايد ولا يستطيع أحد إنكارها أو تجاهلها. مما دفع رفيق العظم إلى إعادة النظر، في طبيعة موقفه من الاتحاديين. وأخذ يتأكد شيئاً فشيئاً من سوء نواياهم وفساد سياستهم. وهنا تبدأ مرحلة جديدة في حياته السياسية، نفض فيها يديه من جمعية الاتحاد والترقي، واتخذ له موقعاً متقدماً في صفوف المعارضة العثمانية لسياسات الاتحاديين. ومنذ بداية ١٩١٠ أخذ رفيق ينتقد بشكل صريح سياسة الحكومة الاتحادية، لأن قناعاته تعززت بما لا يدع مجالاً للشك، بأن تصرفاتهم لا يمكن تصنيفها في باب "سوء الفهم" فقد أخذت بعداً قومياً عنصرياً واضحاً.

وعندما ثارت مسألة الاتهام بالتجسس بين بعض النواب العرب والاتحاديين، وخاصة تهديد جريدة "طنين" لمبعوث دمشق شفيق بك المؤيد العظم، بكشف تقارير، تثبت تجسسه لصالح السلطان عبد الحميد بسبب غضبهم من مناقشته لميزانية الدولة مناقشة جريئة معززة بالأرقام؛ فراحت جرائد الاتحاديين تتهمه "بتهمة الارتجاع والتجسس في الدور الماضي بدلاً من أن تقارع برهانه ببرهان مثله".

انتقد رفيق تصرفات الاتحاديين هذه، وخاصة تهديدهم بنشر تقارير النواب وإعلانها للملأ على صفحات الجرائد. وعدّ هذا شروع في فتح باب الفتنة والتنافر، وتشهير لا ترتضيه الأخلاق، ومنافي للدستور والحرية، وعبّر صراحة عن خوفه على الدستور والحرية "إن الدستور الذي يُخشى عليه، من كلمة انتقاد من فلان أو فلان يوجه إلى

(٣٦٤) كان للنواب العرب صولات وجولات مع الاتحاديين في مجلس المبعوثان. وكان لحادثة العراك بين مبعوث دمشق شفيق المؤيد وطلعت بك ناظر الداخلية، دورها في تأجيج حدة الخلافات بين العرب والاتحاديين. انظر أوراق نزيه المؤيد العظم، مركز الوثائق التاريخية (دمشق)، إضبارة رقم (٤٨)، الوثيقة رقم ١/١ ص ٢؛ برو، ت.م، ص ٢٣٧ .

(٣٦٥) أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء القومية، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة خاصة. ١٩٨٥؛ ص ١٢٢ – ١٢٧؛ د محمد عبد الرحمن برج، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤، ص ١٢٧ – ١٢٨؛ TIBAWI, p. 202 .

الحكومة، ويقضي بتهديد صاحب الكلمة، بإرغامه على السكوت بالتهديد والوعيد ليس بدستور، والحرية التي يحوطها حرية لن تزول[٣٦٦].

ولما حصلت الأحداث في حوران والكرك سنة ١٩١٠، استنكر رفيق سياسة الحكومة في التعامل مع هذه الأحداث، وغضب من معالجة جريدة طنين لهذه الأحداث، ومع ذلك ظل حريصاً على وحدة الدولة وسلامتها فأهاب بالأهالي أن يخضعوا لأوامر الدولة، ويقدموا لها الجنود، وطالب الحكومة إيلاء هذه المناطق بعض الرعاية والاهتمام، واستصلاح الأراضي الزراعية فيها، وتقديم مساعدات مالية لتطوير الزراعة في حوران والكرك وفي هذا مصلحة للدولة لأنها ستحصل على مبلغ طائلة من المال، وأعداد كبيرة من الرجال من أشجع الجنود. ولم يفوته التأكيد على إخلاص العرب للدولة، ورغبتهم في أن يكون الجميع شركاء في بنائها. وأكد على ضرورة إزالة هذه الخلافات ومعالجة أسبابها[٣٦٧].

وبقي رفيق مخلصاً لعلاقات جيدة مع الترك في إطار الرابطة العثمانية، وهذا كان يدفعه إلى انتقاد كل السياسات التي تسيء للرابطة بين العرب والترك وجميع العناصر العثمانية. وراح يصدع باحتجاجه على سياسة الحكومة الاتحادية بكل قوة ودون تردد أو مجاملة. وفي أواخر سنة ١٩١٠، تحدث رفيق في حفل أقيم في القاهرة وداعاً للنائب سليمان البستاني، لأول مرة بصورة علنية عن مساوئ الاتحاديين داعياً إلى الصراحة في بحث كل ما يعتمل داخل النفوس أمام نائب الأمة ليقوم بواجبه في البحث عن حلول لمشاكل العرب التي بدأت تتفاقم وألحى باللائمة على بعض أفراد الاتحاديين في هضم

---

(٣٦٦) رفيق العظم، "أحرفوا تقارير الجواسيس"، الاتحاد العثماني، بيروت، ٢٥ أيار، ١٩١٠، ص ١ .

(٣٦٧) انظر، رفيق العظم، "سوء التفاهم بين العرب والترك"، النبراس، م٢، ج٢، ٢٥/ ١٠/ ١٩١٠، ص ٢٢٤، وانظر، رفيق العظم، "موعظة وذكرى للحورانيين"، جريدة المقتبس، العدد (٥٢٤)، ٢٦ تشرين ثاني ١٩١٠، ص ١ . وحول أحداث حوران والكرك، انظر : برو، العرب والترك ص ١٨٦ – ١٩٤؛ د. علي سلطان، تاريخ سورية ١٩٠٨ – ١٩١٨، ص ١١١ – ١١٨، وانظر دراسة حول أحداث الكرك، للدكتور سعد أبو دية بعنوان "العلاقات العربية العثمانية: ثورة الكرك عام ١٩١٠ الظروف السياسية". في مجلة دراسات تاريخية، السنة الحادية عشرة، العددان (٣٧ ، ٣٨)، أيلول، كانون أول، ١٩٩٠، ص ١٢٥ – ١٤٨ .

حقوق العرب وليس على الأمة التركية المحبة للعرب والمجلّة لهم. ولم يتردد في توجيه تحذير إلى هؤلاء بأن لا يخدعهم صبر العرب، وأن الدولة لن تقوم بالترك وحدهم كما أن العرب لا يستطيعون حفظ بلادهم بدون الترك وخلص إلى ان مصلحة الجميع في حماية الدولة. وأشار إلى حق العرب في الحصول على حقوق متساوية مع غيرهم في إطار الهوية العثمانية، وحقهم في احترام لغتهم وجعلها لغة التدريس في مدارس العرب، وأسفهم لسياسة إبعادهم عن المناصب، وطلب حضرة المبعوث ان يبذل كل جهوده في سبيل إزالة الخلافات[368].

وفي سنة ١٩١١ كتب تحليلاً لأسباب الخلاف بين العرب والاتحاديين، وعدد أسباباً وعوامل كثيرة، أدت إلى هذه النتيجة منها: إتهام الاتحاديين للعرب بالسعي لإقامة الخلافة العربية، وهذا ما نفاه رفيق جملة وتفصيلاً[369]، ومن الأسباب سوء سياسات الاتحاديين المتمثلة في استخدام العنف والشدة مع الشعوب الأخرى، وتوريط الدولة في الديون[370]، ولجوئهم إلى سياسة التمييز والعزل ضد العرب، بإقصاء الموظفين العرب عن مراكزهم خاصة في وزارتي الخارجية والداخلية بحكم قانون التنسيق ووضع حرف (ع) أمام كل موظف عربي لتعرف جنسيته ويتم التخلص منه، واستبعادهم العرب من اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي في سلانيك، وعدم إشراكهم العرب في المذكرات السياسية لأعضاء الحزب، وعدم إدخالهم العرب في اللجان المركزية للجمعية، وصبغ الجمعية بالصبغة التركية في جميع الفروع، وعدم إشراك العرب في الحوارات والاجتماعات الهادفة إلى التأليف بين العناصر، وإقدامهم على نزع وزارة الأوقاف من العرب بإقالة الوزير الشريف حيدر بك، وإسنادها لتركي فلم يبقَ أي وزير عربي، مع

(٣٦٨) رفيق العظم، سوء التفاهم بين العرب والترك يجب ان يزال، مجلة النبراس، م٢، ج٨، ٢٥/١٠/١٩١٠، ص ٣٢٣ – ٣٢٤. وانظر أيضاً : المفيد، العدد (٥١٩)، ١٧ تشرين اول، ١٩١٠، ص ٢، وانظر : طنين العدد (٦١٩٠)، ١١ اكتوبر، ١٩١٠، ص ٥ .

(٣٦٩) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص ١٢٢ .

(٣٧٠) رفيق العظم، ن.م، ص ١٢٥ .

أن العرب يشكلون ثلث السكان. واستبدال المتصرفين والولاة العرب بآخرين من الترك[371].

إضافة إلى مقاومتهم للجمعيات العربية الأدبية والخيرية، التي سمح بها القانون وإصرارهم على دمجها في جمعية الاتحاد كما حدث لجمعية النهضة السورية الأدبية وغيرها[372]. وإهمالهم للتعليم ونشر المعارف في البلاد العربية، بل عرقلتهم لجهود الأهالي في هذا الصدد مع إدراكهم لحاجة مسلمي سوريا، لمدارس خاصة بهم، تبعدهم عن مدارس الطوائف غير الإسلامية المدعومة من المؤسسات التبشيرية. وهذا يزيد في إضعاف المسلمين، ويسبب لهم التخلف العلمي والاضمحلال. وكذلك محاربتهم اللغة العربية مع أنها لغة الإسلام دين الدولة الرسمي[373].

جاء احتلال إيطاليا لولاية طرابلس الغرب، ليزيد من مخاوف العرب من المستقبل، الذي ينتظرهم في ظل تدهور أحوال الدولة، مقابل تزايد الأطماع الأجنبية في ولاياتها. وهذا لم يمنع العرب من التعاطف الشديد مع الدولة، والتنادي لبذل كل ما يمكن

---

(371) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص 123 .

(372) جمعية النهضة السورية، تقدم محب الدين الخطيب ومجموعة من شباب دمشق، لتأسيس جمعية باسم جمعية النهضة العربية في أعقاب إعلان الدستور، لكن الترخيص صدر باسم جمعية النهضة السورية؛ لأن كلمة عربية غير مقبولة. انظر : محب الدين الخطيب، الجيل الذي عاصر بعث العروبة، ص 12. وقد اندمجت الجمعية أخيراً مع جمعية الاتحاد والترقي، في تشرين الثاني 1909، انظر، العصر الجديد، العدد (94)، 22 تشرين الثاني 1909 .

(373) رفيق العظم، الجامعة العثمانية، ص 134 – 135؛ ومن مؤشرات اهتمام رفيق في هذه المرحلة بالثقافة العربية والتعليم في البلاد العربية، تأييده الكبير للمنتدى الأدبي الذي تأسس سنة 1909، في الأستانة وعندما طرح رئيسه عبد الكريم الخليل سنة 1911، مشروعاً لتطوير التعليم في الولايات العربية، والعمل على تأسيس المدارس الخاصة في الولايات العربية، وبكون التدريس باللغة العربية. كان رفيق في مقدمة المساندين للمشروع، وتألفت لجنة في مصر لدعم المشروع ضمته مع مجموعة من الشخصيات منهم : أحمد تيمور باشا، شبلي شميل، محمد الشريقي وغيرهم: انظر، برو، العرب والترك ص 217، أحمد حسون العلي، حركة الاستقلال العربي (1908 – 1919)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة المستنصرية، 1988، ص 62 .

لمساندتها في المجهود الحربي، وزادت قناعة العرب بسوء نظام الإدارة المركزية، الذي اعتبروه مسؤولاً عما جرى في ليبيا[٣٧٤].

ولما جرت الانتخابات النيابية استخدم الاتحاديون كل الوسائل الممكنة لتحقيق أغلبية لهم في المجلس الجديد وهذا ما حققوه بالترغيب والترهيب فخرج المجلس اتحادياً تقريباً[٣٧٥]. وخلال هذه الانتخابات كان رفيق يدعو أهالي سوريا إلى مناصرة مرشحي حزب الحرية والائتلاف ومناوئة مرشحي جمعية الاتحاد والترقي[٣٧٦]. وراح بعدها يلوم من كان مخدوعاً بالاتحاديين ومسانداً لهم، مع أنهم يتبعون سياسات رامية إلى التتريك والقضاء على العناصر الأخرى، والعمل على حكمها بالقهر والقوة، كالاستعمار الأوروبي وبما يخالف الدستور ويضر بالدولة[٣٧٧].

وأظهر رفيق التزاماً صادقاً بالدفاع عن الدولة العثمانية، والمحافظة على سلامتها إبان الحرب البلقانية، فقد أخذ يتجول في أنحاء مصر يدعو إلى مساندة الدولة وجمع التبرعات لدعم الجيوش العثمانية، التي تجاهد في مقدونيا من أجل الوطن والخلافة وحث الجميع على حماية "الوطن العثماني" والدفاع عنه في وجه أوروبا الطامعة، التي تحركها الأحقاد والرغبة في تقليص ظل الإسلام من أوروبا. ورأى بأن كل المسلمين مطالبون بتشكيل كتلة واحدة، وكلهم مكلفون بالذود عن حياض الخلافة[٣٧٨].

---

(٣٧٤) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر من قيام الحرب العالمية الأولى إلى قيام الجامعة العربية، الطبعة السادسة، جزءان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣، ج١، ص ٥١، برو، العرب والترك ص ٣٠٥–٣٠٦.

(٣٧٥) انظر حول ممارسات الاتحاديين خلال هذه الانتخابات، حقي العظم، حقائق عن الانتخابات النيابية في العراق وفلسطين وسورية، القاهرة: مطبعة الأخبار، ١٩١٢، ص ٩ – ١٥.

(٣٧٦) رفيق العظم، "الانتخابات"، المؤيد، ٦ آذار ١٩١٢.

(٣٧٧) رفيق العظم، "غضب العثمانيين لدولتهم"، جريدة المؤيد، ع (٦٨٠٩)، ٢٢ أكتوبر ١٩١٢، وانظر، رفيق العظم، "خطبة في الحرب البلقانية"، المؤيد، ٩ نوفمبر ١٩١٢.

(٣٧٨) رفيق العظم، "سؤال أوجهه إلى أبناء وطني"، جريدة المقتبس، ع (٩٩١)، ١٨ أيلول ١٩١٢، ص ١؛ وانظر: رفيق العظم: "الأمور تقدر بنتائجها فلا تعجلوا بحكمكم"، جريدة المقتبس، ع (١١٠٧)، ٤ شباط ١٩١٣، ص ١.

ثانياً : نشاطه السياسي في الجمعيات والأحزاب السياسية العربية :

١- جمعية الشورى العثمانية :

ساهم رفيق في تأسيس جمعية في القاهرة سميت جمعية الشورى العثمانية، (The Ottoman Consultative)، سنة ١٩٠٥، نص قانونها الأساسي على علنيتها، لكنها بقيت سرية. وقد وردت أول إشارة دالة على وجودها سنة ١٩٠٦، في مجلة المنار لصاحبها محمد رشيد رضا رئيس الجمعية، وقد شغل رفيق منصب نائب الرئيس، وكان من أعضائها حقي العظم، والدكتور شبلي شميل، هذا من العرب. أما من الترك فقد شارك فيها الضابط صائب بك (سكرتير المعتمد العثماني في مصر)، والدكتور عبد الله جودت بك، أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي. وشارك فيها عناصر أخرى من الجركس والأرمن. وهذا يشير إلى أنها جمعية عثمانية مفتوحة أمام جميع العثمانيين دون اعتبار لدينهم أو جنسهم. وهي تسعى لتحقيق مبادئها بالوسائل المشروعة[٣٧٩].

دعت هذه الجمعية إلى صيانة الرابطة العثمانية، والمحافظة عليها قوية سليمة، ودعت إلى إصلاح الدولة العثمانية، وتطبيق الشورى، ونبذ الحكم الاستبدادي الفردي، وإعادة العمل بالدستور العثماني[٣٨٠]. وأعلنت سعيها لنشر العدل والترقي في الامبراطورية بما يتوافق مع العصر[٣٨١].

ويقال بأن وصول أخبار هذه الجمعية إلى السلطان عبد الحميد أثار مخاوفه منها، وأطلق عليها اسم الجمعية الإفسادية، وطلب من معتمده في مصر، أحمد مختار باشا، أن يزوّده بأخبارها، وكل ما يتوفر لديه، من معلومات حولها. ولم يكن السلطان يعلم بصلات معتمده بهذه الجمعية منذ تأسيسها عندما استشاره رئيسها في ذلك. وكانت

---

(٣٧٩) محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق بك العظم، في مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص (هـ)؛ د. عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية، ص ٦٩؛ د. عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي، ص ١٦٦؛ د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات، مجلة دراسات تاريخية، العدد (٧)، كانون ٢، ١٩٨٢، ص ١٤١ – ١٤٣ .

(٣٨٠) د. الشوبكة، محمد رشيد رضا، ص ٢٢٢ .

(٣٨١) د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات، مجلة دراسات تاريخية، العدد (٧)، كانون الثاني، ١٩٨٢، ص ١٤١ – ١٤٣ .

ردود المعتمد إلى السلطان تحاول طمأنته وإقناعه بأنها مؤلفة من بعض أهل العلم وأبناء الأسر الوجيهة المخلصة للدولة[382].

لقد لعب رفيق دوراً هاماً في نشاطات الجمعية وتوسعها فقد تولى تحرير القسم العربي من جريدة الشورى العثمانية لسان حال الجمعية التي صدرت في شباط ١٩٠٧، في حين تولى حقي العظم تحرير القسم التركي منها، وقد استعاضت الجمعية بها عن المنشورات التي كانت ترسلها من مصر إلى داخل الدولة عبر البريد الأجنبي وعبر البواخر الروسية[383]، وبذل رفيق الكثير من ماله في سبيل دعم الجمعية واستمرار عملها[384].

وانتشرت فروع الجمعية، حتى بلغت أربعة عشر فرعاً داخل وخارج الدولة العثمانية[385]، وقد بذل رفيق جهوداً كبيرة في توسيع نشاطات الجمعية وافتتاح الفروع الجديدة منها مثلاً فرع اليمن الذي تولى محب الدين الخطيب تأسيسه بتكليف من رفيق العظم وكان لهذا الفرع دوراً في الوساطة بين الإمام يحيى والاتحاديين وتوقيع اتفاق بينهم، وقد شرع محب الدين في الوساطة بعد أن استأذن رفيق، وطلب منه إبداء الرأي فيما إذا كان الوقت ملائماً للشروع في هذه الوساطة[386].

كان لهذه الجمعية صلات وثيقة مع المعارضة العثمانية فقد جمعهم العمل من أجل عودة الحياة الدستورية ومعارضة سياسات السلطان عبد الحميد وزاد في متانة علاقة الجمعية مع المعارضين الترك انتساب عدد منهم لجمعية الشورى، وقد لعب رفيق دوراً هاماً في تنمية هذه العلاقات، حتى وصلت إلى مرحلة تفكير الاتحاديين في دمج جمعية الشورى بجمعيتهم، فجاء أحمد رضا بك أحد قادة الاتحاديين إلى القاهرة للتفاوض في هذا الشأن لكن لم تتم عملية الدمج، وبعد زيارة رفيق إلى الأستانة في صيف ١٩٠٩، عاد ليعلن انضمامه لجمعية الاتحاد والترقي، وبعدها بدأت جمعية الشورى تفقد الكثيرين من أعضائها حتى انحلت واختفت[387].

---

(٣٨٢) محمد رشيد رضا، رفيق العظم، في مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص (هـ).

(٣٨٣) محمد رشيد رضا، رفيق بك العظم، مجموعة آثار رفيق بك، ص (٩)؛ د. الشوبكة، م.ن، ص ٢٣٣؛ بيرو، العرب والترك، ص ٦٢.

(٣٨٤) محمد رشيد رضا، م.ن، ص (ز).

(٣٨٥) محب الدين الخطيب، ترجمة رفيق بك العظم، مجلة الزهراء، ص ٢٣٠؛ د. الشوبكة، م.ن، ص ٢٣٣.

(٣٨٦) محب الدين الخطيب، رفيق بك العظم، مجلة الزهراء، ص ٢٣٠.

(٣٨٧) محمد رشيد رضا، م.ن، ص (و – ز)؛ محب الدين الخطيب، الجيل الذي عاصر بعث العروبة، ص ١١؛ مجلة المجمع العربي بدمشق، م٥، ج١٢؛ ص ٥٦٢ (ترجمة لرفيق العظم).

٢- حزب اللامركزية الإدارية العثماني :

أ- التأسيس والأهداف والمبادئ :

ساهم رفيق العظم في تأسيس حزب اللامركزية الإدارية العثماني في ديسمبر ١٩١٢ في القاهرة وقد تولى رئاسة اللجنة العليا للحزب[٣٨٨]. وعلى الرغم من أنه حزب عثماني علني[٣٨٩] مفتوح أمام جميع العثمانيين إلا أنه لم ينضم إليه إلا العرب، وخاصة السوريين بغض النظر عن أديانهم فقد جمع بين المسلمين والمسيحيين[٣٩٠]، وعدد من اليهود[٣٩١] الذين وحّدهم – ظاهرياً – هدف مشترك وهو السعي لتحقيق اللامركزية الإدارية في الولايات العثمانية وبخاصة العربية منها.

لقد تحدث بيان الحزب عن أفضلية الحكم الدستوري على غيره من أشكال الحكم وأفضلية الدستوري اللامركزي على غيره من أشكال الحكم الدستوري خاصة في

---

(٣٨٨) تألفت اللجنة العليا من اسكندر عمون نائباً للرئيس، حقي العظم أميناً للسر، محب الدين الخطيب أميناً ثانٍ للسر، محمد رشيد رضا أميناً ثانٍ للسر، د. شبلي شميل عضو، سامي جريديني عضو، داوود بركات عضو. انظر : د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات، مجلة دراسات تاريخية، العددان، ١٥ ، ١٦ ، ص ١٧٤ – ١٧٥ .

(٣٨٩) حول النظام الأساسي للحزب المكوّن من ثلاث وثلاثين مادة تحدثت عن علنية وعثمانية الحزب، ومن محسنات الإدارة اللامركزية؛ انظر أمين محمد سعيد، الثورة العربية الكبرى، ثلاث مجلدات، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بلا ت، م١، ص ١٤ – ١٨ .

(٣٩٠) ومع أن الحزب استطاع تجميع طاقات هؤلاء جميعاً، لخدمة أهداف مشتركة، إلا أنه ظل يعاني من وجود محاور وتوجهات فكرية وسياسية مختلفة. كما أن الحزب ظل يتعرض لانتقادات من مسلمين يعيبون على الأعضاء المسلمين تعاونهم مع المسيحيين ضد دولة الخلافة. في حين تعرض الأعضاء المسيحيون إلى انتقادات من أبناء دينهم تتهمهم بالتبعية للمسلمين، الذين يريدون تسخيرهم لتحقيق أهداف خاصة بهم. حول هذا انظر : جريدة المؤيد العدد (٦٩٩٠)، ٢١ مايو ١٩١٣؛ الدليل، العدد (٥١٢)، ١١ آب ١٩١٣ ، ص ١؛ سليمان موسى، الحركة العربية، ص ٦٢ – ٦٣ .

(٣٩١) انضم للحزب عدد من اليهود من أبرزهم نسيم ملول، الذي عمل في فرع يافا. انظر، رسالة من نسيم ملول إلى رفيق العظم يشرح فيها جهوده في سبيل خدمة الحزب في فلسطين. وبطاقة شكر من قيادة الحزب لنسيم ملول مرفقاً بنشاطه وجهوده في خدمة حزب اللامركزية. د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني وصداه في الشرق، ص ٤٠٤ – ٤٠٥ .

الدول ذات التعددية العرقية والمذهبية واللغوية التي يصعب أن تُساس بقانون واحد واعتبر أن اللامركزية هي أفضل وسيلة لتربية الأفراد على الاستقلال وهي تجارب الحكم الفردي، وتقوم بتوزيع المسؤوليات على جميع أفراد الأمة. وقد تحدث البيان عن مساوئ الإدارة المركزية، وما نتج عنها من مشكلات وعيوب وما أدت إليه من ضعف الدولة، وعجزها عن حماية ولاياتها المعتمدة في كل شيء على المركز، مما جعل الدولة عُرضة لخطر الزوال كما أنها مُهدَدة بفقد الاستقلال وحدد البيان أهداف الحزب المتمثلة في تأمين سلامة الدولة من الفتن والمؤامرات الداخلية، والهزات الخارجية، الناتجة عن نزوع العناصر العثمانية، إلى الثورة وعدم ولائها للعرش العثماني ولتأمين حياة سياسية مستقرة للأمة العثمانية. فإن الحزب يطلب كل العثمانيين صادقي الوطنية، بالعمل على زيادة تماسك جسم الدولة، وتخليصه من خطر التفكك، بفعل الصراع، بين المركز والأطراف، لذا جاء تأسيس هذا الحزب، لضمان سلامة المملكة، ووحدة شعوبها واتفاقهم على العمل لصالح تقدمها وسعادتها وبقائها[٣٩٢].

أما برنامج الحزب فقد تحدث عن تصور الحزب للدولة العثمانية كدولة دستورية، إدارتها لامركزية، يتولى سلطانها تعيين الوالي وقاضي القضاة، وقاضي القضاة يعين القضاة. أما الوالي فيعين سائر الموظفين. ولكل ولاية مجلس عمومي منتخب ومجلس إداري ومجلس معارف، ومجلس أوقاف، ويتولى المجلس ميزانيتها، وينتخب موظفيها، ويشرف مجلس المعارف على التعليم في الولاية، على أن يكون التعليم بلغة أهل الولاية، في حين يشرف مجلس الأوقاف على الشؤون المتعلقة بالأوقاف، وتكون هذه المجالس جميعاً منتخبة، إلا المجلس الإداري فيكون نصف أعضائه بالانتخاب والنصف الآخر بالتعيين من رؤساء الدوائر الحكومية في الولاية. كما تحدث البرنامج عن ضرورة تعديل قانون الأراضي بما يكفل تنمية الثروة العامة، وتحضير البدو كما شدد على احترام اللغات الخاصة للولايات، بحيث يكون لكل ولاية لغتان رسميتان، التركية، وإلى جانبها

(٣٩٢) نظر بيان حزب اللامركزية، مجلة المنار، م١٦، ج٣، ص ٢٢٦ – ٢٢٩، ونظر : المؤيد، العدد (٦٩١٠)، ١٨ فبراير ١٩١٧، ص ٤، ولنظر اللاحق، ملحق رقم (٢).

اللغة المحلية، وتؤدى الخدمة العسكرية داخل الولاية في حالة السلم، أما في حالة الحرب فلوزارة الحرب تعيين المكان حسب المصلحة[393].

وقد عبّر النظام الداخلي للحزب عن إيمان عميق بالديموقراطية، التي تمنح القاعدة حق انتخاب ومراقبة ومحاسبة وعزل القيادة[394].

وجاء تأسيس الحزب في ظروف صعبة، ظهر خلالها مدى ضعف الدولة بعد الهزيمة التي لحقت بها في طرابلس الغرب، وبعد اشتعال الثورات والحرب في البلقان، وتزايد الحديث حول أطماع فرنسية ومصالح تاريخية لفرنسا في سورية، مما أثار مخاوف السوريين في مصر حول مستقبل بلادهم[395]، خاصة في ظل الشعور الذي أصاب الدولة العثمانية، والضعف الشديد الذي أحاط بها.

واستغل الزعماء السوريون في مصر الأجواء العامة المؤيدة لفكرة اللامركزية، بعد وصول الحرية ومراعاة المساواة، وقد حدث انفراج سياسي في الدولة أثناء فترة حكمه من ١٠/ ٧/ ١٩١٢ ولغاية ١٣/ ١/ ١٩١٣، وعمل الحزب خلالها على دعم التوجهات اللامركزية، مما سمح بقيام العديد من المجموعات والأحزاب المنادية باللامركزية، كان حزب اللامركزية الإدارية العثماني في طليعتها[396].

---

(٣٩٣) انظر، برنامج حزب اللامركزية. المنار، م١٦، ج٣، ٧ مارس، ١٩١٣، ص ٢٩ – ٢٣١؛ وانظر الملاحق، ملحق رقم (٣).

(٣٩٤) د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١٥ ، ١٦ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٣٩٥) أمين سعيد. الثورة العربية، م١، ص ١٤ .

(٣٩٦) نشر فكرة الحزب وإقناع عدد من العرب بدخوله، لكن تأسيس هذا الفرع تعثر لأسباب تتعلق بعدم جدية قيادة الحزب في العاصمة باعتماد هذا الفرع بشكل رسمي. انظر رسالة من رفيق العظم إلى أحد أصدقائه يتحدث فيها عن جهوده في هذا السبيل. مركز الوثائق التاريخية (دمشق)، القسم الخاص، الحركة العربية، الوثيقة رقم ١٣ – ١٤؛ ومنشور في كتاب إيضاحات عن المسائل التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي، مطبعة طنين، ١٣٣٤، الصورة رقم (١١)؛ د. سهيلة الريماوي. مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين ١٩٠٠ – ١٩١٨، مجلة دراسات تاريخية، العددان الثالث عشر والرابع عشر، تشرين أول، ١٩٨٣، ص ١٤٧ – ١٥٠ .

وتحدث رفيق عن الظروف والأسباب التي دفعت السوريين إلى هذا التحرك المتمثل في تأسيس حزب اللامركزية، فبيّن حالة التدهور، التي وصلت إليها الدولة؛ بسبب الإدارة المركزية المتشددة، وإهمال المركز للولايات. في ظل تزايد الأخطار حول سوريا، مما دفع برجال الإصلاح السوريين إلى البحث عن مخرج من هذه الأزمة، فكان إجماعهم على الفكرة اللامركزية، لأنها تعطي الولايات القوة والقدرة على حماية نفسها، وتزيد من توثيق الروابط بين الشعب السوري، وتسمح بتخليصه من التفكك والفرقة والجهل، والتقاطع بين طبقته، فصمموا على تخليص سوريا من الحكم المركزي، الذي منع أبناءها من الترقي الأدبي والاستقلال الشخصي والتضامن الوطني، ولم يخطر ببالهم – أي السوريين – التفكير بالانفصال عن الدولة[٣٩٧].

توسع حزب اللامركزية وانتشرت فروعه في أنحاء بلاد الشام، فتأسست له فروع في بعلبك وحلب وصيدا وبيروت ودمشق وغزة ويافا وغيرها داخل سوريا[٣٩٨].

ب- صدى دعوة اللامركزية في الولايات العربية :

لقيت الفكرة اللامركزية رواجاً واسعاً في البلاد العربية، وراحت أصداؤها تتردد في بلاد الشام والعراق، وتجسدت تلك الأصداء بظهور العديد من الجمعيات والمنتديات المنادية بفكرة اللامركزية والعاملة في سبيل تطبيقها في الولايات العربية.

كان في مقدمة هذه الجمعيات، جمعية بيروت الإصلاحية (الجمعية العمومية الإصلاحية) التي تأسست في الشهر الأول من سنة ١٩١٣، وتألفت من ٨٦ عضواً، جرى انتخابهم ويمثلون الطوائف كافة[٣٩٩].

---

(٣٩٧) رفيق العظم، أسباب الحركة السورية ونتائجها، جريدة المقطم، ع (٦٣)، ٧/٥/١٩١٣، ص ٤ . ويرى الشيخ رشيد رضا بأن الحرص على بقاء الدولة، والانتماء للرابطة العثمانية، كان هو رأي غالبية أعضاء الحزب، مع وجود توجهات أخرى حاولت الانحراف به عن أهدافه ومبادئه. لكنها فشلت. انظر، محمد رشيد رضا، رفيق بك العظم، مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص (ج) .

(٣٩٨) د. الشوابكة، محمد رشيد رضا، ص ٢٣٥؛ سهيلة الريماوي، أوراق محب الدين الخطيب، في بحوث في التاريخ مهداة إلى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة : مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٦، ص ١١٣ – ١١٤ .

(٣٩٩) المنار، م١٦، ج٣، ص٢٣٩. انظر مطالب الجمعية، في: أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص١٩ – ٢٣.

ربطت بين حزب اللامركزية وجمعية بيروت الإصلاحية، علاقات قوية، وصلت إلى حد التفكير بتوحيدهما في هيئة واحدة، لكن الجمعية حبذت الانتظار حتى صدور الترخيص الرسمي لها، الذي لم تحصل عليه بسبب عودة الاتحاديين إلى الحكم فجاءت الأوامر إلى والي بيروت بحل الجمعية في ٨ نيسان ١٩١٣، بحجة مطالبة اللائحة الإصلاحية، بالاستعانة بمستشارين أجانب في إدارة الولاية(٤٠٠).

وعند عودة الاتحاديين إلى الحكم في الباب العالي، اعتقد رفيق بأنهم سوف يغيرون من سياستهم، وسيوافقون على تحويل برنامجهم إلى اللامركزية، وأنهم قد تعلموا من أخطاء الماضي، ودليله هو أن وزير الداخلية، في حكومتهم، طلب من والي بيروت، إرسال مقررات الجمعية العمومية ومطالبها، واعتبر هذا تحول ناجم عن الإكراه(٤٠١)، وأرسل باسم الحزب برقية إلى الصدر الأعظم محمود شوكت، يلتمس منه، تزويد والي بيروت الجديد بالأوامر اللازمة لتنفيذ لائحة بيروت الإصلاحية، وتعميم هذا الأمر، على جميع الولاة في سوريا لتطبيق هذه الإصلاحات(٤٠٢).

وكان قبلها قد أرسل برقية بصفته رئيساً للجنة العليا لحزب اللامركزية، يهنئ فيها باتفاق البيروتيين على برنامج موحد يعبر عن مطالبهم الإصلاحية، وباتفاق جميع أبناء بيروت، ويبارك هذه الوحدة ويبارك برنامج الإصلاح الذي ينادون به(٤٠٣).

ولما صدر قرار الاتحاديين بحل الجمعية العمومية في بيروت، استنكر الحزب هذا القرار وأرسل رفيق برقية احتجاج إلى الصدر الأعظم، عبر فيها عن استنكاره للقرار، واعتبره استبداد منكر، مضيّع لآمال الأمة، موجب للتقاطع بين الهيئتين، وطلب بتدارك

---

(٤٠٠) سليم علي سلام، مذكرات سليم علي سلام (١٨٦٨ – ١٩٣٨)، قدم لها وحقق هوامشها د. حسان علي حلاق، بيروت : الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨١، ص ١٥٦ – ١٥٧؛ الشهابي، القومية العربية، ص ٨٤؛ د. عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية، ص ٥١ .

(٤٠١) رفيق العظم، هل رجع الاتحاديون إلى الصواب، المؤيد (٦٨٩٦)، ٤ فبراير ١٩١٣، ص ١ .

(٤٠٢) المؤيد (٦٩٢٣)، ٣ مارس ١٩١٣، ص ٦ .

(٤٠٣) المؤيد (٦٩٢١)، ١ مارس ١٩١٣، ص ٥ .

سوء العاقبة بعزل الوالي، ونقض عمله، وأرسل برقية أخرى إلى والي بيروت يشكو فيها عمله المخالف للقانون، ويدعوه إلى تلافي هذا الخطأ[٤٠٤].

وراح رفيق يحشد التأييد ويثير الرأي العام لمساندة أهالي بيروت وبرنامجهم الإصلاحي، فأرسل يستثير همم السوريين في الولايات المتحدة، ممثلين بجمعيتهم وبجريدة الهدى، التي تصدر في نيويورك يدعوهم إلى تأييد ومناصرة الحركة الإصلاحية، ويوضح لهم التطورات التي حصلت بخصوص الحركة الإصلاحية في بيروت، وقد أثمرت هذه الدعوة، فاستقرت الجالية السورية هناك وأعلنت جمعياتهم مساندة أهالي بيروت، وقبولها المشاركة في مؤتمر باريس الذي تلقت الدعوة لحضوره من رفيق العظم وانعقد مؤتمر سوري في مينسوتا، واعتبرته جريدة الهدى من أصداء دعوة رفيق بك فكتبت تحت عنوان "هنا رجالك يا رفيق بك العظم" مبينة أن روح النهضة المتعمقة في صدور الجالية السورية قد تأججت وقد ثار عجاجها وأوقد نارها النبأ البرقي الذي طيّره رفيق بك العظم رئيس اللجنة اللامركزية العليا في القاهرة، إلى جريدة الهدى في نيويورك وقد احتج مؤتمر مينسوتا على تصرف والي بيروت، وأرسل احتجاجه هذا إلى الدول الكبرى طالباً المساعدة باسم السوريين[٤٠٥].

إن مقاومة الاتحاديين للفكرة اللامركزية شملت بالإضافة لجمعية بيروت الإصلاحية نشاطات حزب اللامركزية في سوريا، فأوعزوا للولاة بمصادرة نظام حزب اللامركزية، مع أن الحزب – برأي رفيق – راعى ظروف الدولة، إذ أنه أجّل مفاتحة الدولة بمطالبه لحين انتهاء الحرب (البلقانية) مراعاة لظروف الدولة، ويخبرنا رفيق بأنه كانت لديه النيّة لإرسال وفد إلى الأستانة ليشرح للاتحاديين رغبته في إنشاء حزب سياسي علني على مبدأ اللامركزية، وليقدم توضيح حول أهداف هذا الحزب، لكن قرارهم بحل جمعية بيروت ألغى الأمل المرتجى من ترخيصهم لحزب اللامركزية، وزاد في عمق الهوة بينهم وبين الشعب السوري والأمة العربية[٤٠٦].

---

(٤٠٤) المؤيد (٦٩٥٩)، ١٣ إبريل ١٩١٣، ص ٥ .

(٤٠٥) الهدى (٦٨)، ٢٢/ ٥/ ١٩١٣، ص ١ .

(٤٠٦) رفيق العظم، أسباب الحركة السورية(١)، الهدى، العدد (٦٣)، ٧/ ٥/ ١٩١٣، ص ٤ .

وكان تبرير الاتحاديين لاتخاذهم قرار حل الجمعية بأن ظروف الحرب غير ملائمة للحديث عن الإصلاحات، والحاجة ماسة لتجميع كل الجهود لدعم الدولة في حربها البلقانية، إضافة إلى مطالبة اللائحة البيروتية بالاستعانة بمستشارين أجانب للعمل في دوائر الولاية والإشراف عليها، والتدخل في صلاحيات الدولة مما يعرضها للإهانة[407].

أما في العراق فقد انتشرت الدعوة لفكرة اللامركزية الإدارية، فظهرت جمعيات إصلاحية نشطة، وانتشر بيان وبرنامج حزب اللامركزية على نطاق واسع، وقد عمدت الحكومة إلى مصادرة النسخ التي وصلت إلى بغداد وألقت القبض على صاحب مكتبة العلم التي كان يوجد فيها نسخ عن بيان وبرنامج الحزب[408].

وتأسست في العراق مجموعة من الجمعيات والمنتديات المنادية بالإصلاح اللامركزي، منها جمعية البصرة الإصلاحية، التي أسسها طالب بك النقيب، الذي كانت تربطه علاقات وثيقة مع حزب اللامركزية في القاهرة[409]، وفي بغداد أسس مزاحم الأمين الباجه جي النادي الوطني العلمي كفرع لحزب اللامركزية، وقد أصدر جريدة النهضة[410]، وظهر فرع في الموصل يدعو إلى الإصلاح اللامركزي[411].

جـ- المؤتمر العربي الأول في باريس ١٩١٣ :

يعتبر مؤتمر باريس المنعقد في حزيران ١٩١٣، صدىً للدعوة الإصلاحية اللامركزية في البلاد العربية، كما أنه عُقد دعماً لبرنامج حزب اللامركزية ولائحة جمعية بيروت، وقد ولدت فكرة المؤتمر في أوساط الطلبة العرب، وعدد من أفراد الجالية العربية في باريس، ولاعتقاد هؤلاء بأن انعقاد مؤتمر ناجح يحظى بتمثيل عربي واسع، بحاجة إلى

---

(٤٠٧) إيضاحات، ص ٣٦.

(٤٠٨) المؤيد، (٦٩٦١)، ١٥ إبريل ١٩١٣، ص ٥.. الماجريات في بغداد

(٤٠٩) أحمد عزت الأعظمي، القضية العربية، أسبابها، مقدماتها، تطوراتها، ونتائجها، الطبعة الأولى، ٦ أجزاء، بغداد، مطبعة الشعب، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م، ج٤، ص ٩٢؛ المؤيد العدد (٦٩٧٢)، ٢٨ (فبراير) شباط ١٩١٣، ص ٤.

(٤١٠) أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٢٤ - ٢٥.

(٤١١) د. الشوبكة، محمد رشيد رضا، ص ٢٤٠.

خبرة سياسية كبيرة يمتلكها من يتصدى لتنظيمه، كتبوا بتاريخ ٤ إبريل (نيسان) ١٩١٣، لحزب اللامركزية ليتولى الدعوة إلى المؤتمر، والإشراف على تنظيمه ورئاسته وفي الجلسة التي عقدتها اللجنة العليا لحزب اللامركزية، بتاريخ ١١ نيسان ١٩١٣، تمت الموافقة على طلب اللجنة التحضيرية لمؤتمر باريس وقررت انتداب الشيخ عبد الحميد الزهراوي لرئاسة المؤتمر، والسيد اسكندر عمون لتولي سكرتارية المؤتمر، وتمثيل الحزب فيه[٤١٢].

وبدأت اللجنة التحضيرية للمؤتمر، بتوجيه الدعوات للمشاركة في المؤتمر، الذي سيناقش السبل الكفيلة لوقاية الأرض من عادية الأجنبي وإنقاذها من صبغة التسيطر والاستبداد وإصلاح أمورنا الداخلية على ما يتطلبه أهل البلاد من قواعد اللامركزية حتى يشتد بها ساعدنا ونستقيم قناتنا، فينقطع بذلك خطر الاحتلال أو الاضمحلال وتنفى مذلة الرق وتخفت نأمة الاستبداد هذا ما جاء في الدعوة الموجهة إلى أبناء الأمة العربية من اللجنة التحضيرية[٤١٣]، وساهم رفيق بك العظم في توجيه الدعوات لبعض الجمعيات العربية في الولايات المتحدة للمشاركة في المؤتمر كجمعية النهضة اللبنانية في نيويورك[٤١٤].

التئم شمل المؤتمر في ١٨ حزيران ١٩١٣، وكانت غالبية المشاركين من السوريين واللبنانيين فغلبت الصبغة السورية على أعمال ومناقشات وقرارات المؤتمر، حتى أنه جرى التفكير في البداية بتسميته المؤتمر السوري، والاقتصار على مناقشة القضايا المتعلقة

---

(٤١٢) اللجنة العليا لحزب اللامركزية، المؤتمر العربي الأول، القاهرة، مطبعة البوسفور، ١٩١٣، ص ٨؛ المؤيد العدد (٦٩٦١)، ١٥ إبريل، ١٩١٣، ص ٥؛ أمين سعيد الثورة العربية، م١، ص ٢٧؛ د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات. مجلة دراسات تاريخية (١٥ ، ١٦)، ص ١٨٥ – ١٨٦؛ د. الشوابكة، ن.م، ٢٤٥ ؛ توفيق السويدي. مذكراتي. نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية. الطبعة الأولى. دار الكتاب العربي. ١٩٦٩، ص ٢٧ ؛ المؤيد، العدد (٦٩٦٣)، ١٧ إبريل ١٩١٣، ص ٥ .

(٤١٣) المؤيد، ع (٦٩٧٢)، ٢٩ إبريل ١٩١٣، ص ٤ .

(٤١٤) الهدى، ع (٩٣)، ١٢ حزيران ١٩١٣، ص ٣ .

بسوريا فقط، لكن تم العدول عن هذه التوجهات فأطلق عليه اسم المؤتمر العربي الأول، لكن في الواقع كانت معظم المناقشات منصبة على القضايا السورية(٤١٥).

ناقش المؤتمر مجموعة من الموضوعات الهامة التي تشغل حيزاً كبيراً من اهتمام الحركة العربية، وجاء تحديد هذه الموضوعات بالاتفاق بين اللجنة التحضيرية للمؤتمر، واللجنة العليا لحزب اللامركزية، وشملت ما يلي :

١- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال .

٢- حقوق العرب في المملكة العثمانية.

٣- ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية .

٤- المهاجرة من سوريا وإلى سوريا(٤١٦).

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر بتاريخ ١٢ حزيران ١٩١٣، اتخذ المؤتمر قراراته الختامية في (١١) مادة وملحق، اعتبرت كبرنامج سياسي يلتزم به المشاركون في المؤتمر، وقد أكد على عدم مساندة أي مرشح للانتخابات النيابية، إلا إذا كان ملتزماً بهذا البرنامج، كما قيّد الزعماء العرب، بعدم قبول المناصب في الدولة العثمانية، إلا وفق تشاور عام، والتزام من الدولة بتنفيذ المطالب الإصلاحية العربية(٤١٧).

لقد أثار انعقاد المؤتمر، موجة عارمة من ردود الفعل، المتباينة والمتناقضة، ففي الوقت الذي اكتسب فيه تأييد وثقة ومساندة الحركة الإصلاحية العربية، بمختلف جمعياتها وأحزابها، وتلقى عدداً من البرقيات المؤيدة من قطاعات واسعة من الأهالي في سورية، صدرت ردود فعل غاضبة بين الاتحاديين، وبعض أتباعهم من العرب، وقادوا حملة معارضة شديدة، وأثاروا من حوله عاصفة من التحريف والاتهامات، وحشدوا عدداً من أعوانهم ومؤيديهم للتشويش على المؤتمر، لكنهم فشلوا في تعطيل انعقاده، وكان من

(٤١٥) أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٢٦؛ سليمان موسى، الحركة العربية، ط١، بيروت، دار النهار، ١٩٧٧، ص ٣٧؛ الشهابي، القومية العربية، ص ٩٦ – ٩٧ .

(٤١٦) أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٢٦ .

(٤١٧) د. سهيلة الريماوي، المرجع السابق، ص ١٨٦ – ١٨٧؛ برو، العرب والترك، ص ٤٢٦ – ٤٢٨.
J.C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, Volume I, Reprinted by Archive Editions, 1987, pp. 268 - 269 .

النقاط التي أثارت الانتقادات حول المؤتمر، هي اختيار باريس مكاناً لانعقاده على اعتبار أن ذلك يشير إلى ارتباط المؤتمر بالأطماع الأجنبية[٤١٨]، وهذا الأمير شكيب أرسلان يرى أن باريس لا تعتبر مكاناً ملائماً لانعقاده لما هو معروف عن الأطماع الفرنسية في سوريا[٤١٩]، ودافع أنصار المؤتمر، بأن انعدام الحرية داخل الدولة العثمانية، هو السبب في اختيار باريس، وانعقاده فيها يعتبر فرصة لإسماع صوت القضية العربية للدول الأوروبية، وانعدام البديل المناسب في داخل الدولة بسبب معارضة الحكومة للمؤتمر، كما أن انعقاده في مصر يثير شبهة التدخل البريطانيّ ووجود جالية عربية سورية كبيرة في باريس جعلها مكاناً ملائماً لانعقاد المؤتمر[٤٢٠]. لكن هذا لا ينفي الشبهات المثارة حول اختيار المكان، خاصة وأن بعض المشاركون من مؤيدي فرنسا، وسياساتها تجاه سورية، لم يتوانوا عن المطالبة باستخدام المستشارين الأجانب في ولاية سورية، لكن رأي المؤتمر كان رفض النص على هذه القضية وتركها لاختيار الولايات ورغبتها[٤٢١].

د- اتفاقية باريس بين العرب والاتحاديين :

اضطر الاتحاديون للتعامل مع الواقع الذي أظهر فشلهم في تعطيل أعمال المؤتمر، فقرروا الدخول في مفاوضات مع المؤتمرين، والبحث عن نقاط التفاهم معهم، وبدأت المفاوضات أولاً في الأستانة، وتولى عبد الكريم الخليل – رئيس المنتدى الأدبي – تمثيل الجانب العربي، ثم انتقلت المفاوضات إلى باريس، إذ سافر مدحت شكري، سكرتير اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي[٤٢٢]. وهناك أجرى مباحثات مطولة ومفيدة مع رئاسة المؤتمر، تمخضت عن اتفاق بين الطرفين حقق استجابة لبعض المطالب

---

(٤١٨) المؤيد (٧٠١٥)، ٢١ يونيو، ١٩١٣؛ د. الدوري التكوين التاريخي، ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

(٤١٩) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٦٩، ص ١٠٨ .

(٤٢٠) د. الشوبكة، ن.م، ص ٢٤٥ – ٢٤٦؛ وانظر دفاع الزهراوي عن اختيار باريس مكاناً لانعقاد المؤتمر، في مجلة الحرب العظمى، ج ٢٥، ص ٢١ – ٢٢ .

(٤٢١) د. الشوبكة، ن.م، ص ٢٤٦ – ٢٤٧؛ Tibawi, Ibid, P. 205 .

(٤٢٢) د. الشوبكة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

العربية[٤٢٣]، مع أنه قصّر عن تلبية جميع المطالب، التي نادى بها المؤتمر، وقد وقّع الاتفاقية عن الجانب العربي عبد الحميد الزهراوي، وعن الجانب التركي مدحت شكري، وعاد الأخير إلى الأستانة، في حين بقي الزهراوي في باريس، مع بعض الأعضاء انتظاراً لنتائج مباحثات عبد الكريم الخليل التكميلية في الأستانة[٤٢٤]، ولما وقّع كل من الخليل وطلعت بك وزير الداخلية الاتفاقية بشكلها النهائي جرى الاتفاق على إبقائها طي الكتمان بناءً على طلب الاتحاديين، بحجة إفساح المجال أمامهم، لاتخاذ التدابير الضرورية لإصدار القوانين والأنظمة اللازمة من أجل الاتفاقية بشكل تدريجي يراعي أوضاع العناصر العثمانية الأخرى[٤٢٥].

بعث رفيق برسالة إلى صديقه المبعوث ووزير الزراعة سليمان البستاني، في أواخر تموز (يوليو) ١٩١٣، ويخبره بقرار اللجنة العليا للحزب القاضي بإرسال وفد برئاسته إلى الأستانة لتقديم الشكر للحكومة، والتفاوض معها على بعض النقاط المبهمة من اتفاقية باريس، لكنه يعبر عن تردده في الجدوى من زيارة الوفد خاصة وهو يلمس تباعد الأفكار بين الجانبين وأنه لا فائدة من سفر الوفد إلا إذا كان هناك بدءاً بالعمل في سبيل الاتفاق، ويطلب منه الجواب برقياً. فإذا كانت نوايا الحكومة نحو الإصلاح حقيقية وجادة في تنفيذه ساعدناها بكل قوتنا، وإلا نبقى حيث كنا ولا تضحك علينا العالم[٤٢٦].

لكن تم الكشف عن اتفاقية باريس بشكل عرضي غير مقصود عندما أعلنت وكالة أنباء (رويتر)، بأن الباب العالي وافق على الاتفاقية، فسارع رفيق العظم، دون قصد إلى

---

(٤٢٣) د. الدوري، التكوين التاريخي، ص ٢٦٢ . انظر نص الاتفاقية: أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٣١ – ٣٢، وفي: برو، العرب والترك، ص ٤٢٥ – ٤٢٧ .

(٤٢٤) د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات، مجلة دراسات تاريخية (١٥ – ١٦)، ص ١٨٧ – ١٨٨ . فور وصول برقية إلى الزهراوي في باريس بتاريخ ١١ يوليو (تموز) ١٩١٣ تقول: قبلنا الاتفاق، يجب الاعتراف بجزئنا حالاً، انظر سهيلة الريماوي، أوراق محب الدين الخطيب في بحوث مهداة إلى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، ص ١١٤ .

(٤٢٥) برو، العرب والترك ص ٤٢٧ .

(٤٢٦) محب الدين الخطيب، رفيق العظم، مجلة الزهراء، م٢، ج ٣ – ٤، ص ٢٣٢ – ٢٣٣؛ الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص ٤٢ – ٤٣ .

إعلان الاتفاقية بشكل رسمي، وقام بإرسال برقية شكر إلى الصدر الأعظم[427]. مع الإشارة هنا إلى إمكانية تفكير رفيق بوضع الحكومة الاتحادية أمام الأمر الواقع، وبما لا يدع لها مجالاً للتهرب من تنفيذ الاتفاقية[428].

وهنا نشبت أزمة جديدة، بين طرفي الاتفاقية، فقد استاء الاتحاديون من إقدام رفيق العظم على نشر الاتفاقية، بشكل يخالف ما تم الاتفاق عليه، وذهب الاتحاديون في غضبهم إلى حد إنكار وجود الاتفاقية أصلاً[429]، وبشكل اعتبره رفيق مهيناً لطلاب الإصلاح[430].

وفيما بعد أصدرت وزارة الداخلية بياناً، تحدثت فيه عن الإصلاحات التي تنوي الحكومة تطبيقها، وصدرت الإرادة السنية، بمباركة محتوى بيان الداخلية، فكانت هذه الإصلاحات مسخاً حقيقياً لجوهر اتفاق باريس، وتنكراً واضحاً لبنوده[431] مما أثار خلافات حادة في الجانب العربي، ففي الوقت الذي رأى فيه بعض الزعماء العرب بأن هذه الإصلاحات مقبولة، كخطوة أولى ورفضها بعضهم واعتبرها التفافاً على مطالب العرب، وتراجعاً عن وعود الاتحاديين والتزامهم بتطبيق اتفاقية باريس، وكان في طليعة هذا الفريق جمعية العربية الفتاة، وحزب اللامركزية[432] بقي عبد الكريم الخليل يحاول التوصل إلى قواسم مشتركة، تجمع بين العرب والاتحاديين، فألحّ على رئاسة المؤتمر في باريس أن ترسل وفداً إلى الأستانة، وقد استجاب هؤلاء لطلبه فوصل وفد مكوّن من

---

(427) انظر، جريدة المؤيد (٧٠٣٦)، ١٥ يوليو ١٩١٣؛ اللجنة العليا لحزب اللامركزية، المؤتمر العربي الأول، ص د – هـ. الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص ٤١ – ٤٢. انظر ملحق رقم (٩)، نص الاتفاقية كما أعلنها رفيق العظم.

(428) د. تاج السر أحمد حران، تطور الفكر القومي، ص ٩٩ .

(429) المنار، م١٦، ج١٠، ص ٧٩٨.

(430) الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص ٤٢ .

(431) المنار، م١٦، ج١٠، ص ٧٩٨؛ أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٢٣ – ٢٤؛ الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص ٤٢ – ٤٣ .

(432) المنار، م١٦، ج١٠، ص ٧٩٨؛ أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٣٤؛ د. سهيلة الريماوي، مفهوم اللامركزية، مجلة دراسات تاريخية، (١٣ ، ١٤)، ص ١٦٦ .

الشيخ أحمد طبارة وأحمد مختار بيهم وسليم علي سلام، لإجراء محادثات مع الاتحاديين. خرج الوفد منها مقتنعاً بمماطلة الاتحاديين وتنكرهم لجوهر اتفاقية باريس[433].

استاء رفيق كثيراً لتنكر الاتحاديين للاتفاقية. وفي أول سبتمبر (أيلول) ١٩١٣، بعث برسالة إلى حافظ بك السعيد (مبعوث يافا)، يقول فيها: "وقد علمنا أن الجماعة في الأستانة لم يفوا بما وعدوا به، وما أعلنوه من مواد الإصلاح. إنما هو طلاء كاذب. ونحن كلما بعدنا عن إصلاح بلادنا، وإصلاح أحوالنا قربنا يوماً من الخطر.. ها نحن أولاء نرى الاتفاقات بين دول أوروبا تعقد لأجلنا، ونرى حكومتنا تزيد من نفوذ الأجانب في بلادنا، دون أن يكون لنا من الأمر شيء، ودون أن يكون لنا رأي حتى في التصرف بمرافقنا.

وهذا كلام صريح يعبر عن خيبة الأمل، وقطع الرجاء في الاتحاديين وفي إمكانية التفاهم معهم في ظل السياسات التي يمارسونها، مما دفعه إلى الاعتقاد بأن "هذه حال لا نهاية لها إلا انقراضنا وانقراض دولة الترك معنا، من حيث يظن رجالها أنهم يحافظون على دولتهم بالضغط على سواهم.."[434].

وفي هذه المرحلة يصرّ عبد الكريم الخليل ومعه الاتحاديون على رفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي بالقدوم إلى الأستانة، لكن الرأي السائد داخل الحزب كان يرى أنه لا جدوى من السفر إلى الأستانة، وأن إرسال وفد يمثل الحزب رهن بتحقيق أحد أمرين: إما قبول الحكومة لاتفاقية باريس وتطبيقها بالحرف، أو ترخيص حزب اللامركزية، وبعدها يتولى الحزب إقناع الأمة بفكرة اللامركزية وبالطرق القانونية التي تتبعها الأحزاب في كل الدول الدستورية[435].

ويبقى حزب اللامركزية يعبر عن إخلاصه للرابطة العثمانية، ويؤكد على الثبات أمام كل المواتع التي تحول دون تحقيق آمالنا في ترقي بلادنا وإسعاد أهلها، وجعلهم قوة ذات

---

(٤٣٣) المنار، م١٦، ج١٠، ص ٧٩٨ – ٧٩٩، أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٣٤ – ٣٥.

(٤٣٤) محب الدين الخطيب، رفيق العظم. مجلة الزهراء، م٢، ج ٣ – ٤، ص ٢٣٣.

(٤٣٥) المنار، م١٦، ج١٠، ص ٧٩٩؛ أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٣٤ – ٣٥؛ محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق العظم للشورة في مجموعة رفيق بك العظم، ص (ي – ك)؛ الأعظمي. القضية العربية، ج٤، ص ٤٣.

حياة وحركة متضامنتين في العمل على صيانة الوطن وسلامة العنصر العربي الكريم من الأخطار الحائقة به، هذا ما جاء في بيان لحزب اللامركزية بتاريخ ٩ تشرين أول ١٩١٣، ويقضي بمطالبة الأمة العربية بدعم برنامج الحزب ومساندته لتحقيق مطالب الأمة في الإصلاح والإدارة اللامركزية، بعيداً عن التفكير بما يخل بالرابطة السياسية بالدولة العثمانية، وحدّد المطالب بما يلي :

١- منح الحرية الحقيقية للشعب وهيئاته النيابية، ومنح الشعب حق انتخاب مجالس الولايات العمومية، ومجلس النواب وغيرها بحرية تامة، على أن تكون قرارات المجالس العمومية نافذة فيما يتعلق بمصالح الولاية.

٢- أن يكون التعليم في الولايات العربية باللغة العربية، وأن تكون الإدارة التعليمية محلية.

٣- أن يكون الإشراف على الشؤون الاقتصادية والأشغال من اختصاص المجالس المحلية.

٤- جعل اللغة العربية لغة رسمية في جميع الولايات العربية، فتكون المعاملات الرسمية في دوائر الحكومة باللغة العربية، وأن يتقن الموظفون اللغة العربية[٤٣٦].

ولا يتردد الحزب في التهديد باستخدام كل الوسائل لتحقيق هذه المطالب، فيما إذا رفضت الحكومة تحقيقها، فيقول : "ومن أراد الحياة الشريفة الهنية لا يُلام، وإذا سعى لها سعيها نالها بسلام أو غير سلام، ومتى أرادت الأمة فعلت، ومتى سارت وصلت.."[٤٣٧].

وجرى التفكير لدى بعض الإصلاحيين العرب بتشكيل هيئة استشارية سرية، تقوم بالإشراف على عملية التفاوض، والتنسيق بين كل الأطراف العربية المشاركة فيها، وتتكون من ممثلين عن كل الجمعيات الإصلاحية قدر الإمكان أو تقتصر على حزب اللامركزية، ويكون مقر هذه اللجنة في الأستانة، وتتولى أيضاً التخطيط للمفاوضات، ومتابعة تنفيذ ما يتم الاتفاق عليه، واختيار المأمورين العرب الذين يمثلون العرب في جميع مراكز الدولة وفق أسس محددة، شريطة التزامهم بالعمل من أجل مصالح الأمة، وتقوم بتقديم المشورة للوفد المفاوض من الجانب العربي، أو للأعضاء العرب في اللجنة المشتركة، التي جرى التفكير بتشكيلها، من العرب والترك، بواقع خمسة أعضاء من كل جانب، وترددت عدة أسماء عربية للمشاركة في هذه اللجنة المشتركة هم : رفيق العظم

---

(٤٣٦) الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص٥١ – ٥٢ .

(٤٣٧) الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص٥٣ .

عبد الحميد الزهراوي، عبد الكريم الخليل، فهمي البغدادي، والشيخ إسماعيل الحافظ. لكن الاتحاديين عرقلوا تشكيلها[٤٣٨].

وفي إطار المفاوضات الجارية في الأستانة، تم اتفاق مبدئي على إعطاء العرب عدداً من الوظائف، هي عشرة أعضاء لمجلس الأعيان، وثلاثة وزراء، وخمسة ولاة، وثلاثة مستشارين في النظارات، وقد تردد اسم رفيق العظم بين الأسماء المرشحة لتولي إحدى الوزارات[٤٣٩].

لكن رفيق بقي يشعر بعدم جدية الاتحاديين في تنفيذ الإصلاحات التي اتفق عليها، وتحدث في رسالة بعث بها إلى عباس أفندي أبو شقرا، كاتم أسرار جمعية الاتحاد السوري في الولايات المتحدة بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٣، عن مماطلة الاتحاديين، وعن عدم توصل الزهراوي إلى أية نتائج بعد مرور ثلاثة أسابيع على مفاوضاته في الأستانة، والأمر الهام هنا هو شعور رفيق بضرورة تغيير الوسائل والأساليب في التعامل مع الحكومة فيقول: "ولذا فقد عولنا على العمل الجد ونحن الآن باذلون منتهى الهمة في تأسيس فروع للجمعية في سورية خاصة والولايات العربية عامة، وسنضع عما قريب خططاً سرية للعمل تتولاها لجنة سرية، وهكذا يتحول عملنا من عمل الأحزاب إلى عمل الجمعيات، إذ لا حيلة مع إخواننا في الأستانة إلا هذا..."[٤٤٠].

نستنتج من هذه الرسالة مدى اليأس الذي أصاب رفيق، ومعه الزعماء العرب، من التفاهم مع الاتحاديين، مما أوصل رفيق وصحبه إلى التفكير بوسائل جديدة وفعّالة في التعامل مع صلف الاتحاديين وتنكرهم لوعودهم وإصرارهم على رفض مطالب العرب، ونلاحظ أن ردة فعل رفيق على رفض الاتحاديين الترخيص لحزب اللامركزية، بشكل رسمي دفعته إلى التفكير بالعمل السري، على غرار الجمعيات السرية، بعد أن استنفذ كل الوسائل في الحصول على ترخيص رسمي ليعمل الحزب بشكل علني.

---

(٤٣٨) د. الشويكة، محمد رشيد رضا، ص ٢٤٨ – ٢٤٩.

(٤٣٩) ن.م، ص ٢٤٩ – ٢٥٠؛ وانظر رسالة من عبد الحميد الزهراوي إلى محب الدين الخطيب، بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٩١٤، منشورة في: د. سهيلة الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص ٣٢٥ – ٣٢٨.

(٤٤٠) انظر الملحق رقم (٤).

هـ- أزمة حزب اللامركزية :

وقد أثار قبول الزهراوي بعضوية مجلس الأعيان، أزمة داخل الحزب بسبب موافقة قيادة الحزب على قرار الزهراوي[441]، إذ أرسل رفيق بصفته رئيس اللجنة العليا للحزب برقية إلى الزهراوي، يقول فيها : قرر الحزب باتفاق الآراء إقراركم على عضوية الأعيان، وإعلان الثقة بوساطتكم لدى الحكومة بسائر المطالب العربية[442]. قبول الزهراوي لعضوية الأعيان، وموقف حزب اللامركزية المؤيد لرأي الزهراوي، أثار عاصفة من ردود الفعل الغاضبة بين الشبيبة العربية في الأستانة، وفي صفوف الضباط العرب هناك وبين الجالية السورية في الولايات المتحدة وغيرها، وتعرّض الزهراوي ومعه قيادة الحزب لحملات تشهير وتشويه كبيرة تطعن في إخلاص الزهراوي والحزب للقضية العربية، وتتهمهم بالبحث عن المناصب[443].

وقد ردّ حزب اللامركزية على برقية احتجاج - تفيض بالنقد والتجريح - وصلته من جمعية الاتحاد السوري ومقرها نيويورك ومؤرخة بـ ١٩ شباط ١٩١٤، وكان رد الحزب قد اتخذ بإجماع أعضاء اللجنة العليا، إلا حقي العظم فقد اعترض على فحوى هذا الرد إذ أنه كان من أشد المعارضين لقبول الزهراوي لعضوية الأعيان، وكان أيضاً من أكثر من شهّر به وهاجمه بعنف[444].

وقد برّر الحزب موافقته على قبول الزهراوي لعضوية الأعيان بأنه جاء اعتماداً على ضرورة وجود المصلحين في الوظائف، لتطبيق قوانين الإصلاح التي تصدرها الحكومة وأن اللجنة العليا للحزب تتمنى أن يكون السيد الزهراوي واسطة لدوام التفاهم بينها وبين الحكومة، أما بالنسبة لأعضاء اللجنة العليا وأعضاء الحزب، فلم يقبل أي منهم أي وظيفة، وأنه لن يتم ذلك دون تحقيق الإصلاح المنشود وترى اللجنة أنه ليس من حسن

---

(٤٤١) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، القاهرة : دار القاهرة للطباعة، بلات ص ٦٧؛ أمين سعيد، الثورة العربية، ج١، ص ٣٨ - ٣٩.

(٤٤٢) المؤيد (٧١٩٠)، ٢٤ يناير ١٩١٤، ص ٦، يوجد صورة عن هذه البرقية في مركز الوثائق التاريخية (دمشق)، القسم الخاص، الحركة العربية، الوثيقة رقم ٢٠ - ٢٤.

(٤٤٣) برو، العرب والترك ص ٤٤٧ - ٤٥٠.

(٤٤٤) برو، العرب والترك ص ٤٤٧ - ٤٥٠.

الرأي أن تطلبنا الحكومة للتفاهم وتلين لنا القول وتعترف لنا بكثير من الحقوق.. ونرميها بالكذب ونباعد بيننا وبينها بغير سبب، ما لم يتم لنا دليل قاطع على أنها إنما تفعل ذلك رياءً لا صدقاً... ومتى قام لنا الدليل على ذلك كان لنا معها شأن غير شأننا اليوم وأن تعيين الزهراوي لن يكون مغنياً من الاستمرار في المطالبة بالإصلاح وأنه لا مطمع لأحد بغير الإصلاح"(٤٤٥).

وفي الوقت الذي عانى فيه الحزب من أزمة داخلية، بسبب معارضة بعض أعضاء اللجنة العليا لموقف الحزب من قضية الزهراوي وكان في مقدمة هؤلاء المعارضين حقي العظم(٤٤٦).

في هذا الوقت برزت مسألة جديدة وهي اعتقال الاتحاديين لعزيز علي المصري ومحاكمته، وقد صدر الحكم بالإعدام ثم خفف للمؤبد ثم أخيراً أفرج عنه(٤٤٧)، وكان موقف الحزب ورفيق بالذات حاسماً في مساندة الزعيم العربي في محنته. وشارك رفيق في الأنشطة والفعاليات المعبّرة عن عدالة قضيته، والمطالبة ببراءته والإفراج عنه. فقد تحدث في العديد من المظاهرات والاحتفالات، ومن أهمها المهرجان الشعبي الحاشد الذي دعا إليه شيخ الأزهر(٤٤٨).

وقد حاول البعض في داخل الحزب استغلال هذه الحادثة للتدليل على استحالة التفاهم مع الاتحاديين وعدم جديتهم في تطبيق الإصلاحات التي يطالب بها العرب، ولإثبات فشل سياسة الحزب في موقفه من الزهراوي وقد حمل راية هذه الأفكار حقي

---

(٤٤٥) الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص ١٥ – ١٨؛ أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٤١ – ٤٢.

(٤٤٦) د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات، مجلة دراسات تاريخية (١٥ – ١٦)، ص١٩١.

(٤٤٧) الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص ٦٠ – ٦٥؛ حول دور الإنكليز في إنقاذ عزيز من الإعدام. انظر، إيضاحات، ص ٢١؛ وانظر: Ronald Storrs, Orientations. Ivor Nicholson – Watson Limited, London, 1931, P. 209.

(٤٤٨) الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص ٦١؛ د. محمد عبد الرحمن برج، عزيز المصري والحركة العربية (١٩٠٨ – ١٩١٦)، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٧٩، ص ١٠٠؛ د. محمود منسي، تاريخ الشرق العربي الحديث، ص ١٩٠.

العظم أمين سر الحزب، الذي كان يؤيد عزيز علي المصري في خلافه القديم المستمر مع الزهراوي، فقد كان الأخير يرفض تدخل العسكريين في العمل السياسي[449].

ظلت الأزمة الداخلية للحزب في تصاعد مستمر، وبلغت ذروتها في جلسة اللجنة العليا للحزب المنعقدة بتاريخ ٢٤/ ٤/ ١٩١٤، فقد عبّر حقي بصراحة عن الرغبة في حل اللجنة العليا، مما يعني حل الحزب، لكن هذا الاقتراح تمّ استبعاده بضغط من الشيخ محمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب، واقترح الشيخ رشيد رضا عقد مؤتمر للحزب وفروعه والتخلي عن فكرة حلّ الحزب، وقدم رفيق العظم اقتراحاً بإصدار بيان يعلن فيه الحزب عن نفسه كحزب سياسي لا جمعية ثورية، وأن يتم عقد مؤتمر علني يُعلن فيه عن الهوية الحقيقية للحزب والتعريف بأهدافه ومبادئه وبرامجه[450].

وجاء اقتراح رفيق في ظل تزايد مطاردة الحكومة لأعضاء الحزب في سوريا، خاصة بعد انتشار المناشير الثورية الصادرة عن الجمعية الثورية، التي كان حقي العظم مسؤولاً عنها ويساعده في نشاطاتها الدكتور عزت الجندي، والشيخ فؤاد الخطيب، وإبراهيم سليم النجار، ومعلوم أن هذه المنشورات سببت فيما بعد ويلات كثيرة لأعضاء وأصدقاء الحزب في سوريا، تجلت في إعدامات جمال باشا[451].

لا شك أن اقتراح رفيق بعقد مؤتمر عام للحزب يدل على عقلانيته وحكمته ويكشف عن عميق فهمه لطبيعة الظروف والإمكانات، وهي دعوة عملية للحد من

---

(٤٤٩) د. سهيلة الريماوي، ن.م، ص ١٩٢.

(٤٥٠) د. سهيلة الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص ٢١٠ – ٢١١.

(٤٥١) انظر، الأعظمي، القضية العربية، ج٤، ص ١٠٦ – ١٠٧، ص ١١٧؛ أدهم آل جندي، شهداء الحرب العالمية الأولى، ص ٦٢؛ انظر صورة من أحد منشورات الجمعية (بلاغ إلى العرب، بني قحطان) محفوظة في مركز الوثائق التاريخية (دمشق) القسم الخاص، الحركة العربية، الوثيقة رقم ٧٩/ ٦٠، انظر الملحق رقم (٥)؛ وانظر: G. Ernest Dawn, the Rise of Arabism in Syria, Middle East Journal, Washington, Vol. 16, No. 2, Spring 1962. p. 151.

البعض اعتبر هذه الجمعية غير موجودة في الواقع، وهي مجرد فكرة بقيت في عقول بعض الأشخاص، انظر:

The Arab Bulletin, Vol. 111, No. 90 May 24, 1918, p. 166.

معاناة أعضاء الحزب في سوريا، وأيضاً للحد من مزايدة البعض وثوريتهم الفارغة ومن خلال البيانات النارية، وهي فرصة للتأكيد على النهج الإصلاحي لا الثوري للحزب، كما أنها فرصة للتخلص من العناصر المتطرفة.

وعندما أعد البيان الذي يدعو أبناء الأمة العربية للمشاركة في مؤتمر يعقد في مصر، حدث خلاف بين رفيق وحقي، ورفض كلاهما توقيعه، فوقعه محب الدين الخطيب بصفته السكرتير الثاني للحزب، ورأى محب الدين أن الخرق قد اتسع بين حقي بك ورفيق بك، الذي يرى أن للعمل أوقاتاً لا يصلح أن يعمل في غيرها"[452].

فقد كان رفيق لا يقرّ كثير من التصرفات لحقي بك، واندفاعه في أعمال غير مدروسة تجرّ أزمات وأضرار الحزب والأعضاء بغنى عنها. فمن الواضح أن رفيق خاصة، والحزب بشكل عام، بات عرضة لحملات ظالمة من التشهير والاتهام الباطل[453].

---

(٤٥٢) دكتورة سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات، مجلة دراسات تاريخية، ع (١٥، ١٦)، ص ١٩٣ – ١٩٤؛ دكتورة سهيلة الريماوي، جمعية العربية الفتاة، ص ٢١١.

(٤٥٣) بالإضافة إلى اتهامات الجمعيات السورية في المهجر، التي يسيطر عليها النصارى من السوريين، فقد اتهمته جريدة الدليل الصادرة في نيويورك، العدد (٥١٤) بتاريخ ١٨ آب ١٩١٣، بأنه يستخف بالمهاجرين السوريين، عندما طلبهم بالتبرع المالي لصالح اللجنة العليا، وقوله: "وهذا كل ما يمكن أن يحيتا به إخواننا الذين هم بعيدون عنا في الديار النائية، واعتبرت هذه إهانة لأنصاره، وفي عدد آخر هاجمته بتهمة السعي للوظائف والمناصب وأنه ما إن لاح له قبس من لطف الحكومة الاتحادية، حتى سار مع غيره من الزعماء نحو الباب العالي، ليقدموا فروض العبودية والامتنان. انظر الدليل، العدد (٥١٥)، ٢١ آب ١٩١٣، ص ١.

كما هاجمته مجلة (النادي) الصادرة في القدس العدد (٥٨–١١) بتاريخ ٢ نيسان ١٩١٣، واعتبرت أن رفضه السفر إلى الأستانة للتفاوض مع الاتحاديين لم يضر بمصلحة القضية العربية، وقالت أن السبب يعود إلى رفضه قبول عضوية الأعيان. رفيق رد على أقوالها واعتبرها مجرد تكهنات صحفية فهو لم يصرح لأحد بأنه عُرض عليه عضوية الأعيان، وأن السبب في عدم سفره هو اعتقاده بأن الظروف غير ملائمة للتباحث مع الحكومة في أمر الإصلاح. انظر النادي (٦٠–١٣) ٧ نيسان ١٩١٣، ص ١.

ونلاحظ أن الاتحاديين حتى قبل انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس في حزيران ١٩١٣، كانوا يدعون رفيق للقدوم إلى الأستانة محاولين إغراءه بالمناصب لكنه رفض.

وفي هذه المرحلة الحرجة، راح رفيق يحلّل أسباب أزمة الحزب، فوضعها في إطارها الحقيقي، واستطاع تحديد بعض أسبابها، المتمثلة في اندفاع حقي العظم في طريق الانتقام من الاتحاديين والانجرار وراء دعوات بعض الأعضاء من النصارى، التي لا تخلو من الغرض. إلى جانب أن الأعضاء النصارى، حاولوا جاهدين الجنوح بالحزب عن أهدافه ومبادئه الأصيلة، وتسخيره لخدمة مواقفهم المؤيدة للاحتلال الفرنسي لسورية، وأعطى مثلاً على ذلك "عندما أتى رجل مسلم غير معروف. من خليل (زينية) يقول له : لماذا أنتم تشتغلون مع رفيق وأصحابه، فقال له : نحن نريد أن نتخذ هؤلاء المسلمين آلة للاحتلال الفرنسي" ويأسف لأن حقي على معرفته بهذا، فإنه يجاريهم في مواقفهم "ولا يزال منقاداً لكل حملة طيش يسمعها من هؤلاء"[٤٥٤]، ويندفع يدافع عن نفسه : "أنا لست منتقماً، ولا أريد الانتقام من الاتحاديين كما يفعل حقي بك، ولم يفعلوا لي ما يدعوني إلى الانتقام، ولا أطمع بوظيفة، ولو أعطيت لي السلطة لابتعدت عنها، وإنما أنا طالب إصلاح لهذا الملك..." وفي هذا إشارة إلى أن الدوافع الحقيقية لغضب حقي من مسألة الزهراوي وتطرفه ضد الاتحاديين، هي حرمانه من المناصب التي سعى لها، مما دفعه للانتقام.

ويوضح رفيق موقفه من دعوة بعض الأعضاء النصارى للتعاون مع فرنسا، فيقول "خيلة أن نأتي إلى بلادنا بحكام أقوى من الأهالي، بالمال والعلم والعقل والسلاح وغير ذلك، فنمكنهم فيهم، نحن نطلب إصلاح هذه البلاد ليس إلا، أما أولئك فوطنيتهم مقلوبة...".

ويعود للدفاع عن نفسه، في وجه سيل الاتهامات المتجنية والمزايدات والتشهير؛ فيقول : "أنا عشت ثلاثين سنة في السياسة وأنا شريف وأريد أن أموت شريفاً، هم يريدون أن يسوِّدوا سمعتي الآن، بما يبلغوا لهنا وهنا من الأقوال، ثم يريدون أن يتخذونا آلة لأمر نحن نعمل لغيره فأنا أريد أن أبتعد عنهم حتى يجربوا الطرق التي

---

(٤٥٤) د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات، مجلة دراسات تاريخية، ع (١٦،١٥)، ص ١٩٥ .

يريدون أن يسلكونها، كفاني ما مضى من تعبي لأجل هذه المملكة، فلأرتع الآن ولأعتزل هذه الأعمال المنهكة"[455].

هذه المرافعة تشير إلى مدى انزعاجه من الأحوال، التي وصل إليها العمل السياسي العربي آنذاك وإلى درجة تمسكه بمبادئه ورفضه الانحراف عنها، مهما كانت الضغوط وإلى رفضه العمل لخدمة الاحتلال الأجنبي لسورية، أو التعاون مع دعاته، كما يدل هذا الكلام النابع من أعماقه في لحظة صفاء حقيقية على مدى إخلاصه لهذه المملكة، الدولة العثمانية.

أما بالنسبة لفكرة عقد المؤتمر العربي الثاني، فقد كانت فكرة مشتركة بين حزب اللامركزية والجمعية العربية الفتاة فقد سعت الجمعية لإقناع الحزب، بتبني الدعوة والإعداد للمؤتمر، وباشر رفيق العظم مراسلاته اللازمة، مع بعض أصحاب العلاقة في الأستانة، ووجه الدعوة لبعض المبعوثين لحضور المؤتمر، وقد تلقى الموافقة من البعض، مثل فرع الحزب في حمص، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى عطّل فكرة المؤتمر تماماً[456]، كما جاء بتحليات كبيرة لفكرة الحزب وكيانه ستتضح بعد قليل.

٣- جمعية الجامعة العربية :

أ- التأسيس والأهداف :

جمعية الجامعة العربية، جمعية سرية، أسسها محمد رشيد رضا، في القاهرة سنة ١٩١٢، أثناء الحرب في البلقان، وما رافقها من مخاوف العرب على مستقبل بلادهم[457]، وقد انتسب للجمعية رفيق العظم، والشيخ علي يوسف، ومحب الدين

---

(٤٥٥) د. سهيلة الريماوي، صفحات من تاريخ الجمعيات، مجلة دراسات تاريخية، ع (١٥ ، ١٦)، ص ١٩٦ .

(٤٥٦) د. سهيلة الريماوي، مفهوم اللامركزية، مجلة دراسات تاريخية، ع (١٣ ، ١٤)، ص ١٦٩؛ وانظر، رسالة من حقي العظم إلى محمد افندي المحمصاني، بتاريخ ١٦ نيسان ١٩١٤، مركز الوثائق التاريخية (دمشق)، القسم الخاص، الحركة العربية، الوثيقة رقم ٣٦ – ٣٧ .

(٤٥٧) محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق بك العظم، ضمن مجموعة آثار رفيق بك العظم، ص (ز)؛ الدكتور احمد الشرباصي، محمد رشيد رضا، ص ٢٥٢ .

الخطيب[٤٥٨]، ومحمد الشريقي[٤٥٩]، وعبد الرحمن الشهبندر[٤٦٠]، ويخبرنا الشيخ محمد رشيد رضا بأن رفيق لم ينتسب لهذه الجمعية، على الرغم من علمه بوجودها ومعرفته بأهدافها وبرامجها، إلا بعد أن تأكد له مدى الضعف، الذي وصلت إليه الدولة بعد هزيمتها في حرب البلقان، فأصبحت عرضة للزوال فجأة إذا صدمتها صدمة أخرى[٤٦١].

أهداف الجمعية :

١- التأليف بين أمراء الجزيرة العربية، وإقامة اتحاد أو تحالف يجمعهم.

٢- تحقيق التعاون والتنسيق والاتفاق بين الجمعيات العربية في الولايات العربية وفي الأستانة[٤٦٢].

نلاحظ أن الأهداف متعلقة بتجميع طاقات العرب، وجهودهم وإمكاناتهم وتخليصهم من الفرقة والخلافات عسى أن يستطيعوا التوصل إلى أهدافهم وحقوقهم وليتمكنوا من حماية بلادهم من أخطار الاستعمار وأطماعه، وكان تركيز الجمعية منصباً على أمراء الجزيرة العربية لشعورها بأن قوة العرب تكمن في دول الجزيرة العربية فلذا اهتمت بتوثيق الصلات معهم وفيما بينهم، ووضعت الجمعية مشروع اتحاد أو تحالف سياسي واقتصادي وعسكري بين أمراء الجزيرة[٤٦٣]، كما وضعت مشروعاً للتنسيق والتعارف بين الجمعيات العربية وتهيئتها للاتحاد فيما بينها[٤٦٤].

---

(٤٥٨) د. الشوابكة، ن.م، ص ٢٥٢.

(٤٥٩) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ٧١.

(٤٦٠) أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٥٠.

(٤٦١) محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق، ص (ز).

(٤٦٢) ن.م، ص (ز).

(٤٦٣) لمزيد من المعلومات حول مشروع التحالف هذا، انظر، د. الشوابكة، محمد رشيد رضا، ص ٢٥٥ – ٢٦٠.

(٤٦٤) انظر، محمد رشيد رضا، ترجمة رفيق، مجموعة آثار رفيق، ص (ز)، وانظر، أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٤٩.

وقد عرضت الجمعية أهدافها وخطتها على عدد من أمراء الجزيرة، فتفاوتت مواقفهم وأعلن بعضهم الانضمام لها، كالإمام يحيى بن حميد الدين والإمام عبد العزيز آل سعود والسيد محمد علي الإدريسي، كما دخلها وأقسم يمينها الأمير عبد الله بن الحسين بتاريخ ١٨ شعبان ١٣٣٢هـ أثناء مروره بالقاهرة(٤٦٥).

ب- نشاطات الجمعية قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى :

كانت مطالب الجمعية ونشاطاتها متوافقة مع الظروف السائدة قبل الحرب العالمية الأولى، فاقتصرت على التأكيد على أهمية العنصر العربي ومكانة الولايات العربية في كيان الدولة العثمانية، والمطالبة بمنح العرب حقوقهم السياسية كاملة في السلطتين التشريعية والتنفيذية، والدعوة إلى تطبيق مبادئ الحكم اللامركزي وتحويل الوزارات من وزارات تركية إلى وزارات عثمانية، وطرحت فكرة تشكيل هيئة تنفيذية برئاسة السلطان وعضوية الصدارة العظمى، والمشيخة الإسلامية، وبعض الوزارات مثل الخارجية والحربية والعدلية والمالية وغيرها، في حين تكون وزارات الداخلية، والمعارف والأوقاف والنافعة، والزراعة، متوزعة على ولايات الدولة التركية والعربية والأرمنية، على شكل وزارات محلية يرأسها من أهل الولاية من يعينه السلطان، وإقامة مجالس تشريعية محلية منتخبة، تقوم بدورها بانتخاب النواب الممثلين للولايات في مجلس المبعوثان(٤٦٦).

وتحدثت الجمعية عن ضرورة التنسيق بين أمراء الجزيرة، وعناصر الإصلاح ممثلة بالجمعيات العربية المنتشرة في سورية والعراق.

ولما تزايد انحراف الاتحاديين عن مبادئ الحكم الدستوري الأصيل، وراحوا يتبعون السياسات القومية المتطرفة الرامية إلى تتريك العناصر الأخرى، مخالفين مبادئ وأصول الفكرة العثمانية التي جمعت بين هذه العناصر لقرون عديدة، من هنا بدأت الجمعية بمهاجمة الاتحاديين، والتنديد بسياستهم المتطرفة ضد العرب، وضربت مثلاً بأحداث حوران والكرك وحرب اليمن، ولم تتوان الجمعية في أحد منشوراتها عن التهديد

---

(٤٦٥) أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٥٠، د. الشوابكة، ن.م، ص ٢٥٢ .

(٤٦٦) د. الشوابكة، محمد رشيد رضا، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

بالجوء إلى السلاح في مقاومتهم إذا ما أقدموا على أي عمل عسكري ضد أي جزء من البلاد العربية[٤٦٧].

وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى في أوائل آب ١٩١٤، وقفت الجمعية ومعها كل العرب على مفترق طرق، وشعروا بالحرج الشديد فهل يقفون مع الدولة، أم يقفون ضدها، وراحوا يدرسون الخيارات المتاحة، ويتباطلون الرأي والمشورة للتوصل إلى موقف موحّد يخدم الدولة، وبالتالي يخدم مصالح العرب، ويحقق الحماية لبلادهم من الاحتلال الأجنبي، الذي أصبح يزداد اقتراباً من بلادهم لكن الرأي العام السائد آنذاك بين العرب كان يقضي بضرورة مساندة الدولة والوقوف لجانبها، وتناسي الخلافات مع حكومتها الاتحادية، وتجميد كل المطالب مرحلياً لحين تجاوز هذه الأزمة الخطيرة، لا سيما وأنهم لم يفكروا حتى هذه اللحظة بالاستقلال عن الدولة[٤٦٨]، وتبادل الزعماء والإصلاحيون العرب الرسائل فيما بينهم يتواصون بضرورة تأييد الدولة، منها رسالة بتاريخ ١٦ آب ١٩١٤، بعثها عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي إلى أحد أصدقائه في مصر، يدعو فيها إلى ضرورة الحفاظ على موقف موحّد مساند للدولة[٤٦٩]، وهذه رسالة من محمد رشيد رضا بتاريخ ١٦ أيلول ١٩١٤، إلى أهالي سورية يدعوهم إلى مساندة الدولة والوقوف لجانبها في حال دخولها الحرب، وينصح بالكف عن مطالبتها بالإصلاح أثناء الحرب[٤٧٠]، وقام عبد الكريم الخليل بزيارة إلى سوريا لشد أزر الحكومة وتأييدها[٤٧١].

---

(٤٦٧) أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٤٩ .

(٤٦٨) محب الدين الخطيب، الجيل الذي عاصر بعث العروبة (مخطوط)، ص ١٧، وانظر : Dr. Hassan Saab, The Arab Fedralists of the Ottman Empire, Djambatan-Amsterdm. 1958, p. 79.

(٤٦٩) د. محمد عبد الرحمن برج، عزيز المصري، ص ١٠٨ – ١٠٩، أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٥٧.

(٤٧٠) محمد رشيد رضا، الحقائق الجلية في المسألة العربية، المنار، م٢٢، ج٦، ص ٤٤٤، وانظر، دروزة، نشأة الحركة العربية، ص ٣٤٤ .

(٤٧١) مجلة الحرب العظمى، ج٢٦، ص ٢٣ – ٢٤. أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص ٥٧ .

وكان التساؤل المطروح، هل تبقى الدولة على الحياد أم تدخل الحرب، وأين المصلحة في الحالتين، فكان لا بد من مواصلة التشاور، وتبادل الآراء في سبيل الوصول إلى صيغة مشتركة[٤٧٢].

وفي إطار هذه التحركات، أرسلت جمعية الجامعة العربية وبتكليف مباشر من رفيق العظم ومحمد رشيد رضا العضو محب الدين الخطيب في تشرين الأول ١٩١٤، للاتصال بأمير نجد وطالب النقيب في البصرة للوقوف على آرائهم في طبيعة الموقف العربي من انعكاسات الحرب على العرب، خاصة إذا ما دخلت الدولة العثمانية طرفاً فيها، وهذا ما كان يرجو العرب عدم حدوثه[٤٧٣]، لكن محب الدين لم ينجح في تحقيق غايته بسبب اعتقاله هو وزميله عبد العزيز العتيقي من قبل السلطات البريطانية، وإيداعهم السجن لمدة سبعة أشهر، أفرج عنه بعد وساطات قام بها زعماء السوريون مع الانكليز في القاهرة[٤٧٤].

وكان على ما يبدو لدى الجمعية، خطة لإجراء اتصالات واسعة وإرسال مزيد من الوفود إلى كل من ابن الصباح في الكويت، وإلى أمير المحمرة وأمير مسقط والإدريسي والإمام يحيى، وهذا ما يتحدث به عبد الغني العريسي، في إفاداته أثناء محاكمته أمام ديوان الحرب العرفي[٤٧٥]، وتحدث محب الدين الخطيب في مذكراته أيضاً عن إرسال وفود إلى الإمام يحيى والشريف حسين والادريسي لتجميع آراء جميع زعماء العرب لرسم خطة يوافق عليها الجميع[٤٧٦]. لكن المصادر التاريخية، لا تسعفنا بأية معلومات عن إرسال مثل هذه الوفود فعلياً، وعلى ما يبدو أنها كانت مجرد اقتراحات أو أفكار، حالت الظروف دون تنفيذها.

---

(٤٧٢) مصطفى الشهابي، القومية العربية، ص ١٠٥ .

(٤٧٣) محب الدين الخطيب، الجيل الذي مهد بعث العروبة، ص ١٨ ؛ محب الدين الخطيب، حياته بقلمه، تروي أحداث عصر وحركة، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامي، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩، ص ٥٧ .

(٤٧٤) محب الدين الخطيب، ن.م، ص ١٨ – ٢٠ .

(٤٧٥) إيضاحات، ص ٧٦ .

(٤٧٦) محب الدين الخطيب، ن.م، ص ١٨ .

وقبيل سفر محب الدين إلى الجزيرة، أرسلت العربية الفتاة محمد المحمصاني، في أواخر آب ١٩١٤ إلى القاهرة للاتصال بالسوريين فيها، وقد نزل ضيفاً في بيت محب الدين الخطيب، وأجرى محادثات مع الزعماء السوريين، وتوصل الجميع إلى قناعة راسخة بأن المصلحة العربية ومصلحة الدولة تقضي بعدم دخولها الحرب، وضرورة الوقوف على الحياد[٤٧٧]. وفي أثناء وجود المحمصاني في القاهرة جاءت الأخبار بإعلان الدولة النفير العام، فأصرَّ على العودة إلى بيروت لأنه في سجل التجنيد ومن العار في نظره أن يتلكأ عن تقديم نفسه جندياً في الجيش الذي هو منسوب إليه[٤٧٨]، وهذا من أوضح الأدلة على إخلاص العرب في تلك المرحلة للدولة العثمانية.

وبعد عدة أسابيع أرسلت جمعية العربية الفتاة مبعوثاً آخر إلى القاهرة هو الشيخ كامل القصاب، الذي اعتقلته السلطات البريطانية في الإسكندرية، لكنها أفرجت عنه بوساطة من رفيق العظم ورشيد رضا، وأجرى في القاهرة محادثات مع رفيق العظم ورشيد رضا، حول طبيعة الموقف العربي من الحرب والدولة، ونقل مطالب الجمعية العربية الفتاة بضرورة العمل من أجل الاستقلال واتفق الجميع في النهاية أن دخول الدولة الحرب ليس في صالح العرب سواءً كسبت الحرب أم خسرتها[٤٧٩].

ولما أعلنت الدولة العثمانية دخول الحرب بتاريخ ٣١/ تشرين الأول / ١٩١٤، أدرك العرب حجم الأخطار التي سيجلبها هذا القرار على بلادهم، وتعددت الاجتهادات حول موقف العرب من الدولة بعد هذا القرار هل يقفون بجانبها أم ضدها؟ وزادت المخاوف من الاتحاديين ومن الانجليز أيضاً، وكان الرأي الغالب هو الوقوف بجانب الدولة ومساندتها، حتى لا تكون البلاد العربية مهددة بالاحتلال الأجنبي[٤٨٠].

لكن هذه النوايا الحسنة وجدت من يقتلها بتصرفاته الوحشية، فقد عملت إعدامات جمال باشا للأحرار العرب في سورية على تغيير قناعات العرب، وتأكيد مخاوفهم من

---

(٤٧٧) محب الدين الخطيب، حياته بقلمه، ص ٥٦ – ٥٧، الجيل الذي ماضر بعد العروبة، ص ١٦ .

(٤٧٨) محب الدين، الجيل الذي ماضر بعد العروبة، ص ١٧ – ١٨ .

(٤٧٩) محب الدين، الجيل الذي ماضر بعد العروبة، ص ١٨، محب الدين، حياته بقلمه، ص ٦٣ .

(٤٨٠) المنار، م ٢٢، ج١، ص٤٤؛ د.حسون فوزي النجار، الشرق العربي بين حربين، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، بلا.ت؛ د. علي سلطان، تاريخ سورية ١٩٠٨ – ١٩١٨، ص٧٣ – ٧٤.

الاتحاديين وإشعارهم باستحالة التفاهم معهم. ومن هنا يعلو الصوت المنادي بالانفصال وإقامة دولة عربية مستقلة. وإن كان هذا الرأي يتردد منذ سنوات قبل هذه المرحلة، إلا أنه كان خافتاً، ولا أنصار له إلا في صفوف بعض المتورطين بالتعاون مع فرنسا من الموارنة وقلة من السوريين. لكن منذ أيار ١٩١٥ أصبحت المطالبة بدولة عربية مستقلة أمراً ظاهراً وشائعاً بين العرب[٤٨١]، وقدكان رفيق من أبرز المصدومين بوحشية جمال باشا، ودفعته مكرهاً نحو العمل خارج إطار الفكرة العثمانية[٤٨٢].

حدثت لقاءات بين الزعماء السوريين في القاهرة وبين ممثلين عن السلطات البريطانية في مصر كان جوهرها هو الرغبة البريطانية في التعرف على احتمالات الموقف العربي من الأطراف المشاركة في الحرب، قبل دخول الدولة الحرب، وما مدى إمكانية وقوفهم ضد الدولة فيبطلون بذلك نداء الجهاد الإسلامي الذي كانت تخشاه بريطانيا[٤٨٣]، أما بعد دخول الدولة الحرب فقد حاولت بريطانيا إغواء العرب بوجوب مساعدتهم على الاستقلال في جميع بلادهم. وأنه لا أطماع لها في أي جزء منها، وأن المطلوب من العرب اغتنام الفرصة والقيام بثورة ضد الترك وإعلان الاستقلال العربي. ولن تتوانى بريطانيا عن تقديم كل مساعدة ممكنة. والدفاع عن البلاد العربية في وجه أي عدوان من الخارج، وبعد الحرب ستقدم مساهمة كبيرة في بناء وتطوير البلاد العربية[٤٨٤].

تعامل الزعماء السوريون بحذر مع هذه الدعوة الجزيلة. والكلام المعسول. فكتبوا مطالب محددة تضمن حقوق العرب في الوحدة والاستقلال. ووعداً علنياً قاطعاً بعدم وجود أطماع لبريطانيا أو حلفائها في أي جزء من البلاد العربية تحت أي اسم أو نوع من أنواع الاستعمار، وأنها تسمح باستقلال البلاد العربية استقلالاً كاملاً غير مشروط[٤٨٥]. وأرسلت هذه المطالب إلى لندن مع تأكيد بأنه بعد أن يتم الإعلان عنها رسمياً ويتم نشرها بواسطة وكالة الأنباء (رويتر) لتكون معروفة ومعلومة للجميع. بعدها سيفكر

---

(٤٨١) برو، القضية العربية، ص ١٩٨، د. منير شفيك موسى، الفكر العربي، ص ٢٠١.

(٤٨٢) محمد سعيد البلي، ترجمة رفيق العظم، مجلة التمدن الإسلامي، م٢، ج ٣ – ٤، ص ٥٩٠؛ منير مشفيك موسى، الفكر العربي، ص ١٢٠ – ١٢١.

(٤٨٣) د. الشويكة، محمد رشيد رضا، ص ٢٦٤؛ المنار، م ٢٢، ج٦، ص ٤٤٤.

(٤٨٤) د. الشويكة، محمد رشيد رضا، ص ٢٦٥ – ٢٦٦. المنار، م ٢٢، ج٦، ص ٤٤٤.

(٤٨٥) المنار، م٢٢، ج٦، ص ٤٤٤؛ د. الشويكة ص ٢٦٩.

العرب في الثورة ضد الدولة والتحالف مع الانكليز. وقد عاد الرد على هذه المطالب بشكل مشوّه ومبتور، مما أدى إلى الشعور بعدم جدوى هذه الاتصالات[٤٨٦].

جـ- نشاطات الجمعية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى :

بقيت الجمعية وفيّة لمبادئها وأهدافها، واستمرت في سعيها لتحقيق وحدة واستقلال البلاد العربية، وحافظت الجمعية على سريّتها، ووسّعت من نشاطاتها، فافتتحت العديد من الفروع في بلاد الشام، ودخلها النصارى، وبدأت تخفّف من صبغتها الإسلامية، وأخذت في تعميق التوجهات الوطنية في سياستها وبرامجها، منساقة مع التطورات، وحدّدت هدفها في إقامة دولة عربية مكوّنة من الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق، على أن تستند إلى أسس شورية برلمانية لا مركزية[٤٨٧].

وواصلت الجمعية اتصالاتها وجهودها لتحقيق هذا الهدف، وها هو رئيسها الشيخ رشيد رضا، يواصل الدعوة لإقامة تحالف عربي واسع يحقق للبلاد العربية الحماية من الأخطار، وفي سنة ١٩١٩ - أثناء وجوده في دمشق -، نجده يبذل جهود الوساطة بين الشريف حسين وعبد العزيز بن سعود ويرسل الرسائل إليهما ولغيرهما من أمراء الجزيرة لتحقيق الدولة العربية المستقلة الموحّدة، وكان الأمير فيصل قد اقتنع بالمشروع وتكفل بإقناع والده في حين تكفل الشيخ رشيد رضا بإقناع ابن سعود وحصل على موافقة الشريف حسين على المشروع، والذي بدوره عرض على الإمام يحيى بن حميد الدين تحقيق مشروع الاتحاد العام كما كتب يخبر ولده فيصل. وكتب فيصل إلى ابن سعود يخبره بذلك، أما الشيخ رشيد رضا فقد كتب رسالة مرفقة برسالة فيصل، يحاول فيها إقناع ابن سعود بأهمية المشروع، وضرورته لحماية الإسلام والعرب[٤٨٨].

إن دراستنا لمبادئ وأهداف ونشاطات جمعية الجامعة العربية تبين بكل وضوح مدى إخلاص رفيق للرابطة العثمانية واهتمامه بتحقيق مصالح العرب وحماية بلادهم من أخطار الاحتلال الأجنبي، فكان يبذل كل جهد ممكن قد يثمر خيراً للأمة العربية وللدولة العثمانية.

---

(٤٨٦) المنار، م٢٢، ج٦، ص ٤٤٤، أمين سعيد، الثورة، ج١، ص ١٢٨ - ١٢٩، سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١٦٠، برو، القضية العربية، ص ٢٥٤، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٤٨٧) د. الشوبكة، ن.م، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٤٨٨) رسالة من محمد رشيد رضا إلى الأمير عبد العزيز آل سعود إمام نجد، بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٣٣٨هـ، محفوظة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، القسم الخاص، القضية العربية، الوثيقة رقم ٨٠/ ٦١، تتكون من ثلاث صفحات. انظر، ملحق رقم (٦).

الفصل الرابع

جهوده السياسية في نطاق المسألتين السورية والفلسطينية

أولاً: نشاطه السياسي في سبيل المسألة السورية

١- الاهتمام بالمسألة السورية في إطار الفكرة اللامركزية العثمانية

٢- موقفه من الثورة العربية الكبرى ١٩١٦.

٣- العهد للسوريين لسبعة ١٩١٨.

٤- نشاطه ضمن حزب الاتحاد السوري

الفصل الرابع

جهوده السياسية في نطاق المسألتين السورية والفلسطينية

أولاً : نشاطه السياسي في سبيل المسألة السورية

١- الاهتمام بالمسألة السورية في إطار الفكرة اللامركزية العثمانية :

إن طبيعة التوجهات الفكرية والسياسية لرفيق المتمثلة بالدفاع عن الاتحاد الإسلامي والجامعة الإسلامية، وإيمانه الصادق بالرابطة العثمانية وكفاحه المتواصل في سبيل حمايتها وتدعيمها، وانتمائه للأمة العربية ذات التاريخ الحضاري العريق الذي طالما فاخر به، كانت تنأى به عن النظرة الإقليمية الضيقة والاشتغال بالمسألة السورية دون غيرها.

وعندما نادت جمعية الجامعة السورية عام ١٩٠٩ التي أسسها كلة المطران ورشيد المطران – باستقلال سورية – رفض رفيق هذه الفكرة واعتبرها من النزعات الفاسدة الداعية للتفريق بين الأمة العثمانية، وتساءل عن ماهية الاستقلال الذي يريدونه لسورية ؟ إن كان معناه الانفصال عن تركيا انفصالاً تاماً، فهذا مقدمة لاحتلال الأجانب لها، وإذا كان قصدهم الاستقلال الإداري أو اللامركزية فعليهم الانضمام إلى جمعية صباح الدين بك الداعية إلى اللامركزية في الولايات العثمانية كلها. ودعم هذه الجمعية لتتمكن من الوصول إلى الحكم، ومن ثمّ ستطبق برنامجها وستنال سورية اللامركزية.

وفي هذه المناسبة أكد رفيق إخلاص السوريين الشديد للدولة وتمسكهم بالإخاء العثماني[٤٨٩]، وقد وقف سوريون كثر لجانب رفيق في معارضة هذه الدعوة، وإظهار استنكارهم لها منهم : سليمان البستاني، وحقي العظم ونَدرة مطران شقيق رشيد مطران، وغيرهم من السوريين[٤٩٠].

---

(٤٨٩) رفيق العظم: ماهذه النزعات الفاسدة الاتحاد العثماني العدد (١٠١) ٢٣ كانون الثاني ١٩٠٩، ص١.

(٤٩٠) دروزة، نشأة الحركة العربية. طبعة منقحة وموسعة، المكتبة العصرية ١٩٧١، ص٢٩٠-٢٩١، د محمود صالح منسي. حركة اليقظة العربية في الشرق القاهرة دار الاتحاد العربي للطباعة، ١٩٧٢، ص٩٦-٩٧.

ولما تزايدت الأطماع الاستعمارية من حول سورية، وانتشرت التقارير والتحليلات حول مستقبلها، وكثرت "السيناريوهات" المتعلقة بمصيرها، وفي وقت زاد فيه ضعف الدولة العثمانية وانشغالها، ثارت المخاوف في نفس رفيق، وراح يُركِّز النظر على موطنه الأصلي الذي بات مهدداً أكثر من غيره من أجزاء البلاد العربية.

ونجده في الأيام الأولى لسنة ١٩١٢، يحذّر من أن سورية وما حولها أصبحت مهددة أكثر من غيرها بالاستعمار، وأن مصيرها لن يكون أفضل من مصير طرابلس الغرب، بل أسوأ بكثير، ورأى بأن الموت أفضل للسوريين من الخضوع لإحدى تلك الدول الأوروبية الجائرة.

وفي هذا الوقت شدد رفيق على تلاحم سورية مع محيطها العربي، ورأى أن أفضل وسيلة للدفاع هي يقظة الشعب السوري ووعيه وترابطه مع إخوانه في الجزيرة العربية، كما أن من واجب الدولة "مضاعفة القوى العسكرية الوطنية في البلاد الإكثار من المواد الحربية في مخازن الجيش لكل ولاية، وأن تؤلف لجان للدفاع عن الوطن تحت كل قادر على حمل السلاح، على تعلم الأصول العسكرية.." وضرورة إعادة الضباط العرب إلى أوطانهم، وتآلف جميع أبناء المملكة وابتعادهم عن الاختلاف والفرقة"[491].

واتهم حكومة الاتحاديين بإفساح المجال أمام الأطماع الأجنبية في سورية فهي "تعد بعض الدول الأجنبية بإعطاء امتيازات واسعة جداً في القطر السوري في نظير مبلغ من المال... على الرغم مما يبذله أهله من المساعي في إصلاحه وترقيه صيانة له من الأطماع، واحتفاظاً بوراية الهلال التي تخفق على ربوعه"[492].

وفي الوقت الذي أكثرت فيه الصحافة، وخاصة الفرنسية، الحديث عن المسألة السورية والاهتمام الفرنسي بسورية، راح رفيق ينفي وجود شيء مستقل اسمه : المسألة السورية ويكون بمعزل عن القضية العربية، وهو يرفض تجزئة القضية العربية إلى مسألة سورية، ومسألة يمنية أو حجازية أو عراقية، وأكد أن مصير سورية مرتبط بالدولة العثمانية "إن سورية عثمانية ولن تزال كذلك ما دام في الدولة العثمانية.. من الحياة ما

(٤٩١) رفيق العظم، نحن وأوروبا، المؤيد (٦٦٥٣)، ٢ يناير ١٩١٢، ص١.

(٤٩٢) رفيق العظم، لمثل هذا يكون الاصلاح، المؤيد (٦٩١٨)، ٢٦ فبراير ١٩١٢، ص٤.

تستطيع به الذبّ عن سورية وغيرها، وإذا تلاشت الدولة وهذا ما لا يتمناه فإن مصير سورية سيرتبط بمصير البلاد العربية فإن سورية بلاد عربية لا تنفك عن ذلك الجسم العربي، ومسألتها جزء من المسألة العربية، لا يتجزأ في حال من الأحوال، وهي مرتبطة بمحيطها العربي، وتعتبر بوابة العراق شرقاً والجزيرة العربية جنوباً، وجذور العرب ضاربة فيها عبر التاريخ، ولا يمكن فصلها عن هذا المحيط.

ولا يصدق بأن سورياً مسلماً أو مسيحياً، يمكن أن يطلب الاحتلال الفرنسي أو حتى أن يقبل به، وإذا صح وجود من يفعل ذلك فهم أفراد قليلون ممن لا أخلاق ولا وطنية لهم ولا هم في العير ولا في النفير، ولا يمكن أن يعبّروا عن رأي الأمة السورية، التي يتمسك سوادها بعثمانيته أولاً ثم بجنسيته ثانياً.

وتحدث عن صراع دولي عنيف حول سورية، فكما لفرنسا أطماع ومصالح فإنه يوجد أطماع إنجليزية وألمانية، والمخيف في هذا الصراع أن تنفرد واحدة من هذه الدول بمصير سورية بحجة الحماية..."[493].

ومع انتشار الشائعات حول اتفاق الدول الأوروبية لاقتسام أملاك الدولة وأن سوريا ستكون من نصيب فرنسا، سادت بين السوريين مشاعر القلق والخوف من المستقبل، خاصة مع وجود بعض أبناء الوطن المؤيدين لفرنسا أو إنجلترا[494].

وفي هذه الظروف يحذّر رفيق الحكومة العثمانية من خطورة الأطماع الاستعمارية، وينبّه إلى المؤتمرات الأوروبية التي تعقد لتقرير مصير الدولة، ويشير إلى الأطماع الأوروبية في أجزاء مختلفة من الدولة وخاصة سوريا[495].

ومع دخول الدولة العثمانية الحرب العامة زادت الأخطار المحيطة بسورية، وزادت أيضاً المخاوف على مصيرها الذي ستحدّده هذه الحرب، خاصة وأن سوريا باتت تعاني أوضاعاً صعبة بسبب الحرب، فقد انتشرت المجاعات، وهلك الآلاف، وتشددت الدولة في فرض التجنيد الإجباري وجباية الضرائب وتطبيق الأحكام العرفية ومصادرة

---

(٤٩٣) رفيق العظم ليس هناك مسألة سورية، المؤيد(٦٨٤٣) ٢١ ديسمبر ١٩١٢، ص١.

(٤٩٤) أنطونيوس - يقظة العرب، ص٢٤٠، د. علي سلطان، تاريخ سورية ١٩٠٨-١٩١٨، ص٢٣٢.

(٤٩٥) رفيق العظم سورية وسياسة التعويض المقتبس، ع (٩٤) ١٣/٦/١٩١٣ ص٤.

الأموال، وتدهورت الأحوال الاقتصادية، وتوقف الإنتاج وارتفعت الأسعار، وانتشر الجراد والأوبئة، وازداد نقص المؤن وسوء الإدارة وانخفضت العملة[٤٩٦].

وفي هذه الظروف يرسل حزب اللامركزية تعميماً إلى فروعه في سورية، يعبّر عن التصميم على اتخاذ وسائل عملية للدفاع عن البلاد في وجه الأخطار المحدقة بها، فقد طلب الحزب من الفروع أجوبة سريعة على مجموعة من الأسئلة وجهها الحزب ويستفسر فيها عن مقدار ما لديها من قوة يمكن الاعتماد عليها وقت الحاجة، وعن إمكانية جمع أموال تُرسل للقيادة أو تبقى في الفروع لحين الحاجة، وعن إمكانية توفير ملجأ آمن لواحد أو أكثر من قيادات الحركة الوطنية مع تأمين معيشتهم كاملة، وعن مدى القدرة على إرسال شخص ثقة ينوب عن الفرع إلى جهة معينة، ليتلقى التعليمات اللازمة، وإذا تعذر ذلك هل يطلبون إرسال موفد خاص إليهم لإعطاء هذه التعليمات، وتعليل الحزب لهذه الاحتياطات هو ضرورة تفكير العرب في حماية استقلالهم من الزوال والعمل من أجل سلامة الوطن[٤٩٧].

وقد ربط البعض بين هذه الاستعدادات وبين تفكير الإنجليز في أن تشتعل الثورة ضد الأتراك في آن واحد في الحجاز وسورية، وقد أقنعوا الضباط العرب بالقيام بحركة عسكرية مسلحة في سورية ضد تركيا تتوافق مع إنزال عسكري إنجليزي في الإسكندرونة لكن هذا الإنزال لم يحدث فيما بعد بسبب مراعاة الإنجليز لتحالفاتهم مع فرنسا ذات المصالح والأطماع المعروفة في سورية، كما أنهم تشككوا في قدرة الضباط العرب في القيام بعمل ناجح[٤٩٨].

وفي الوقت الذي جرى فيه الحديث حول حملة بريطانية على الإسكندرونة، تعزّز لدى العرب السوريين في مصر احتمال انفصال سورية عن الدولة العثمانية، فشكلوا لجنة سرية من رفيق العظم، رشيد رضا، حقي العظم، جميل رفقي، الدكتور مخلوف،

---

(٤٩٦) برو، القضية العربية في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨، ص١١٣-١٢٩، أنطونيوس، يقظة العرب، ص١٩٩-٢٠٠.

(٤٩٧) جمال باشا، مذكرات جمال باشا، تعريب أحمد شكري، طبع ١٣١٤هـ-١٩٢٣م، ص٢٥٨-٢٥٩ أنظر صورة من هذا التعميم في الملاحق، الصورة رقم ٣٨.

(٤٩٨) د. علي سلطان، تاريخ سورية ١٩٠٨-١٩١٨، ص٢٧٩-٢٨٠، ٤٣٨.

وكان ذلك في أواخر يناير كانون الثاني ١٩١٥، هدفها اتخاذ الاستعدادات اللازمة لحصول العرب على استقلالهم[٤٩٩]، لكن مصير هذه الاستعدادات كان مرتبطاً بحدوث الإنزال العسكري البريطاني على سواحل الإسكندرونة وهذا ما لم يحدث، ولما أحسّ جمال باشا بهذه التحركات قام بتفريق القوات العربية في سوريا.

وبذلك انتهت أي فكرة حول القيام بتمرد عسكري في سورية، وراح يشن حملة اعتقالات واسعة تبعتها محاكمات عسكرية بعد فشل حملته على السويس، واستندت هذه المحاكمات إلى الوثائق التي عثر عليها في القنصليتين الفرنسيتين في دمشق وبيروت، والوثائق الخاصة بحزب اللامركزية التي سلّمها له محمد الشنطي أحد أعضاء الحزب في يافا، وقد كلفه حقي العظم بنقلها إلى سورية لتوزيعها على الفروع[٥٠٠].

أما رفيق فقد نال نصيباً من هذه الأحكام، إذا حكم عليه غيابياً بالإعدام، ولما قرر جمال باشا تشريد عائلات المحكومين إلى الأناضول كان من بين هذه العائلات عدد كبير من أسرة العظم، وبالذات أسرة شقيقه عثمان العظم[٥٠١].

لقد تركت هذه الأحكام القاسية التي قضت على ثلّة من خيرة أبناء الحركة العربية، تركت آثارها العميقة في نفس رفيق كما في نفوس العرب جميعاً. وأحدثت فجوة هائلة، وحواجز نفسية كرّستها الدماء والأشلاء، والقلم الصارخ الذي مارسه (ديوان الحرب العرفي)[٥٠٢]، عندما أعدم البعض دون محاكمة، وأصدر أحكامه الجائرة دون أدلّة، وبمجرد الشبهة ولمجرد الاتهام وتنفيس الأحقاد لقد تعزّز لدى العرب الشعور بالهوّة التي باتت تفصلهم عن الاتحاديين خاصة والأتراك عامة بعد الفضائع التي ارتكبها السفاح

---

(٤٩٩) ن.م، ص٤٢٢.

(٥٠٠) قرقوط، تاريخ العرب الحديث، ص٢٣١-٢٤١، دروزة نشأة الحركة العربية، ص١٢٧١ د. توفيق برو، القضية العربية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨، الطبعة الاولى، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ١٩٨٩، ص١٦٨-١٦٩، الاعظمي، القضية العربية، ج٤، ص١١٨، أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص٦٦-٦٧.

(٥٠١) الإيضاحات، ص١٥، ١٣، ١١، ٨، ٥، ص١١٤-١١٥، ص١٢٢، ادهم آل الجندي، شهداء الحرب العالمية، ص١٦٠، برو، القضية العربية، ص٢٠٤، محمد كرد علي، المذكرات اربعة اجزاء، دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٤٨، ط، ص١١٦، ARAB BULLETIN, V.I, NO16, August18,1916,P. 169

(٥٠٢) أعدمت القافلة الاولى يوم ٢١ آب ١٩١٥ في بيروت وضمت ثلاثة عشر محكوماً، أما القافلة الثانية فقد أعدمت يوم ٦ أيار ١٩١٦ سبعة منهم في دمشق واربعة عشر في بيروت.

وبدأت في ظل هذه المشاعر تنمو الدعوة إلى الانفصال والاستقلال واجدةً البيئة الملائمة والظروف المناسبة[503].

وفرضت حقائق الحياة وتطورات الأحداث نفسها وتجاوز الزمن فكرة الدعوة إلى اللامركزية في نطاق الدولة العثمانية والآن في منتصف سنة ١٩١٦، عن أية دولة عثمانية تتحدث ؟ وما هي إمكانية بقائها بعد الحرب ؟ وعن أية ولايات عربية تتحدث وهي باتت مهددة بالاحتلال الأجنبي ؟ وما هو الأمل المتبقي - بعد كل ما جرى - للتفاهم مع الأتراك ممثلين بقياداتهم الاتحادية المتطرفة ؟، ولنعتبر هنا مجموعة من الظروف الموضوعية التي أدت إلى تلاشي فكرة اللامركزية وحزب اللامركزية يُضاف إليها جملة من الأسباب والعوامل الذاتية المتمثلة في الضربات الموجعة التي تلقاها أنصار اللامركزية وكوادر حزب اللامركزية على أعواد المشانق في بيروت ودمشق. كما فعلت الخلافات الداخلية والتيارات السياسية والفكرية المتضاربة داخل الحزب فعلها في إسدال الستار على الدعوة إلى اللامركزية.

٢- الموقف من الثورة العربية الكبرى :

لا شك أن إعدامات جمال باشا عجّلت في إعلان الثورة العربية، وهيأت لها تربة خصبة لتقبل أفكارها، وللتعاطف معها.

لقد تلقى الزعماء السوريون ومعهم إخوانهم العراقيون في مصر أنباء الثورة بحماسة شديدة وساهمت صحافتهم في التعريف بها[504]، وقد وصف محمد شريف الفاروقي معتمد الشريف حسين في القاهرة مشاعر السوريين تجاه الثورة مبيّناً أنها لاقت تأييداً في أوساط المسلمين السوريين في حين أن المسيحيين لا يزالوان ناقمين من الثورة غير مطمئنين إليها إلا فريقاً من شبابهم النيورين[505]، وقد نالت الثورة مساندة وتأييد عدد

(٥٠٣) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية. القاهرة: دار القاهرة للطباعة. بلا ت، ص٨٦.

(٥٠٤) أنطونيوس، يقظة العرب، ص٣٠٤.

(٥٠٥) د. منسي، تاريخ المشرق العربي، ص٤٣٢.

كبير من السوريين في مصر من أدباء وعلماء ومفكرين وضباط وجنود انضموا إليها[٥٠٦].

وكان رفيق في مقدمة السوريين المقيمين في مصر، الذين بعثوا ببرقيات تهنئة للشريف حسين، عند إعلان ثورته ضد الأتراك وقد تلقى رفيق وعدد من السوريين رداً من الشريف على البرقيات التي أرسلوها له[٥٠٧].

وقد كان رفيق خلال السنتين الأوليين من الثورة من أبرز أنصارها في الأوساط السورية في مصر، وعمل ما بوسعه مع مجموعة من السوريين لمناصرتها، واستقطاب التأييد لها[٥٠٨].

وفي منتصف نيسان (إبريل) سنة ١٩١٧ وصل جورج بيكو إلى القاهرة على رأس وفد فرنسي، متزامناً مع وصول وفد بريطاني برئاسة مارك سايكس، وقد صرّح بيكو بوضوح عن حقيقة الأطماع الفرنسية في سورية، مبيناً أن الحلفاء قد اختاروا فرنسا وصية على لبنان، وأنه يحمل لقب "مفوض سامي". وقد أثارت هذه التصريحات مخاوف السوريين واللبنانيين في مصر؛ لأنها كشفت حقيقة الأطماع الفرنسية، وبرهنت صدق الإشاعات عن سعيهم لاحتلالها[٥٠٩].

وقد التقى مارك سايكس مع مجموعة من السوريين في القاهرة، وبحث معهم الأماني العربية[٥١٠]، ولم يستنكر سايكس ما صرّح به بيكو، مما زاد في ارتياب السوريين من الحلفاء[٥١١].

وفي هذه الأثناء أي في نيسان سنة ١٩١٧ تلقى رفيق العظم دعوة من الشريف حسين لزيارة الحجاز، ولكن رفيقاً اعتذر بانحراف صحته[٥١٢]، وقد تكون هذه الدعوة

---

(٥٠٦) أمين سعيد، ثورات العرب في القرن العشرين. القاهرة: دار الهلال. بلا ت، ص٥٦.

(٥٠٧) محمد طاهر العمري، تاريخ مقدرات العراق السياسية، بغداد: المطبعة العصرية، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، ج١، ص٢٤٨.

(٥٠٨) محمد سعيد الباني، ترجمة رفيق العظم. مجلة التمدن الإسلامي، م٢، ج٣-٤، ص٥٩٠.

(٥٠٩) أمين سعيد الثورة العربية، م١، ص٢٠١-٢٠٢؛ سليمان موسى. الحركة العربية، ص٢٥٢.

(٥١٠) د. خيرية قاسمية، المقاومة العربية للصهيونية. دراسات تاريخية، ع(١١)، ١٩٨٣، ص٦٦-٦٧.

(٥١١) أنيس صايغ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى. الطبعة الأولى، بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٦، ص١٢٩.

مرتبطة برغبة الشريف في التشاور مع قيادات السوريين في مصر، خاصة وأنه على موعد هام مع الرجلين الخطيرين مارك سايكس وجورج بيكو، اللذين وصلا إلى جدة في مايو (أيار) ١٩١٧.

ولما علم السوريون في القاهرة بسفرهما إلى جدة لإجراء مباحثات مع الشريف، طلبوا من الأمير فيصل المشاركة في هذه المباحثات، كما أبرقوا إلى الشريف يخبرونه باستعداد رفيق بك العظم للسفر إلى جدة للمشاركة في المفاوضات مع السيدين سايكس وبيكو، لكن جاء الرد من الشريف بأن مدة إقامة الضيفين لا تتجاوز ثلاثة أيام لن يتسنى أثناءها لرفيق بك أو لغيره الوصول قبل مغادرتهما جدة، وبذلك لم يسافر رفيق إلى الحجاز[٥١٣].

ومن الجدير بالذكر أن جوهر مباحثات الرجلين مع الشريف كان محاولتهم انتزاع موافقته على اتفاقيتهم السرية التي لم يصارحاه بها وقد فشلا في ذلك بسبب إصراره على بقاء سورية والعراق ضمن إطار الاتفاقات السابقة، كما رفض الشريف الاعتراف بأي احتلال فرنسي لبيروت ولبنان فهي بلاد عربية تستحق الاستقلال[٥١٤].

وفي سبيل دعم الثورة عمد السوريون في القاهرة إلى تشكيل هيئة قومية ضمت كلاً من : رفيق العظم، ومحمد رشيد رضا، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، أحمد مختار الصلح، وحسن حمادة وركّز هؤلاء على مقاومة الأطماع الفرنسية في سورية. وقد جاء تأليف هذه الهيئة بمبادرة من الشيخ كامل القصاب، بعد استقراره في القاهرة قادماً من الحجاز، وكان من أهداف الهيئة التعريف بالثورة وأهدافها، وما يتعلق بها من مطالب وأماني العرب، والعمل على نشر الدعاية لها في أوروبا، وجرى التفكير بإرسال وفد إلى أوروبا برئاسة إسكندر عمون، وإرسال وفد من السوريين للاجتماع بالشريف، وقد أيد الشريف هذه الاقتراحات، ورحّب بزيارة الوفد للحجاز، وقدّم دعماً مالياً لتغطية نفقات سفر الوفد الذاهب إلى أوروبا، لكن الوفدين لم يغادروا القاهرة عندما وصل أحد أعداد

---

(٥١٢) سليمان موسى، الحركة العربية، ص٦٥٢.

(٥١٣) أسعد داغر، مذكراتي، ص٩٧.

(٥١٤) سليمان موسى - الحركة العربية، ص٣٥٣.

جريدة القبلة إلى القاهرة يحمل أخبار تطبيق الحدود الشرعية في مملكة الحجاز[٥١٥]، مما أثار مشاعر عدم الرضى. ويشير أمين سعيد إلى أن الإنجليز كانوا كثيراً ما يمنعون دخول أعداد من القبلة لكنهم سمحوا بدخول هذا العدد لغرض ما[٥١٦].

٣- العهد للسوريين السبعة :

تعززت مخاوف العرب من أطماع الأجانب في بلادهم بعد أن نشر الشيوعيون في موسكو في ٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧، اتفاقية سايكس – بيكو، الرامية لتقسيم أملاك (الرجل المريض)، بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، وبموجبها تكون بلاد الشام والعراق مقسّمة لمناطق نفوذ بريطانية وفرنسية[٥١٧].

وفي هذا الظرف الدقيق حاول الأتراك اغتنام الفرصة لإعادة التواصل مع العرب، فأجروا اتصالات مع الأمير فيصل بن الحسين، لكنها لم تسفر عن اتفاق، وقد أثارت هذه الاتصالات مخاوف الإنجليز، مما دفعهم إلى إعادة نثر الوعود من جديد[٥١٨].

وبما أن مصير القضية العربية أصبح مفتوحاً على كل الاحتمالات، خاصة بعد صدور وعد بلفور والكشف عن اتفاقيات سايكس – بيكو، فإن مخاوف العرب تصاعدت، وكثرت التوقعات والتحليلات، وهذا جعل الزعماء السوريين في القاهرة يشعرون بالحاجة للدخول في حوار صريح مع الإنجليز، عسى أن تتضح أمامهم معالم الطريق الذي ستسير فيه القضية العربية بعد نهاية الحرب الدائرة وتوصّل السوريون بعد مشاورات طويلة إلى تشكيل وفد يمثلهم لمقابلة السلطات البريطانية، وقد تألف من رفيق العظم، كامل القصاب، مختار الصلح، عبد الرحمن الشهبندر، خالد الحكيم، فوزي البكري، حسن حمادة[٥١٩]، التقى الوفد مع أحد كبار موظفي المكتب العربي[٥٢٠]،

---

(٥١٥) لقد بحثت في جريدة القبلة عن هذا الخبر ولم أعثر عليه.

(٥١٦) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، دار الكتاب العربي، بلا ت، ص٢٣٧-٢٣٤.

(٥١٧) د. منسي، تاريخ الشرق العربي الحديث، ص٤٧٠-٤٧١.

(٥١٨) أمين سعيد، الثورة العربية، م١، ص٢١٢-٢١٥، وانظر THE ARAB BULLTIN, ٢٤-٢٧ NO, December , 1917,p.509-511

(٥١٩) أمين سعيد، الثورة العربية، م٢، ص ٣٨.

ويدعى والروند (Walrond)، وقدموا له مذكرة ليرفعها لوزارة الخارجية البريطانية، وكانت هذه المذكرة مغفلة من تواقيعهم حرصاً على أن تبقى هويتهم غير معروفة، خاصة لما ورد في المذكرة من أمور تثير الخلاف مع الشريف حسين. وقرروا الإعلان عن فحوى المذكرة مقرونة بالرد البريطاني عليها حين صدوره[٥٢١].

وقد حملت المذكرة مجموعة من الأفكار هي :

- الرغبة في التعرف إلى موقف بريطانيا من مسألة استقلال البلاد العربية في شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا وجزء من ولاية الموصل، استقلالاً تاماً، ويربط بينها حكومة اتحادية تشبه حكومة الولايات المتحدة تراعى فيها مبادئ اللامركزية التي سعى السوريون طويلاً لتحقيقها .

- التأكيد على اعتماد العرب على بريطانيا وثقتهم بتقاليدها القاضية بسلامة البلاد العربية.

- استعداد ممثلي الجمعيات العربية لتقديم الخدمة اللازمة التي يكلفوا بها من جانب الحلفاء وتعود منافعها على الجميع، فيما إذا أعلنت بريطانيا تعهدها بالموافقة على مطالبهم السابقة.

- الاستغراب من تصريحات الساسة البريطانيين الخاصة بسلامة الولايات التركية الآهلة بالأتراك وإغفال تأكيد سلامة أراضي العرب حلفاء بريطانيا ضد الأتراك.

---

(٥٢٠) المكتب العربي (ARAB Bureau) أسسه الانجليز في القاهرة في شباط ١٩١٦ بإيعاز من المندوب السامي البريطاني في مصر (مكماهون)، وضمّ جماعة من الخبراء في شؤون الشرق العربي ممن كانوا يعملون في دائرة الاستخبارات، ومن الموظفين السياسيين في دائرة المندوب السامي. وقد تولى هؤلاء رفع التقارير والمذكرات إلى وزارة الخارجية أو وزارة الحربية في لندن، وأصدروا نشرة ملحقة سرية اسمها النشرة العربية (ARAB Bulletin) تتابع الأحداث السياسية المتعلقة بالبلاد العربية والدولة العثمانية والحركة العربية. (انظر خيرية قاسمية، المكتب العربي في القاهرة، مجلة دراسات تاريخية، العددان(١٧، ١٨)، ص١٦٠-١٦١.

(٥٢١) أنطونيوس، يقظة العرب، ص٢٧٩.

- التأكيد على أن الخلافات بين الأمراء العرب يمكن التغلب عليها بمساعدة بريطانيا والملك الحسين بن علي، والسماح لممثلي الجمعيات بالعمل بصدق وإخلاص في شبه جزيرة العرب.

- التأكيد على دور سوريا ورجالاتها في الحركة الفكرية التي أنتجت الثورة العربية، والتفاهم بين الشريف وأنجاله ورجال الجمعيات العربية في سوريا ومصر، وتقديم سوريا نوابغ رجالها وعلمائها ضحايا من أجل استقلال البلاد العربية. وقدموا بتقديم دراسة أعدوها حول الوجه الحقيقي للجمعيات العربية رداً على ما أورده كتاب الإيضاحات الذي أصدره جمال باشا[٥٢٢].

أصدرت وزارة الخارجية البريطانية ردها على مذكرة السوريين بتاريخ ١٦/ ٦/ ١٩١٨، وتم تسليم الرد – في القاهرة – لرفيق العظم، وعبد الرحمن الشهبندر، وكامل القصاب، بتاريخ ٢٢/ ٦/ ١٩١٨[٥٢٣].

وفي هذا اللقاء استفسر الوفد عن حقيقة ما نشر حول الاتفاقية السرية بين فرنسا وبريطانيا المعروفة – لاحقاً – باتفاقية سايكس - بيكو، فنفى هوجارث (Hogarth) وجودها[٥٢٤]، وقام المستر والرند (Warlond) بقراءة نص بيان وزارة الخارجية الذي سمي (THE DECLARTION OF THE SEVEN) "التصريح للسوريين السبعة"، وجرت ترجمة النص الإنجليزي إلى العربية، وأرسلت نسخة منه إلى الشريف حسين من قبل الإنجليز، في حين أرسل القصاب نسخة أخرى إلى الأمير فيصل لمعرفة رأيهما، لكن لم

---

(٥٢٢) أمين سعيد، الثورة العربية، م٢، ص٣٨-٤٠؛ صبحي العمري، أوراق الثورة العربية (٣) ميسلون نهاية عهد، رياض نجيب الريس للكتب والنشر، لندن – قبرص، الطبعة الأولى، ١٩٩١، بيروت، النهضة العربية-ص١٤٤؛ سليمان موسى، الحركة العربية ص١٥١-١٥٢. THE ARAB BULLETIN, VOLL. 111, NO-87, April,30,1918,P.P.137-138.

(٥٢٣) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص٢٤٥.

(٥٢٤) د. علي سلطان، تاريخ سورية ١٩٠٨-١٩١٨، ص ٥١٢.

يصدر أي رد عنهما[٥٢٥]، إلا أن فيصل اعتبر أن هذا العهد ينقض اتفاقية سايكس – بيكو، كما صرّح بذلك لورنس في لندن في ٢٩ أكتوبر ١٩١٨[٥٢٦].

وأكد العهد للسوريين السبعة على جملة حقائق توضح سياسة الحكومة البريطانية تجاه البلاد العربية، فقد قسمت البلاد العربية إلى أربعة أقسام استناداً إلى طبيعة الموقف العسكري آنذاك وهي :

١- منح الاستقلال التام للأراضي العربية التي كانت حرة ومستقلة قبل قيام الحرب.

٢- منح الاستقلال التام لكل الأراضي التي حررها العرب من السيطرة التركية أثناء الحرب الحاضرة.

٣- أما الأراضي التي كانت في الماضي تحت الحكم العثماني وتحتلها قوات الحلفاء في الحرب الحاضرة فتكون حكومة هذه الأقاليم قائمة على رضا سكانها.

٤- وبالنسبة للأراضي التي ما زالت تحت السيطرة التركية، فإن الحكومة البريطانية تؤيد سكانها في سعيهم لتحقيق الحرية والاستقلال وتدعمهم في ذلك مع تقديرها لمقدار الصعوبات والأخطار التي تهدد العاملين في سبيل الحرية في هذه البلاد مع استعدادها لمساعدتهم.

ويشمل البندان الأول والثاني أراضي الجزيرة العربية من عدن إلى العقبة، أما البند الثالث فيشمل القسم الأعظم من سورية وولاية البصرة في العراق، والأراضي المشمولة بالبند الرابع هي أجزاء غير محددة من العراق وفلسطين[٥٢٧].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو لماذا أصدرت بريطانيا هذا العهد ؟ يقول لورنس إن السبب هو الرغبة في التخفيف من وقع معاهدة سايكس – بيكو على العرب،

---

(٥٢٥) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، ص٢٤٦؛ أنطونيوس، يقظة العرب، ص٣٧٩

(٥٢٦) فيليب نايتلي وكولن سيمسون، الخفي من حياة لورنس العرب، ترجمة فيني لاوند وإبراهيم العابد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٧١، ص١١٤ .

(٥٢٧) J.C .Hurewitz, Diplomacy In the near and Middle East, Adocumentary Record, 1535-1956, Reprinted by Archive editions, 1987, P.29 وانظر، أنطونيوس، يقظة العرب، ص٥٨٧ -٥٨٨، أمين سعيد، الثورة العربية، م٢، ص٤٠ –٤١، وانظر ملحق رقم ٧.

ولتخفي بريطانيا حقيقة مواقفها من القضية العربية[٥٢٨]، وللحيلولة دون حدوث أي تقارب بين العرب والترك[٥٢٩]، وقد عمل هذا العهد على إزالة مشاعر الإحباط واليأس في النفوس إلى حد ما، وأعاد الثقة مجدداً بجدوى التعاون مع بريطانيا. ورأى أنطونيوس أنه كان حاسماً أكثر من اتفاق حسين – مكماهون، وأكثر شمولاً، وأشد تجرداً من التحفظات الإقليمية، ويمتاز عليه بالعلنية[٥٣٠].

وقد بدى مناقضاً لما جاء في اتفاقية سايكس – بيكو، عندما أكد عزم بريطانيا على العمل من أجل نيل سورية والعراق وفلسطين حريتها واستقلالها، والتعهد بعدم إقامة أي نظام حكم لا يقبله سكانها[٥٣١].

وزاد في الحيرة والبلبلة وإثارة تساؤلات جوهرية حول مصير اتفاقية سايكس-بيكو، فهل زالت وانقضى أثرها، وما هو مصير المصالح الفرنسية[٥٣٢]؟ لقد بدى وكأنه يبيح للعرب تحرير المناطق التي لفرنسا مصالح فيها. وراح بعضهم يعتقد بإمكانية الاعتماد على بريطانيا في النزاع مع فرنسا[٥٣٣]، ولا شك أن هذا يعتبر نجاحاً رائعاً للدبلوماسية البريطانية الرامية إلى تضليل العرب والقائمة على نثر العهود المتناقضة التي ليست للتطبيق بل لمجرد التخدير، وعلى الرغم من كون هذا العهد – حسب رأي أنطونيوس – أهم بيان سياسي أصدرته بريطانيا العظمى لتوضح فيه سياستها تجاه الثورة العربية[٥٣٤]، إلا أنه لم ينشر في انجلترا إلا بعد نحو عشرين عاماً[٥٣٥]، مما يؤكد حجم استخفاف بريطانيا بوعودها، ومما يؤكد سوء النوايا وعدم الجدية في التنفيذ.

وأصبح النشاط السياسي للزعماء السوريين في القاهرة منذ نهاية سنة ١٩١٧ مكرّساً لخدمة المسألة السورية. وذلك لمجموعة من العوامل الخارجية والداخلية؛ فقد كانت الأطماع الأوروبية وخاصة الفرنسية منصبّة على سورية. والخطوات التمهيدية لذلك

---

(٥٢٨) ت.أ.لورانس – أعمدة الحكمة السبعة، الطبعة الثانية، بيروت: المكتبة الأهلية، ١٩٧١، ص٢٦٢-٢٦٣.

(٥٢٩) برو، القضية العربية، ص٤٤٢.

(٥٣٠) أنطونيوس، يقظة العرب، ص٣٨١.

(٥٣١) أنطونيوس، يقظة العرب، ص ٣٨١.

(٥٣٢) فيليب نايتلي وكولن سمبسون، الخفي من حياة لورنس العرب، ترجمة ليلى لاوند وإبراهيم، ص ٩١.

(٥٣٣) د خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ – ١٩٢٠، القاهرة دار المعارف ١٩٧١، ص ٤٤.

(٥٣٤) أنطونيوس، يقظة العرب، ص ٣٨٠.

(٥٣٥) محمود كامل خله، الدولة العربية الكبرى – القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٨، ص٢٨٠.

بدأت تتضح شيئاً فشيئاً. أما الحليف البريطاني فقد بات من المؤكد لدى قطاع واسع، بأن عهوده ومواثيقه ليست مضمونة بما يزيل الريب والشكوك كما أن الخلافات الداخلية بين العرب أنفسهم كانت واضحة وجلية، فالانسجام بين الشريف والزعماء السوريين لم يكن كبيراً ولا دائماً. والخلافات بين الضباط السوريين والعراقيين أصبحت أمراً محسوساً وظاهراً داخل الجيش العربي[٥٣٦].

وقد ظهرت تيارات سياسية سورية متضاربة بعضها ينادي بالتبعية لفرنسا والآخر يؤيد التبعية لانجلترا، وبعضها يدعو إلى استقلال سوري بعيد عن الارتباط بحكومة الحجاز، في حين ينادي بعضهم إلى هذا الارتباط. وهناك من ينادي بدولة مسيحية في الساحل وأخرى مسلمة في الداخل. في حين طالب بعضهم – ومنهم حزب الاتحاد السوري – باستقلال كامل لسورية الطبيعية. وآخرون جعلوا هذا الاستقلال ضمن دولة عربية تتألف من الولايات العربية العثمانية جميعها على قاعدة اللامركزية[٥٣٧]، ويضاف إلى ما سبق شعور بعض السوريين بالتفوق الحضاري على عرب الحجاز واختلاف مستوى المدنية بين الطرفين[٥٣٨]، كما أن المسيحيين السوريين تخوفوا من أن يستبدلوا حكماً إسلامياً هاشمياً بآخر إسلامي عثماني. كان الأول في الأستانة والثاني في مكة[٥٣٩].

وقد برر الشيخ رشيد رضا الانتقال من القضية العربية إلى القضية السورية، والدخول في حزب الاتحاد السوري بأنه للحرص على تعاون المسلمين مع النصارى على طلب الاستقلال التام الناجز لسورية.. ولأن التعاون على استقلال بعض الأقطار العربية لا ينافي السعي لاستقلال سائرها من طريق آخر[٥٤٠].

وعندما أبدى الملك حسين أسفه لاقتصار نشاط حزب الاتحاد السوري على العمل من أجل سورية وحدها دون سائر الأقطار العربية، أجاب الحزب بكتاب مؤرخ في ٩

---

(٥٣٦) أمين سعيد أسرار الثورة العربية، ص٢٤٢-٢٤٤؛ أمين سعيد الثورة العربية، م٢، ص٣٧-٣٨.
(٥٣٧) أنظر، محمد رشيد رضا. مختارات من مجلة المنار، ص٢٤٤-٢٤٦.
(٥٣٨) د. وجيه كوثراني. مشروع الدولة في مطلع القرن العشرين. الفكر العربي، ١٩٨١، ص٤٩٣.
(٥٣٩) سليمان موسى. الحركة العربية. ص٦٤٤.
(٥٤٠) محمد رشيد رضا، مختارات من مجلة المنار، ص٢٤٧.

شباط ١٩١٩، بأنه قد تألف من السوريين ومن أجل تحقيق استقلال سورية، وحمايتها من الاحتلال الأجنبي، خاصة وأن بعض أهلها طلبوا الاحتلال، وأن حديث الحزب عن سورية واهتمامه بها لا يخرجها من الدائرة العربية الوسعى، وأن الحزب على قناعة بأن يسعى كل قطر لنيل الاستقلال؛ تمهيداً للوحدة على قاعدة اللامركزية الضرورية لتحقيق الاتفاق والاتحاد[٥٤١].

ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن معظم قيادات الحركة العربية كانوا من السوريين[٥٤٢]، فكان من الطبيعي أن يهتم هؤلاء بمصير سورية ومستقبلها وهي وطنهم الأم.

٤- نشاطه السياسي ضمن حزب الاتحاد السوري :

استمر نشاط السوريين في القاهرة بالبحث عن صيغة تنظيمية تتولى تنظيم جهودهم والدفاع عن قضيتهم، فبعد أن اختاروا اللجنة السباعية التي حصلت على العهد البريطاني، شعروا بأهمية وجود هيئة دائمة تمثلهم، فجاء تأسيس حزب الاتحاد السوري في ١٩ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٨، وقد ضم في عضويته قطاعات واسعة من السوريين على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والسياسية وأصولهم الدينية والثقافية[٥٤٣].

وقد كان رفيق صاحب دور بارز في النشاط السوري الذي هيأ التربة المناسبة لظهور الحزب، خاصة أن رفيقاً كان من أبرز أعضاء اللجنة السباعية التي تولت تمثيل المسألة السورية آنذاك.

ولما انتخبت اللجنة المركزية الأولى للحزب كان رفيق أحد أعضائها[٥٤٤]، في حين كان الأمير ميشل لطف الله رئيسها والشيخ رشيد رضا نائباً للرئيس[٥٤٥].

---

(٥٤١) محمد حرب فرزات، الحياة الحزبية في سوريا، دراسة تاريخية لنشوء الأحزاب وتطورها(١٩٠٨-١٩٥٥) الطبعة الأولى، دمشق: الرواد، ١٩٥٥، ص٧٢

(٥٤٢) G.Ernest Dawn, The Rise Of Arabism In Syria, M.E.J, V.16,No.2, Spring 1962. P-148-149.

(٥٤٣) أمين سعيد، الثورة العربية، م٢، ص٣٧.

(٥٤٤) ومن أعضائها الآخرين، الشيخ كامل القصاب، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، خالد الحكيم، سليمان بك ناصيف، حسن بك حماده، الدكتور خليل مشاقه، وهبه العيسى، اسكندر عمون،

افتتح الحزب فروعاً كثيرة له في مصر وسورية، كان أشهرها فرع دمشق برئاسة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر[٥٤٦].

وبقي رفيق يمارس نشاطه السياسي لخدمة القضية السورية من خلال حزب الاتحاد الذي تحددت مبادؤه وأهدافه فيما يلي :

١- تحقيق استقلال سورية الطبيعية، بحدودها من طوروس شمالاً إلى العقبة جنوباً، ومن الفرات والصحراء شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً وتتضمن قانونه الأساسي بجمعية الأمم (أي عصبة الأمم).

٢- يكون الحكم فيها ديمقراطياً لا مركزياً ذات أحكام وقوانين مدنية، على أن تبقى أحكام الأحوال الشخصية على ما هي عليه .

٣- أن يكون القانون الأساسي ضامناً لحقوق الأقليات[٥٤٧].

وتحدث الحزب عن وجوب توحيد برامج التعليم في سورية، وجعل دمشق عاصمة صيفية وبيروت شتوية، والاستعداد للانضمام للدولة العربية الموحّدة عند قيامها مع المحافظة على كيان البلاد القومي[٥٤٨].

وقد جاء برنامج الحزب حلاً وسطاً بين الاتجاهات والتيارات الفكرية والسياسية كافة على الساحة السورية، ولكن هذا لم يمنع استمرار الخلافات بينها، فشهد الحزب انسحابات كثيرة خاصة من المسيحيين ودعاة التجديد التغريبي، مما أفسح المجال لتعميق

وغيرهم. انظر أمين سعيد أسرار الثورة العربية، ص٢٤٢، الدكتور الشوابكة، المرجع السابق، ص٢٨١-٢٨٢.

(٥٤٥) د. الشوابكة، محمد رشيد رضا، ص٢٨٢-٢٨٢. وكان من أعضاء اللجنة الإدارية للحزب كل من: الشيخ كامل القصاب، ود. عبد الرحمن الشهبندر، د. خليل مشاقه. والحلمون: اسكندر عمون وهبه العيسى وحسن حماده. انظر: سهيله الريماوي: الحياة الحزبية في سوريا، ١٩٢٠-١٩٤٥ رسالة دكتوراه جامعة عين شمس، ١٩٧٨، ص١٧.

(٥٤٦) د. الشوابكه، ن.م، ص ٢٨٢.

(٥٤٧) أمين سعيد الثورة العربية، م٢، ص١٤، سهيلة الريماوي، الحياة الحزبية في سوريا، رسالة دكتوراه، ص١٧-١٨.

(٥٤٨) محمد حرب فرزات، الحياة الحزبية، ص٧٢.

التوجه الإصلاحي الإسلامي في قيادة الحزب، كما هو واضح من نتائج اللجنة المركزية للحزب، التي جرى انتخابها بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٢١، فتشكلت من: السيد محمد رشيد رضا، الشيخ كامل القصاب، عبد الرحمن الشهبندر، الأمير حبيب لطف الله، ورفيق بك العظم[٥٤٩].

وكان من أبرز نشاطات حزب الاتحاد السوري أنه أول من احتج على تقسيم سورية إلى مناطق على أثر الاحتلال، كما كان أول من طالب باستفتاء السوريين في تقرير مصيرهم[٥٥٠].

ولما قرّر مؤتمر الصلح في باريس، إرسال لجنة التحقيق الأمريكية لجنة كنج – كراين (King Crane Commission)، تباحثت الأحزاب والتجمعات السورية في ضرورة اتخاذ موقف موحّد أمام اللجنة الدولية، وإبداء التصميم على نيل الاستقلال وصيانة وحدة سورية الطبيعية وإقامة حكومة ديمقراطية تدار على طريقة اللامركزية[٥٥١].

وقبل وصول اللجنة إلى سورية، سافر رفيق إلى سورية، وساهم في إعداد تقرير يمثل رأي حزب الاتحاد السوري ليقُدّم إلى اللجنة، وقد كان جوهر هذا التقرير المطالبة بوحدة سوريا الطبيعية واستقلالها استقلالاً تاماً خالياً من كل أشكال الوصاية أو الحماية أو غيرها من المسميات الدالة على الاستعمار[٥٥٢].

وقد التقى في دمشق في هذه الفترة عدد من قيادات الحزب، منهم رئيس الحزب ميشيل لطف الله والشيخ رشيد رضا، والشيخ كامل القصاب والدكتور الشهبندر، وخالد الحكيم واسكندر عمون، وقد قاموا بافتتاح فرع دمشق خلال هذه الزيارة، وقام الحزب بتمثيل دور المعارضة لفيصل في تلك المرحلة من عمر الحكومة العربية[٥٥٣].

---

(٥٤٩) د. الشوبكة. محمد رشيد رضا، ص٢٨٢-٢٨٤.

(٥٥٠) أمين الشورة، م٢، ص ٤١.

(٥٥١) د. الشوبكة. محمد رشيد رضا، ص ٢٨٣.

(٥٥٢) محمد سعيد البابي، رفيق بك العظم، مجلة التمدن الاسلامي، م٢، ج٣-٤، ص ٥٩١.

(٥٥٣) د. خيرية قاسمية- النشاط السياسي والاحزاب السياسية في سوريا، الفكر العربي، العدد ٢٢، ١٩٨١، ص ٥١٣

وقد أيد رفيق - خلال هذه الزيارة - ترشيح فيصل ملكاً على سورية الموحّدة المستقلة الديمقراطية، كما اقترح على المؤتمر السوري العام إعلان استقلال سورية في نظام ملكي يتولاه فيصل، وهذا ما صدر عن المؤتمر في ٨ آذار ١٩٢٠، وعُرض عليه مناصب عالية في الحكومة العربية، إلا أنه لم يقبل أياً منها، وعاد إلى القاهرة بسبب سوء أحواله الصحية(٥٥٤).

وفي القاهرة دعا إلى عقد اجتماع يضم ممثلين عن حزب الاتحاد السوري بمصر والحزب السوري - اللبناني والحزب السوري المعتدل، وفعلاً انعقد الاجتماع في ١٣ كانون الأول ١٩١٩، وبعد مداولات بعث ببرقية إلى مؤتمر الصلح - شدّد فيها على ضرورة منح سورية الاستقلال وصيانة وحدتها ومنح شعبها حق تقرير المصير، وجاء فيها : إن سورية المتحدة التي لا تتجزأ يجب إعادة تأليفها بوحدتها الوطنية السورية وسلامة أراضيها الكاملة حسب حدودها المعروفة.. ويكون نظام حكمها دستورياً ديمقراطياً مدنياً قائماً على شكل ولايات متحدة مع لا مركزية إدارية واستقلال داخلي في جميع الأقاليم(٥٥٥).

وبعد الاحتلال الفرنسي لسورية وإسقاط الحكومة العربية في دمشق عاد قادة الحزب، وأغلبية الزعماء السوريين إلى مصر، وبذلك ارتفعت وتيرة النشاط السياسي للجالية السورية، وتكاثرت الأحزاب والتجمعات السورية.

شعر رفيق بضرورة تجميع طاقات جميع السوريين جميعهم لمقاومة الاحتلال الفرنسي وتحقيق استقلال سورية، فدعا إلى عقد مؤتمر كبير تشارك فيه الأحزاب السورية، وتم انعقاده في نادي حزب الاتحاد السوري، وبمشاركة ما يزيد عن مئة من رجالات سورية وزعمائها ومثقفيها، فلم يتردد أحد في تلبية الدعوة.

افتتح المؤتمر بخطاب من رفيق العظم حثّ فيه على توحيد جهود السوريين لإنقاذ بلادهم من الاحتلال، واقترح انتخاب لجنة تقوم بالتنسيق بين الأحزاب السورية تسمى

---

(٥٥٤) دروزة، مذكرات وتسجيلات، الطبعة الأولى، دمشق: مطبعة صمدة ١٩٨٦، ج٢، ص ١٣١.

(٥٥٥) محمد سعيد لبابي، رفيق العظم، مجلة التمدن الاسلامي، م٢، ج٣-٤، ص ٥٩١

لجنة الصلة، وتعمل من أجل توحيد مواقف الأحزاب السورية الداعية إلى الاستقلال والمناهضة للاحتلال، وبذلك يتم استبعاد دعاة الاحتلال ومروجيه.

وقبل المؤتمر هذا الاقتراح، وجرى انتخاب اللجنة من ثلاثة عشر عضواً، منهم : الشيخ رشيد رضا، والشيخ كامل القصاب، وخالد الحكيم، وعوني عبد الهادي، وشكري القوتلي، وساطع الحصري، وسعيد حيدر، وأسعد داغر، وانتخب الأمير ميشيل لطف الله رئيساً لها[٥٥٦].

ولعل من أبرز نشاطات اللجنة، اتخاذها قراراً بالتوسط بين الشريف الحسين وابن سعود، وحثهما على مساندة القضية السورية، وقد جرى تشكيل وفد من الشيخ كامل القصاب وعوني عبد الهادي وعضوين آخرين للقيام بالمهمة، من خلال زيارة عمان ومكة والرياض، ولكن سفر الوفد لم يتم، وتعليل ذلك حسب رأي أسعد داغر بأن أصابع الأجانب قد بدأت تدس بيننا، وتم حلّ لجنة الصلة بين الأحزاب فلم تعمّر طويلاً[٥٥٧].

وظل رفيق يعمل في إطار هذا الحزب وبقي على صلة به إلى أن ازدادت أوضاعه الصحية سوءاً، فاعتكف في السنتين الأخيرتين من حياته في بيته معتزلاً النشاطات جميعها[٥٥٨].

---

(٥٥٦) د. وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية- السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، ١٨٦٠-١٩٢٠، مساهمة في دراسة أصول تكوينها الاجتماعي، بيروت: معهد الانماء العربي، ١٩٧٦، ص٢٤٤.

(٥٥٧) أسعد داغر، مذكراتي. ص١٥٢.

(٥٥٨) أسعد داغر، مذكراتي. ص ١٥٢ – ١٥٣، ص ١٩٧.

الفصل الخامس

نشاطه السياسي في سبيل القضية الفلسطينية

١- اهتمامه المبكر بمتابعة النشاط الصهيوني في فلسطين

٢- فكرة التفاهم مع الصهيونيين

٣- فكرة المؤتمر العربي – الصهيوني

٤- نشاطه بعد صدور وعد بلفور وزيارته لفلسطين

نشاطه السياسي في سبيل القضية الفلسطينية

١- اهتمامه المبكر بمتابعة النشاط الصهيوني في فلسطين :

عرفنا أن من أبرز إيجابيات السلطان عبد الحميد هو موقفه الحازم من الصهيونية، ووقوفه في وجه أطماعها المهددة لفلسطين والبلاد العربية المجاورة. ولعل الاعتقاد بكونه أحد ضحايا الصهيونية أمر غير منافٍ للحقيقة. فقد كان عقبة كأداء في وجه المشاريع اليهودية، وخاصة مسألة الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ورفض كل الإغراءات المالية التي قدمتها له الصهيونية، مقابل وثيقة تسمح بالاستيطان اليهودي في فلسطين[٥٥٩].

وقد زالت سياسة الحزم والشدة في مواجهة الأطماع اليهودية، بزوال حكم السلطان عبد الحميد وحلّ محل هذه السياسة بعد انقلاب الاتحاديين سنة ١٩٠٨، سياسة جديدة قائمة على التساهل في تطبيق القيود السابقة والعطف على النشاط الصهيوني[٥٦٠].

لقد شكل اليهود نسبة عالية من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي[٥٦١]، وتولى عدد من اليهود مناصب هامة في الحكم الاتحادي، فقد تولى ثلاثة منهم مناصب وزارية في وزارة محمود شوكت باشا وهم : نسيم مازلياح، مبعوث إزمير الاسرائيلي، ومفوض الجمعية الصهيونية ناظراً للتجارة والزراعة، وجاويد بك ناظراً للمالية، وساريا أفندي رئيس تحرير جريدة (جون ترك) الصهيونية، ناظراً للأشغال العامة[٥٦٢]، وهذه الحكومة هي التي أمرت بتخفيف القيود المفروضة للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين[٥٦٣].

وكان لليهود دورهم البارز في تأصيل الفكرة الطورانية، فقد ساهمت كتابات ليون كاهون اليهودي، وناظم بك التركي، وخالدة أديب هانم من يهود الدونمة، في وضع الأسس الفكرية للحركة الطورانية، واعتبرت كتاباتهم بمثابة دستور للحركة. كما كانت

---

(٥٥٩) اسعد داغر، مذكراتي، ص١٥٢-١٥٣، ص١٩٧.

(٥٦٠) د. عبد العزيز عوض، مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث ص٣٠ وص٥٧.

(٥٦١) د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني وصداه في الشرق ص٦١-٦٢.

(٥٦٢) انطونيوس، يقظة العرب، ص١٧٦.

(٥٦٣) د. الشوبكي، محمد رشيد رضا، ص٣٢٥.

كتابات موئيز كوهين اليهودي ذات دور بارز في التأثير على سياسة الاتحاديين القومية وسياسة الكماليين فيما بعد[٥٦٤].

وهذا التغلغل اليهودي والماسوني في جمعية الاتحاد والترقي، أثار شكوك العرب من حوفا، وزاد في مخاوفهم منها، وقد ثبت صحة هذه المخاوف مع مرور الأيام عندما بدأ الاتحاديون بإظهار النزعة التركية المتعصبة، والتمادي بالانتقاص من قيمة الدين في الحياة[٥٦٥].

وعاد رفيق العظم من زيارته للاستانة في صيف ١٩٠٩، مدركا مدى تغلغل اليهود في جمعية الاتحاد والترقي، وتحدث عن دور العنصر الإسرائيلي في دعم الثورة الاتحادية ومساندتها في مقالة نشرها في جريدة المقطم بتاريخ ١٣/ ٨/ ١٩٠٩، وبيّن إسهامهم في الجيش الزاحف على الاستانة للدفاع عن الدستور، ودورهم في خلع السلطان عبد الحميد وتوقع أن يكون لهم مكانة وشأن في العهد الدستوري، بسبب نفوذهم داخل جمعية الاتحاد والترقي في سالونيك، بسبب سيطرة يهود الدونمه على معظم تجارة سالونيك، وبسبب ثقة الاتحاديين بهم وهذا سيؤدي إلى زيادة عدد المهاجرين اليهود الأجانب إلى البلاد العثمانية ليستعمروا في العراق وغيرها من أجزاء الدولة الخالية من السكان[٥٦٦].

ونلاحظ الصيغة المحايدة في حديث رفيق، وعدم شعوره بأية خطورة تترتب على هذه العلاقة الوثيقة بين الاتحاديين واليهود واعتبرها علاقة طبيعية لا تثير القلق، حتى أنه لم يتطرق لأطماع اليهود في فلسطين، وحصر رغبتهم في الهجرة إلى قفار العراق والاراضي الخالية في الدولة، ولم تر هذه الهجرة قلقه، وان كنا نسجّل له توقعه المبكر بدور اليهود في الحكومة الاتحادية وتأثيرهم في سياسة جمعية الاتحاد والترقي.

---

(٥٦٤) د. الشوبكة، محمد رشيد رضا، ص٣٢٥.

(٥٦٥) د. زين نور الدين زين، نشوء القومية، ص ٨٦- ٨٧ .

(٥٦٦) د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني وصداه من الشرق ١٩٠٨- ١٩١٨، بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث ١٩٧٣، ص٤٦.

وفي وقت لاحق كتب مقالة في جريدة الحضارة[٥٦٧]، التي كان يصدرها العرب في الأستانة. تحدث فيها حول الخطر الصهيوني على فلسطين. وقد استطاع الآن تحديد هدفها: باستعمار بقعة من الأرض ليقيموا عليها "ملك اسرائيل" لكن الخلاف قائم بينهم حول تحديد هذه البقعة ، بين من يرى انها "أورشليم" لا غير ومن يقبل بأي مكان مناسب؛ لتقام عليه الدولة اليهودية. مع وجود يهود يعارضون الحركة الصهيونية من أساسها.

وقد اعتقد خطأ بأن الدولة اليهودية لن تقوم في القدس للأسباب التالية:

١- معارضة الشعوب المسيحية لقيام مملكة اسرائيل في بيت المقدس. وانها سوف تضغط على حكوماتها لمقاومة اليهود.

٢- معارضة قطاع واسع من اليهود فكرة إقامة كيان سياسي يهودي. وذلك لخوفهم من فقدان حقوق المواطنة في دولهم الحالية. ولأنهم يعيشون بحرية في تلك الدول. ولأن فلسطين غير قادرة على استيعابهم برؤوس أموالهم الكبيرة.

٣- معارضة الدولة العثمانية. ووقوفها في وجه "إعادة ملك إسرائيل في أورشليم" ، وهي دولة قوية ليس من السهل أن "يستقطع من أرضها مثل ذلك الجزء العظيم من سورية ، إلا بعد حرب تشيب لها الولدان".

وعلى الرغم من اعتقاده بمستحيلة قيام دولة يهودية على أرض فلسطين ، فإن الهجرة اليهودية إلى فلسطين تشتمل في نظرة على خطرين: **الأول** : بقاء اليهود محتفظين بجنسيتهم الأجنبية وعدم تجنسهم بالهوية العثمانية. **والثاني** : أنهم شعب متقدم متعلم ومنتظم في جمعيات وهيئات ، ويتلقى التأييد والمساعدة من الجمعية الصهيونية.

ولمواجهة هذه المخاطر لا بد من فرض الجنسية العثمانية عليهم ، ثم الاهتمام بنشر التعليم والاساليب الزراعية الحديثة بين العرب في فلسطين. خاصة أن المطلع على أحوال اليهود والعرب في فلسطين، يدرك "أن خطر تنازع البقاء محيط بسكان البلاد" ولا بد من بذل جهود مضنية لضمان بقائهم ومنافستهم لليهود "وإلا أصبحوا طعمة لهم وكان

---

(٥٦٧) رفيق العظم "اليهود في فلسطين والجمعية الصهيونية" الحضارة، العدد(٣٨)، ٢٩ كانون الأول ١٩١٠ ص١ –نظر الملحق رقم ٨

مصير البلاد حتماً بحكم بقاء الأنسب، وقد حمّل الحكومة العثمانية مسؤولية التقصير في فعل ذلك فهي إن افتتحت مدرسة بعد الحاح طويل ، لا يكون لنشر العلم وتعميمه بل لنشر اللغة التركية[٥٦٨].

ونادى باتخاذ وسائل عملية لإنقاذ العنصر الإسلامي في فلسطين مثل : تأسيس الجمعيات الخيرية والتعاونية كما يفعل اليهود والعمل على نشر التعليم، وإلا فإن مصيرهم الاستعباد لجيرانهم المتعلمين القادرين، وأن يكونوا عندهم اجراء إلى حين، ثم يتقرضون أو ينزحون عن البلاد مكرهين بحكم العجز عن مداناة غيرهم ومباراته، فهل لأهل فلسطين عامة والقدس خاصة، آذان يسمعون بها وعيون يبصرون بها، فلا يُعلقون آمالهم على غير أنفسهم، ويعتبرون بما يفعله سواهم[٥٦٩].

ومن الواضح أن رفيق يحاول استشراف للمستقبل، وتحديد نتائج الخطر الصهيوني على فلسطين وأهلها.

لقد أثار هذا المقال ردود فعل واسعة ، في الصحافة، حيث برز من يدافع عن وجهة النظر الصهيونية، وينتقد مقالة رفيق وتخوفه من أن تكون الهجرة اليهودية مصدر خطر على الدولة العثمانية وعلى فلسطين، ويتفق معه فيما ذهب اليه من أن الهدف الصهيوني لا يصل إلى حد اقامة دولة يهودية في فلسطين، مع التذكير بالفوائد المتحصلة عن هجرة اليهود إليها[٥٧٠].

وهذا دفع به لكتابة مقالة جديدة نشرها في جريدة المقطم بتاريخ ١٧/٣/١٩١١، عبّر فيها عن دهشته من ردود الفعل التي أثارتها مقالته، على الرغم من كونه لم يتحامل على اليهود، واكتفى بالتنبيه إلى الخطر المتوقع من تزايد هجرتهم إلى فلسطين، واعتبره محصوراً في الوجهة الطبيعية، وليس هو من الوجهة السياسية، ودعا إلى أن يجاري الاهالي اليهود

---

(٥٦٨) رفيق العظم اليهود في فلسطين والجمعية الصهيونية الحضارة، العدد ٣٨ السنة الأولى ٢٩ كانون الأول ١٩١٠، ص١

(٥٦٩) رفيق العظم اليهود في فلسطين والجمعية الصهيونية الحضارة، العدد ٣٨، ٢٩ كانون الأول ١٩١٠، ص١.

(٥٧٠) د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني وصداه في الشرق، ص٨٤-٨٦.

في اتخاذ وسائل الترقي الطبيعية، وهو لا يرى أن الحكومة مؤاخذة، اذا ما منعت الهجرة إلى فلسطين في ظل الانحطاط والتخلف الذي يخيم على سكانها[٥٧١].

ونستنتج من كلامه: أنه يحصر الاخطار الناتجة عن التغلغل الصهيوني في المجالات الاقتصادية والاجتماعية أولاً، وتأتي بعدها المخاطر السياسية، على الرغم من تصريحه بعدم وجودها حالياً، إلا انها متوقعة في ظروف معينة، ومما يسجل له تركيزه على المواجهة بوسائل عملية، من خلال نشر التعليم وتطوير الزراعة وتأسيس الجمعيات الخيرية والتعاونية، كما انه لا يرى سبباً للاعتراض، إذا منعت الدولة الهجرة إلى فلسطين في ظل الخلل الواضح في الموازين بين العرب واليهود.

٢- فكرة التفاهم مع الصهيونيين :

معلوم ما أثارته نتائج حرب طرابلس، وبعدها حرب البلقان، من انعكاسات خطرة على قوة الدولة وهيبتها، وعلى طبيعة نظرة العرب لها كقوة حامية لبلادهم، باتت تبدي عجزاً متواصلاً عن القيام بواجباتها، مما دفعهم إلى التفكير الجدي في مستقبلهم، وفي الوقت نفسه بدأ الاتحاديون بالتفكير جدياً في كيفية الإفادة من العلاقة مع الصهيونية في ظل الوضع الاقتصادي الصعب الذي تعانيه الدولة منذ الحرب مع إيطاليا[٥٧٢].

ومن المتوقع بأن تفكير حزب اللامركزية بإجراء اتصالات مع الحركة الصهيونية إعتبارا من ربيع، ١٩١٣، جاء ضمن محاولات الاصلاحيين العرب للبحث عن حلفاء ضد الاتراك ولتخوّف العرب من تواطؤ الاتحاديين مع الصهيونية على حساب المصالح العربية في فلسطين، خاصة لما رأوا مقدار تغلغل اليهود في جمعية الاتحاد والترقي، وقد يكون للعرب رغبة في الافادة من أموال اليهود وخبراتهم في نهضة البلاد السورية في ظل حكم لا مركزي ينشدونه[٥٧٣].

وفي ٢١ شباط ١٩١٣ صدرت أول دعوة عن حزب اللامركزية للتفاهم بين العرب والصهيونيين على لسان داوود بركات محرر جريدة الأهرام، الذي دعا إلى التفاهم بين

---

(٥٧١) ن.م، ص ٨٦

(٥٧٢) Neville J.Mandel, The Arab and Zionism Before World War 1. University Of California Press,1976,P.133,P.141

(٥٧٣) د. عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص ١٤٧ – ١٤٩. Mandel. Ibid,P.154

العرب واليهود وعدّ الهجرة اليهودية ضرورية لتطوير البلاد ثم كتب حقي العظم سكرتير حزب اللامركزية مقالة في الأهرام (٢٥ شباط ١٩١٣)، يدعو فيها للتفاهم العربي الصهيوني[٥٧٤]، وفي أوائل نيسان ١٩١٣ بعث ابراهيم سليم نجار أحد أعضاء حزب اللامركزية برسالة إلى سامي هوتشبرغ (Sami Hochberg) رئيس تحرير جريدة (جون ترك- Legeune Turc) التي تصدر في الاستانة باللغة الفرنسية، يدعوه فيها إلى إجراء حوار مع اللامركزيين العرب لتحقيق التفاهم بين العرب والصهيونيين[٥٧٥]، ويطلب منه الإسراع في تحقيق ذلك، وإخبار الدكتور فكتور جاكبسون (D.R Victor Jacobson) ممثل الحركة الصهيونية في الاستانة بهذه الرغبة[٥٧٦].

وفي ٢٥ ابريل ١٩١٣ بعث أحد الصهاينة المصريين إلى المكتب الرئيسي للحركة الصهيونية في برلين يخبر بأن ممثلين عن حزب اللامركزية يرغبون في التفاهم مع الحركة، وأن داوود بركات أخبره بأن بعض اللامركزيين الذاهبين للمشاركة في المؤتمر العربي الأول في باريس في شهر حزيران، يؤيدون إجراء محادثات مع الصهيونيين في أوروبا للوصول إلى التفاهم[٥٧٧].

وفي ربيع ١٩١٣ عبّر رشيد رضا عن ضرورة التفاهم بين العرب والصهيونيين، حسب رسالة من نسيم ملول[٥٧٨] بعثها من القاهرة إلى المكتب الصهيوني في يافا[٥٧٩].

وسارع هوتشبرغ إلى ابلاغ د. جاكبسون (Jacobson) بمضمون الرسالة التي تلقاها من ابراهيم نجار، وشدّ الرحال إلى القاهرة فوصلها في نهاية (إبريل) نيسان ١٩١٣، وفيها

---

(٥٧٤) Mandel. Ibid. P.P.150- 151

(٥٧٥) د. خيرية قاسمية النشاط الصهيوني وصداه في الشرق، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٥٧٦) Mandel. Ibid. P.151

(٥٧٧) Mandel. Ibid. P.151

(٥٧٨) نسيم ملول: يهودي مصري من أصل ليبي، عمل بنشاط في صفوف حزب اللامركزية وفي نفس الوقت كان من أنشط العاملين في الحركة الصهيونية في فلسطين. وقد قام بنشر أفكار حزب اللامركزية في فلسطين وكان يترجم كل ما يقال حول الحركة العربية في الصحافة العربية ويقدمه للحزب. كما قام بترجمة مقالات رفيق العظم إلى العبرية ونشرها في جريدة (ها حيروت) العبرانية. انظر (خيرية. النشاط الصهيوني، ص ١٦٧).

(٥٧٩) وحول موقف رشيد رضا من الصهيونية، انظر د. الشوابكة، محمد رشيد رضا، ص٢٢٤- ٢٢٣، Mandel. Ibid. P154

التقى بعدد كبير من اللامركزيين العرب، كان رفيق العظم في مقدمتهم[٥٨٠]. ومن القاهرة سافر إلى بيروت حيث التقى هناك بعدد من أعضاء الجمعية الاصلاحية[٥٨١].

وبعد أن عاد هوتشبرغ في منتصف أيار إلى الاستانه اعد تقريراً أوضح فيه طبيعة المواقف المختلفة بين الإصلاحيين العرب الذين التقاهم من مسألة الهجرة اليهودية. فقد أبدى المسيحيون عطفاً عليها في مواجهة التفوق العددي للمسلمين، في حين لم يكن لدى المسلمين اتفاق على هذه المسألة، فهم بين معارض ومؤيد بشروط معينة. وخرج بانطباع ان الذين التقاهم راغبون في عقد اتفاق مع الحركة الصهيونية، على أن لا يبت في أمر الاتفاق قبل انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس في حزيران (يونيو) ١٩١٣[٥٨٢].

وقد نقل رفيق إلى هوتشبرغ اثناء لقائهما في القاهرة قرار حزب اللامركزية الصادر في ٣٠ ابريل ١٩١٣، اثناء وجود هوتشبرغ في القاهرة – ويتعلق بمساواة اليهود العثمانيين في الحقوق في الادارة اللامركزية، كغيرهم من العناصر في الولايات العربية. وأنه يتم منح اليهود العثمانين كامل حقوق العثمانيين. أما اليهود الاجانب يمنحون حقوق الأجانب[٥٨٣].

كما أكد أهداف اللامركزيين في جعل الدولة العثمانية مملكة قوية. وهنا يتحقق بالرقي الاداري والاقتصادي والعلمي[٥٨٤].

ولخّص هوتشبرغ موقف رفيق من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بأنه يقر بالمكاسب الثمينة التي تتحقق بالاستفادة من أموال المهاجرين اليهود وقدراتهم وذكائهم. لهذا فهو

---

(٥٨٠) Mandel, Ibid, P154.

(٥٨١) من الشخصيات التي التقاها في القاهرة: رفيق العظم، ابراهيم سليم نجار، داوود بركات صاحب اول دعوة للتفاهم بين العرب والصهيونيين، واسكندر بك عمون وحقي بك العظم، وخليل زينيه، وعمد مختار بيهم. فقد كان الأخيران في زيارة للقاهرة، اما في بيروت فقد التقى بكل من: الشيخ احمد حسن طبارة (محرر الاتحاد العثماني) ورزق الله ارقش. وعدد آخر من الشخصيات بحيث وصل عدد من التقاهم عشرون شخصية، من اعضاء حزب اللامركزية وجمعية بيروت الإصلاحية. انظر: Mandel, Ibid, P.154-155

(٥٨٢) Mandel, Ibid, P.P151-152, 155-157

(٥٨٣) Mandel, Ibid, P158. د. خيريه قاسميه، النشاط الصهيوني في الشرق وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث بيروت، ١٩٧٣، ص ١٦٤

(٥٨٤) د. خيرية قاسمية، ن.م ص ١٦٢

يرى أن من الخطأ رفض هذه المساعدة، وفي الوقت نفسه يدعو إلى ضرورة وضع نظام يضبط هذه الهجرة كما في كل البلاد المتمدنة"[٥٨٤].

ومضى هوتشبرغ يتحدث في تقريره عن ضرورة السفر إلى باريس لمتابعة أعمال المؤتمر العربي الأول الذي سيكون على جدول أعماله مناقشة قضية هامه بالنسبه لليهود وهي مسألة الهجرة من وإلى سورية، وعبر عن طموحه في أن يتخذ المؤتمر قراراً يؤيد الهجرة اليهودية إلى فلسطين[٥٨٦]. واعتبر نفسه الأقدر على التفاهم مع العرب بحكم وجوده في الأستانة، وبالتالي قدرته على القيام بدور المصلح بين العرب والحكومة، وعرض تنفيذ خطة تقضي بالعمل على إدخال رفيق العظم، وعبد الحميد الزهراوي في الوزارة وذلك بوساطة من بساريا أفندي وزير الأشغال العامة، وجاويد بك وزير المالية، وهو يعتقد بأن المعتدلين من العرب سيوافقون على ذلك بشرط أن تعلن الوزارة برنامجاً يتفق مع أسس الاصلاح اللامركزي. واعتبر هنا أكبر وسيلة لخدمة المصالح الصهيونية، لأن الحكومة العثمانية ما زالت تتردد في اتخاذ قرارات لصالح الحركة الصهيونية خوفاً من احتجاج العرب وفقدان ثقتهم. أما إذا دخل العرب الوزارة فسيتم مناقشة الأمر بصراحة تامة ويكون القرار بإجماع الطرفين.

تابع هوتشبرغ أعمال المؤتمر العربي الأول بباريس ١٩١٣ الذي أحجم عن بحث المسألة اليهودية وتجاهلها تماماً، كما تجاهل بحث الهجرة اليهودية على الرغم من العدد الكبير من البرقيات التي انهالت عليه من فلسطين، فقد بلغت ١٣٩ من أصل ٣٨٧ برقية تأييد وصلت إلى المؤتمر[٥٨٧].

وفي باريس أجرى هوتشبرغ قبل انعقاد المؤتمر وبتنسيق من اسكندر عمّون، محادثات مع عبد الحميد الزهراوي، وبعد انتهاء أعمال المؤتمر التقى مع الزهراوي وعبدالكريم الخليل في ٢٥-٦-١٩١٣، وقد صرّح له الزهراوي بأنه مقتنع بأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ليست أمراً مرغوبا فيه فقط بل ضروري!؟

---

(٥٨٥) د. خيريه قاسمية، ن.م، ص ١٧٥، Mandel, Ibid, P157- 158

(٥٨٦) د. خيريه قاسمية، ن.م. ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٥٨٧) د. خيريه قاسمية، ن.م. ص ١٦٩ - ١٧١، Mandel, Ibid, P163

وأبدى الزهراوي وعبد الكريم الخليل مناصرتهما لفكرة عقد اتفاق رسمي بين العرب والصهيونيين. وفي لقاء آخر مع الزهراوي بتاريخ ٢٦-٦-١٩١٣، أبدى موافقته على الهجرة اليهودية شريطة أن يحمل المهاجرون الجنسية العثمانية، وأن يكون هناك ضمان بعدم إخراج العرب من الأراضي التي يبيعونها لليهود! ويقول هوتشبرغ إن بعض من التقاهم في المؤتمر عرضوا عليه فكرة عقد اتفاق سري بعيداً عن أنظار الاتحاديين لكنه لا يخبرنا من هم هؤلاء ولا طبيعة الاتفاق الذي ينوون عقده مع الصهيونيين. ولو أنه أشار إلى أن العرب كانوا يجرون المحادثات معه ويتعمدون أن يعرف الاتحاديون بذلك ليستعملوا هذه المحادثات ورقة ضغط في مفاوضاتهم مع الاتحاديين. وليقوى مركزهم التفاوضي. ولاحظ أن حماسهم للتفاهم مع الصهيونيين تراجع بعد ابرام اتفاقية باريس مع الاتحاديين.[٥٨٨]

وفيما بعد نشر رفيق في المقطم مقالاً بتاريخ ٢٩ أيار ١٩١٤، عن "المسألة الصهيونية وكيف يدفع خطرها"[٥٨٩]، ويبرر عودته لمناقشة الموضوع بازدياد القلق في نفوس السوريين من تساهل الحكومة، وعدم أخذ الصهيونيين بنصيحته حول ضرورة اتباع وسائل تؤلف بينهم وبين العرب من سكان سورية وفلسطين بل اعتمدوا على تساهل الحكومة معهم؛ مما أدى إلى "نهوض الشعب السوري للوقوف في وجوههم وتعطيل حركتهم".

وطالب أبناء سورية وفلسطين بالمسارعة لتدبر أمورهم مع الصهيونيين بعد هجوم ذلك التيار المخيف على بلادهم، " ..... فإن نوم ساعة اليوم عما يحيط بالبلاد من العوامل السيئة يفضي إلى موت العرب من سكان سورية موتاً أبدياً. وللوقوف في وجه هذا التيار المخيف المتمثل في الهجرة اليهودية ولحماية الوطن يرى ضرورة اتخاذ وسائل عملية وعدم الاكتفاء بالشكوى والعويل.

---

(٥٨٨) Mandel, Ibid, P.P 161- 163

(٥٨٩) يبدو أن رفيق كتب المقال قبل ٢٩ أيار (مايو) ولكنه نشر متأخراً، كما أوضح ذلك في رسالة منه إلى محمود المحمصاني. انظر ملحق رقم (١).

وعرض مجموعة من الاقتراحات المتضمنة عدداً من الخطوات والوسائل، مثل:

- مطالبة الحكومة بمسح أراضي قرى سورية وفلسطين وتقسيمها على أصحابها، والغاء الملكية الشائعة بين أهل القرية الواحدة.

- مطالبة الحكومة بوضع قانون خاص لحماية ملكية الفلاح والأرض، وإلغاء قانون التملك على الشيوع، ومنع الفلاح منعاً باتاً من بيع عدد معين من الدونمات من أرضه، لا بيعاً اختيارياً ولا إجبارياً.

- تأسيس النقابات الزراعية برؤوس أموال الأهالي ليستمدوا منها عند الحاجة بفوائد زهيدة تغنيهم عن الاستدانة من المرابين أو الاضطرار لبيع الأرض.

- مطالبة الحكومة بقيام البنك الزراعي بحماية أملاك الفلاحين، وتعديل قانونه للنص على الوسائل الكفيلة بحماية الاراضي من المرابين الصهيونيين، والزام البنك بشراء كل قرية تعرضها الحكومة أو كبار المالكين للبيع، وتقسيمها بعد ذلك قطعاً تباع لصغار الفلاحين الوطنيين بالاقساط وبفوائد خفيفة، وإلا فيقوم الاهالي بتأليف شركات زراعية لهذا الغرض ولشراء الأراضي المستنقعات والبور واصلاحها وتقسيمها على الفلاحين كما يفعل الصهيونيون[٥٩٠].

وحذر الحكومة والاهالي من نتائج الإهمال، وعدم الأخذ بوسائل عملية لمواجهة هذا الخطر فلا أقل من أن يكونوا بعد جيل أو أقل من جيل عبيداً للصهيونيين أو يشردوا عن مواطنهم جميعاً – السري والفقير ... فليتداركوا الخطر من الآن ... وليطالبوا أنفسهم وسراتهم وذوي الرأي بما يتعلق فيهم من هذه الوسائل ...»[٥٩١]، ونلاحظ نبرة جديدة في حديثه عن الصهيونية وشعور واضح بأخطارها، ودعوة صريحة وقوية لمواجهة هذه الاخطار بوسائل عملية فعّالة، وقد أثارت هذه المقالة المخاوف لدى الصهيونيين.

٣- فكرة المؤتمر العربي – الصهيوني

ونشرت المقطم ثلاثة مقالات بعنوان "بحث جليل في المسألة الصهيونية – زعيم صهيوني يرد على رفيق العظم، ويوجب اتفاق العرب والإسرائيليين" في ٢٧، ٢٨، ٢٩

---

(٥٩٠) د. خيريه قاسمية. النشاط الصهيوني وصداه في الشرق، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٥٩١) د. خيريه قاسمية، ن.م، ص ٢٢٤.

أيار ١٩١٤، سلم فيها الزعيم الصهيوني بمعظم الملاحظات الواردة في مقال رفيق المنشور بتاريخ ١٤/٤/١٩١٤ للاتفاق مع أهل البلاد بتساهل الطرفين. واقترح عقد مؤتمر عربي – صهيوني يشارك فيه ستة مندوبين عن كل طرف ، ويجتمع المؤتمر في إحدى قرى فلسطين أو في بيروت أو في القاهرة لدراسة أحوال فلسطين والتعرف إلى مطالب العرب وأهداف الصهيونيين وتطلعاتهم ووضع شروط للهجرة في المستقبل(٥٩٢).

وفي هذه الأثناء سافر نسيم ملول إلى القاهرة وهناك أجرى محادثات مع أقطاب حزب اللامركزية ، بدى له منها وضوح الاعتقاد السائد لديهم بعدم رغبة الصهيونيين في التفاهم مع العرب، بل إنهم يدعمون جمعية الاتحاد والترقي؛ مما يؤكد الاشاعة التي تقول بأنهم يسعون لشق العرب والترك وإثارة الخلاف بينهم. حتى أن رفيقاً أعد منشوراً يُعمم على فروع الحزب جميعها يصف فيه زوال الأوهام مع الصهيونيين. فاقترح ملول على حقي العظم بدلاً من إصدار هذا المنشور البدء في التحضير لعقد المؤتمر ، وسوف يتولى هو الطلب من سوكولوف المجيء إلى القاهرة لاجراء الترتيبات الضرورية على أن توقف الحملات الصحفية فيما يتعلق بالعلاقات العربية – الصهيونية، كون المقالات المنشورة تركز على جوانب الخلاف، في الوقت الذي يميل فيه الجانبان للتفاهم. وقد قبل حقي هذه الافكار ، وطلب من نسيم ملول مناقشتها مع رفيق بك(٥٩٣).

ولما اجتمع مع رفيق ، أبدى الأخير موافقته على فكرة المؤتمر الذي سيكون مفيداً ، اذا عقد في مصر، ودُعي لحضوره وجهاء من فلسطين. ولا مانع لديه من وقف الكتابة في الصحف حول المسألة الصهيونية في الوقت الحالي الذي تسوده المجادلات العقيمة، وسوف يتكلب فكرة العمل على الكلام(٥٩٤).

وقد بذل ملول جهوده مع المقطم والاهرام وغيرها من الصحف لوقف الحملة الصحفية ضد الصهيونية، والكتابة في موضوع التفاهم العربي الصهيوني(٥٩٥). وفي

(٥٩٢) ن.م، ص ٢٣٤-٢٣٥، Mandel, Ibid, P.190

(٥٩٣) Mandel, Ibid, P. 191

(٥٩٤) Ibid, P. 192

(٥٩٥) Ibid, P.P. 129- 193

الوقت نفسه قام نقيف بك الخالدي بالدور نفسه في سبيل توقف صحف بيروت عن الحديث حول المسألة الصهيونية[٥٩٦].

جاء الرد من رفيق على حديث الزعيم الصهيوني المنشور في المقطم في مقال نشره في المقطم (٣٠/ ٥/ ١٩١٤)، بيّن فيه مناصرته لفكرة الوفاق والتفاهم شريطة أن لا يتعارض ذلك مع مصلحة الوطن، فهي مقدمة على كل شيء، وشريطة أن يثبت اليهود حسن نواياهم. وأبدى موافقته على فكرة عقد المؤتمر لتبادل الآراء بصراحة واعتدال، وان لجنة حزب اللامركزية بمصر مستعدة اذا خابرها الصهيونيون أن تعقد هذا المؤتمر في مصر، وتبذل المساعي لدى سراة البلاد الفلسطينية؛ ليتخبوا من يمثل وطنهم في هذا المؤتمر أحسن تمثيل، عساه يكون من وراء ذلك خير للفريقين ...."[٥٩٧]

وعلى الرغم من المعارضة التي ظهرت في الصحافة العربية لفكرة عقد المؤتمر[٥٩٨]، فان الجهود ظلت متواصلة في سبيل الاعداد له، وشارك في هذه الجهود شخصيات عربية خارج اطار حزب اللامركزية. ولعل تنكر الاتحاديين لاتفاقية باريس مع العرب، واستمرارهم في انتهاج سياسة التتريك. كان من العوامل المشجعة لهذه الشخصيات على استئناف الحديث حول ضرورة التفاهم العربي الصهيوني وعقد مؤتمر مشترك[٥٩٩].

لقد جرت لقاءات عربية - صهيونية في الاستانة شارك فيها عن الصهيونيين (د.فيكتور جاكوبسون) الذي كان يؤكد بان أول مادة في برنامج عمل الصهيونيين هي التفاهم مع العرب، وعن الجانب العربي شارك الزهراوي، وسليمان البستاني[٦٠٠]. كما التقى جاكوبسون بعدد من مبعوثي بيروت وفلسطين[٦٠١].

ووصلت لرفيق رسالة من أسعد داغر، المقيم في الأستانة بتاريخ ٣/ ٦/ ١٩١٤، يخبره فيها أنه قد عرض مجموعة من الشروط على د. فكتور جاكوبسون قبل سفره إلى

(٥٩٦) Ibid, P. 199

(٥٩٧) د. خيريه قاسمية، ن.م، ص ٢٢٧ - ٢٢٩

(٥٩٨) حول هذه المعارضة انظر، خيريه قاسميه. النشاط الصهيوني وصداه في الشرق. ص ٢٤٠ - ٢٤٣.

(٥٩٩) Mandel, Ibid, P. 186

(٦٠٠) Mandel, Ibid, P.P. 186- 187

(٦٠١) د. خيريه قاسمية، ن.م، ص ٢٤٧

أوروبا. وقد بعث إليه جاكوبسون برقية يخبره فيها بأن اللجنة التنفيذية للحركة الصهيونية توافق على هذه الشروط مبدئياً. ويطلب داغر من العظم الاستعداد والتحضير للمفاوضات مع الصهيونيين. أما الشروط التي وافق عليها الصهاينة؛ فهي: تحديد عدد المهاجرين اليهود لفلسطين. وتعليم اللغة العربية في المدارس اليهودية، والمحافظة على حقوق الفلاحين العرب، وإنشاء مدارس خاصة بالعرب، ومساعدة المصارف اليهودية للعرب، وتشكيل لجنة لحل المشكلات المحلية في فلسطين(٦٠٢).

وعلى صعيد آخر كان الزعيم الصهيوني "ناحوم سوكولوف" يقوم بجولة في سورية وفلسطين. وقد ساعده نظيف بك الخالدي في التعرف على عدد من الشخصيات العربية؛ فقد اصطحبه لمقابلة محمد كرد علي في دمشق. وهناك التقى كلاً من شكري العسلي، وعبدالوهاب الانجليزي، وعبدالرحمن شهبندر، وجورج بك فاخوري. وقد خرج من هذه اللقاءات مقتنعاً بمدى رغبة العرب في التفاهم مع الصهيونيين. بل جرى الحديث عن موعد ومكان انعقاد مؤتمر يجمع الطرفين. فقرروا عقده في "برمانا" قرب بيروت في ٢تموز (يوليو) ١٩١٤، وسيشترك فيه عشرة مندوبين عن كل طرف(٦٠٣).

كما التقى سوكولوف مع محمد الشنطي محرر "الاقدام" الذي كان يقوم بجولة صحفية في فلسطين وللدعاية لحزب اللامركزية. فضم عدداً من الزعماء الفلسطينيين لصفوفه. وقد توصل سوكولوف إلى أن ينضم لحزب اللامركزية. وقد أبدى الأخير رغبته في السفر إلى القاهرة لمقابلة رفيق بك. لكن حدوث حجر صحي على أهالي يافا منعه من ذلك ، فسافر "سوكولوف" إلى الأستانة. بعد أن أقنعه الشنطي بأن الاتفاق النهائي والرسمي "ينبغي أن يكون بمعرفة عميدنا سعادة رفيق بك العظم بمصر" ويطلب من رفيق بك الكتابة إلى الزهراوي أن يقابل سوكولوف في الأستانة(٦٠٤). وقد أجرى حافظ بك السعيد ، مبعوث يافا، محادثات مع سوكولوف في فلسطين. وفي رسالة منه إلى العظم (رفيق أو

---

(٦٠٢) د. خيرية قاسمية ن.م، ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

(٦٠٣) ن.م،ص ٢٤٣ – ٢٤٤، Mandel, Ibid, P.P. 194-196. د. عبد العزيز عوض. مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث، ص ١٦٤

(٦٠٤) د. خيرية قاسمية. ن.م، ص ٢٤٤ – ٢٤٥

حقي) رداً على رسالة تلقاها منه حول عقد المؤتمر العربي- الصهيوني، أوضح إيمانه بأهمية الاتفاق مع الصهيونيين، واعتبره "أحسن من تركهم يفعلون ما يريدون في الاستانه بواسطة قوة صو، ورشو المتصرفين في جاويد وطلعت" واقترح أسماء شخصيات فلسطينية، لدعوتهم لحضور المؤتمر، فذكر محي الدين الحسيني، أحمد عارف الحسيني، سعيد عبد الحي الحسيني، حسني خيال من غزة، إسماعيل الحسيني، وسعيد الحسيني، مبعوثي القدس وغيرهم[٦٠٥].

وفي الوقت الذي نشطت فيه هذه الاتصالات بعث محمود المحمصاني إلى حقي العظم مستفسراً عن عدة أمور بخصوص العلاقات مع الصهيونيين وملاحظته هو وسائر (الأخوان) على اقتراح رفيق العظم بعقد مؤتمر مشترك.

وكتب رفيق العظم رسالة مطولة بتاريخ ٢٠حزيران ١٩١٤، شرح فيها لمحمود المحمصاني، وجهة نظره في المسألة الصهيونية، وبيّن جذور العلاقة معهم والتي بدأت بقدوم أحد زعمائهم إلى مصر بقصد التعرف إلى أحوال الحركة العربية، وبعدها حضر مؤتمر باريس، وبيّن ما عرضه على هذا الزعيم الصهيوني (هوتشبرغ) حول عدم تمييز الحزب بين أبناء الوطن السوري جميعهم وإذا تجنس اليهود بالجنسية الوطنية تمتعوا بالحقوق والواجبات نفسها التي يتمتع بها أبناء الوطن، وأن يقوموا بتعليم اللغة العربية في مدارسهم، ويسمحوا لأبناء البلاد بدخول هذه المدارس.

ولكن الصهيونيين بعد مؤتمر باريس تفاهموا مع الحكومة فزادت هجرتهم، وشراؤهم للأراضي، فأصبح العرب أمام أمر واقع إذا لم تتخذ فيه كل الوسائل السياسية كان للصهيونيين الغلبة، وكان إليهم مصير فلسطين. "وبيّن أنه لجأ إلى تهديد الصهيونيين بطرق غير التشر، ثم بالنشر، والهدف من ذلك ان يوقنوا" أننا غير نيام وأن الحركة العربية ليست من الضعف بالمنزلة التي يتوهمون، ولا سيما بعد أن عرفوا أن حزبنا في فلسطين هو الذي يُخشى جنبه وهذا أدى إلى الاتصال بالحزب من خلال أعضائه في فلسطين والأستانة.

---

(٦٠٥) د. خيرية قاسمية، ن.م، ص ٢٤٦ .

ولأن رفيقاً يعتقد بأن المسألة الصهيونية أصبحت من المسائل التي لا تُحلّ في الخفاء فقد دعا إلى عقد المؤتمر المشترك مع الصهاينة ، للتوصل إلى حل هذه المسألة على وجه ينفع العرب وينفع فلسطين خاصة وأننا نشتغل بإخلاص لهذا الوطن لا تشوبه شائبة قط ونرجو أن نوفق إلى ذلك.

أما بالنسبة للمعارضة التي قادها نجيب نصار وعيسى العيسى في الكرمل و فلسطين فيرد عليها بقوله: أما كتابة الكرمل وتعريضها بهذا الداعي فليس لها سبب، إلا أن بعض الصحفيين الفلسطينيين من اخواننا المسيحيين ينظرون إلى المسألة من الوجهه التي تخالف وجهتنا لأسباب اتحاشى بسطها وقد ظهر ذلك من صاحب جريدة فلسطين الذي كان في مصر في الأسبوع الماضي ولم يرضه اقتراح عقد المؤتمر؛ إذ ربما كان يرى ان الاتفاق على حل هذه المسألة لا ينبغي أن يدخل فيها غيرهم لأجل ... ولعله هو الذي أوعز لصاحب الكرمل بكتابة ما كتب بشأني.

ويطمئن الحمصي وأخوانه في بيروت بقوله : فكونوا والأخوان جميعاً على ثقة تامة من أننا لا نألو جهداً في تخيرّ أحسن الطرق لمنفعة الوطن وان عنايتنا بالمسألة الصهيونية ما هي الا لأجل الوطن واما اولئك الذين ينظرون إلى مصالحهم الشخصية قبل كلّ شيء أو إلى أهواء نفوسهم التي لا حدّ لها فدعوهم يقولن ما يشاءون ...".(٦٠٦)

وفي الأسئلة تجددت الآمال حول عقد المؤتمر العربي- الصهيوني فبعد أن عاد د. جاكوبسون من أوروبا التقى بأسعد داغر، وأبلغه موافقة الأحزاب الصهيونية جميعاً على فكرة الاتفاق مع العرب وطلب منه إهداء تعظم احترامه الفائق وأن يقترح موعداً مناسباً لعقد المؤتمر. وأورد داغر في رسالته الأسس التي أبدى جاكوبسون موافقته عليها لهذا فقد ألحّ داغر على رفيق بك بأن يكتب له أو لتجيب بك شقير بالتفصيل. أما الأسس التي سيقوم عليها الاتفاق – كما أوردها داغر في رسالته – فهي:-

١- العرب واليهود من جنس واحد ، ولدى كل منهما مزايا متممه للآخر ، فلدى اليهود العلم والمال والنفوذ ولدى العرب بلاد واسعة وقوى هائلة وكنوز أدبية ومادية لا تنضب، والتوفيق بينهما يكون لخيرهما وخير الشرق كله.

---

(٦٠٦) رسالة من رفيق العظم إلى محمود افندي الحمصي بتاريخ ٢٠ يونيو ١٩١٤، انظر الملحق رقم (١).

٢- يقبل العرب استقبال اليهود في البلاد العربية كاخوان لهم مقابل أن يتجنس اليهود بالجنسية العثمانية وعلى أن لا تكون فلسطين خاصة بهم.

٣- يتعهد اليهود بوضع قواهم الأدبية والمادية كلها في خدمة القضية العربية ويؤازرون الأحزاب العربية ويضعون تحت تصرفها ثلاثة ملايين من الجنيهات.

٤- يعقد مؤتمر عربي يهودي في مصر أثناء عودة نواب سورية والعراق من استنبول إلى بلادهم[٦٠٧].

وقد بعث رفيق العظم رسالة إلى اسعد داغر بتاريخ ٣٠/٧/١٩١٤، عبرّ فيها عن وجهة نظره في عملية التفاهم مع الصهيونيين وفكرة المؤتمر العربي- الصهيوني وشروط انعقاده واستهجن احجام جاكوبسون عن القدوم إلى القاهرة للقاء حزب اللامركزية[٦٠٨]، بعد أن كان من مروجي هذه الفكرة ويأسف للحديث الذي قاله سوكولوف لنجيب شقير حول نقص التنسيق بين الإصلاحيين العرب مؤكداً أن هدف الصهيونيين هو إظهار عدم استطاعة حزب اللامركزية فعل شيء. وازدرى اعتقاد سوكولوف بأن القوميين العرب غير منظمين[٦٠٩].

وإن كنا لا نتفق مع رفيق في دفاعه هنا، فقد كانت الحركة العربية فعلاً تعاني انقسامات حادة وخير مثال هو المفاوضات التي كان يجريها سوكولوف في فلسطين وبيروت ودمشق بتنسيق من نقيف الخالدي لم يكن لها أدنى ارتباط بجهود رفيق بك في القاهرة[٦١٠]. كما أن كثيراً من الشخصيات التي تلتقي الصهاينة في الأستانة لا علاقة لها بحزب اللامركزية وتولت التعبير عن وجهات نظر خاصة بها.

وعبّر رفيق في رسالته هذه عن إدراكه لأبعاد المسألة الصهيونية فهي ذات بعدين: الأول : هو المستوى المحلي الفلسطيني ويتوجب اهتمام خاص بأهالي فلسطين والثاني : هو المستوى العربي، فهذه المسألة مرتبطة بمجمل المسألة العربية بشكل عام.

---

(٦٠٧) اسعد داغر، مذكراتي. ص ٤٢- ٤٣. Mandel, Ibid, P.P.197- 198

(٦٠٨) كان حزب اللامركزية قد عرض عن طريق نجيب شقير عضو الحزب على سوكولوف في حزيران ١٩١٤ رغبته في عقد اجتماع مع الصهيونيين في القاهرة. انظر د. عبد العزيز عوض. م.ن، ص، ١٦٤

(٦٠٩) Mandel, Ibid, P. 198-199 .

(٦١٠) Mandel, Ibid, P.194

وحاول تبديد مخاوف الصهيونيين من أن يثير انعقاد المؤتمر غضب الاتحاديين، فهو لن يناقش قضايا سياسية تثير سخط الحكومة العثمانية. وأن غرض المؤتمر التمهيد إلى مصالحة حقيقية، وأشار إلى شرطين مهمين لا بد من توفرهما لموافقته على انعقاد المؤتمر، ولضمان نجاحه:-

١- ضرورة مشاركة شخصيات فلسطينية. وهذا هام لإقناع الفلسطينيين ولأن العمل دونهم لا جدوى منه، وهذا أمر لا بد أن يتفهمه الصهيونيون.

٢- أن تكون المحادثات علنية. وعلى مستوى عالٍ من الشخصيات السياسية القادرة على اتخاذ قرارات[٦١١].

فشل فكرة المؤتمر العربي- الصهيوني:

إن قيام الحرب العالمية الأولى في ١٥ آب ١٩١٤، أسدل الستار على المحاولات الجارية لعقد مؤتمر عربي- صهيوني، يضع تصورات واضحة لأسس التفاهم بين الطرفين. فقد شغلت الحرب العرب واليهود بأعبائها وتحولاتها عن متابعة المفاوضات الثنائية[٦١٢]. وهذا لا ينفي أنه كان لدى الصهاينة أسبابهم الخاصة التي تمنعهم من السير إلى مدىً بعيد في طريق المفاوضات مع العرب، فقد اقتنعوا بأن العرب غير جادين في التفاهم والاتفاق، ويريدون فقط تحقيق مكاسب من العلاقة مع اليهود تتعلق بالافادة من المميزات الأوروبية والأموال والتنظيم والتقدم العلمي الذي يمتلكونه[٦١٣]. وانتقدوا إنعدام التنسيق بين العرب، ووجود اختلافات في آرائهم ومواقفهم من فكرة التفاهم وفكرة انعقاد المؤتمر العربي- الصهيوني[٦١٤]، كما أن اليهود لم يكونوا راضين عن إصرار العرب على أن يشترك في المؤتمر عن الجانب الصهيوني شخصيات سياسية عالية المستوى، مثل سوكولوف و د.جاكوبسون، كما كانت اللجنة الصهيونية تخشى إثارة المشاكل مع الحكومة التركية. يضاف إلى هذا أنها لا تملك مقترحات عملية، تقلّل من

---

(٦١١) Mandel, Ibid P.199.

(٦١٢) د. عبد العزيز عوض، م.س، ص ١٦٦؛ د. خيرية قاسمية م.س، ص ٢٦٢، ص ٢١٨، ٢١٧.

(٦١٣) Mandel, Ibid, P.187

(٦١٤) Ibid, P. 204.

تخوف العرب إلى جانب إصرار العرب على إشراك الفلسطينيين في المؤتمر لتحصول على موافقتهم على أي اتفاقات بخصوص الهجرة وامتلاك الأراضي واللغة والتعليم وغيرها[٦١٥].

ونلاحظ أن جملة من الحقائق والمفاهيم والمبادىء حدّدت طبيعة توجهات رفيق ومواقفه من مسألة الخطر الصهيوني من أبرزها:-

١- لقد اعتبر فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الوطن السوري ومستقبلها ومصيرها مرتبطاً بمستقبل ومصير البلاد السورية، مما ظل يدفعه إلى الاهتمام بمتابعة ما يجري فيها من أحداث وما يحيط بها من أخطار.

٢- حاول الرد على الاخطار المحدقة بفلسطين بوسائل عملية وميدانية بعيداً عن الكلام النظري الذي لا يقدم ولا يؤخر ولا يساهم في الاخطار أو تحجيمها على الأقل. فكان دائم الحث والدعوة إلى نشر التعليم في فلسطين ليستطيع أهلها مجاراة اليهود بعلومهم وتقدمهم الاوروبي. وطالب بتطوير الزراعة ليستطيع الفلاح الفلسطيني الصمود في أرضه ومنافسة المستوطن اليهودي. ولم يكلّ من المناداة بضرورة المحافظة على الأراضي وعدم بيعها واقتراح الوسائل العملية الكفيلة بذلك. كما نبّه إلى ضرورة وقف الهجرة اليهودية وعدم ترك الحبل على الغارب لليهود، وبيّن المخاطر الناتجة عن ذلك.

٣- كان لديه أمل بالافادة من الخبرات اليهودية وتسخيرها لخدمة فلسطين بل والوطن السوري بأكمله.

٤- كان متخوفاً من العلاقة بين حكومة الاتحاديين والحركة الصهيونية، ويخشى من نتائج هذه العلاقة، وكان يشعر بأن الحكومة تتساهل معهم وهي غير أمينة على مصير فلسطين والبلاد العربية.

٥- كان متخوّفاً من حدوث اتفاق بين الاتحاديين والصهاينة بخصوص فلسطين وهذا الخوف دفعه إلى التفكير بضرورة تولي العرب الدفاع عن حقوقهم والتفاوض بشأن مستقبلهم لانهم الأحرص والأخلص، وهذا جعله مؤمناً بضرورة التفاوض والتفاهم مع اليهود !!.

---

(٦١٥) د. خيرية قاسمية، ن.م، ص ٢٥٣.

٦- كان لديه الأمل ببقاء الدولة العثمانية قوية. ويتمتع سكان الولايات بالحكم اللامركزي، ومن بينها ولاية سورية، فيكون اليهود ضمن هذا الوضع أقلية يهودية عثمانية لها حقوق المواطنة، دون أن يؤسّسوا دولة منفصلة أو شعباً متميزاً. كما كان يحدوه الأمل بقيام دولة عربية واحدة في سورية مرتبطة مع بقية البلاد العربية في آسيا فتكون دولة قوية يعيش اليهود داخلها كأقلية لا تشكل أي مصدر للخطر أو التهديد. هذه الثقة بالنفس وبقدرات الوطن الكبيرة التي سوف تجعل اليهود أقلية مندمجة في الوطن وتفيده ما لديها من مميزات أوروبية جعلته لا يخشى كثيراً الخطر الصهيوني لكن آماله هذه لم يصدقها الواقع.

٧- لم يتردد في بعض الحالات أن يعلن صراحةً عن حقيقة موقفه المعادي للمخططات الصهيونية إذا ما حاولت التمادي، وتجاهل العرب وعدم اتخاذهم في عين الاعتبار، كأهل للبلاد قادرون وحدهم على تحديد مستقبلها.

ولا بد من التنبيه إلى جهل رفيق وأصحابه زعماء الحركة العربية آنذاك بالمخططات وبالعقلية اليهودية، مما جعل لديهم الحد الأدنى من الأمل بإمكانية التفاهم معهم أو كسب صداقتهم. كما أننا لا نستطيع الآن في نهاية القرن وبعد طول تجربة مع الصهيونية، أن نحاسب رفيق كما لو أنه عرف ما عرفناه عن أطماع الصهيونية، لكن من المؤكد أنه وكثير من مثقفي العرب وسياسييهم لم يمتلكوا وعياً حقيقياً على الخطر الصهيوني.

٤- نشاطه بعد صدور وعد بلفور

أثار الاعلان عن وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، مخاوف العرب من المخططات الصهيونية، كما عمل على زعزعة الثقة بصداقة الانجليز واخلاصهم لحلفائهم العرب. واشتغل السوريون في مصر بتحليل ابعاد التصريح ونتائجه وأهدافه، لذلك شكّلوا وفداً قابل السلطة العسكرية لمناقشة أبعاد هذا التصريح.

وعبرّ الوفد عن رفضه قيام حكومة يهودية في فلسطين، كما عبرّ عن خشيته من أن لا يمر وقت طويل حتى يهجر أهل فلسطين بلادهم بسبب التفوق اليهودي المالي والاستعماري، واستمرار الصهاينة في شراء الأراضي والأملاك. وقد جاء رد الحكومة بعد بضعة أيام بأن فلسطين لن تكون تحت سيطرة حكومة يهودية وأن حقوق الأهلي

متراعي[616]. كما قام السوريون بإرسال برقية احتجاج إلى بلفور وقعها اكثر من مئتين من السوريين في مصر وبعثوا بنسخة منها إلى الشريف حسين[617].

شكّل السوريون لجنة لمتابعة تطورات المسألة السورية ومن ضمنها فلسطين. سُميت لجنة الاعانه السورية SYRIAN WELFARE COMMITTEE مكوّنة من رفيق العظم ، حقي العظم، فوزي البكري، مختار الصلح، سليمان ناصيف، فارس نمر، خليل زينيه، و.ك. أيوب[618].

وقد أرسل مارك سايكس رسالة إلى لجنة الاعانة السورية، لأنها في نظره المجموعة العربية الواضحة في الشرق العربي التي يهمها أمر مستقبل فلسطين كجزء من سورية، مقدماً نصائحه بضرورة التفاهم بين العرب والصهيونيين والأرمن لتحقيق الحرية لبقية البلاد العربية والأرمنية مؤكداً أن هدف الصهيونية ينحصر في الاستيطان، ومركزاً على ما يجنيه العرب من فوائد لو تم التحالف مع الصهيونية في إحياء الشرق، وما يترتب على عداء العرب لها من عواقب[619].

وعمل كلايتون (Claiton) على تدبير لقاء بين عدد من أعضاء اللجنة السورية مع الزعيم الصهيوني موصيري رئيس اللجنة الصهيونية في مصر، وحث كلايتون الجميع على التحالف على أساس ما اقترحه سايكس في رسالته السابقة[620].

وقد عبرّت لجنة الإعانة السورية في رسالة بعثها سليمان ناصيف إلى سايكس في ١٧/١/١٩١٨ عن اعتقادها بأن أهداف الصهيونيين لا تتعدى حرية الاستيطان،

---

(٦١٦) الكوكب، العدد (١٠٠)، ٢٥ يونيه ١٩١٨، ص ١٠ - ١١

(٦١٧) د. محمود منسي. تصريح بلفور مع قسم خاص عن فلسطين في تقارير بيل الامريكية. دار الفكر العربي، بلات. ص ١٢٦ .

(٦١٨) د. خيرية قاسمية. النشاط الصهيوني وصداه الشرق. ص ٣٣١، د. محمود منسي. تصريح بلفور، ص ٢٦٥.

(٦١٩) ن.م، ص ٣٣٣.

(٦٢٠) ن.م، ص ٣٤٠.

والتمتع بالحقوق المدنية الكاملة، ومشاركة السكان في الحقوق والواجبات[٦٢١]. وهذا يشير بالتأكيد إلى حجم المراوغة والخداع الذي كان الصهاينة يتبعونه في تضليل العرب، وهذه سياسة صهيونية دائمة- كما يشير إلى مقدار جهل اللجنة السورية بطبيعة التفكير والأهداف والأخطار الصهيونية وعلى ما يبدو أنها سياسة عربية دائمة هي الأخرى للأسف.

وعندما جاءت الاخبار من لندن حول عزم اللجنة الصهيونية، على إرسال وفد لزيارة المنطقة العربية، حذر سليمان ناصيف من ردود الفعل التي ستثيرها زيارة اللجنة الصهيونية بين عرب فلسطين. فطلب من كلايتون السماح لأعضاء اللجنة السورية إما بإرسال وفد يمثلهم إلى فلسطين، أو السماح بقدوم وفد فلسطيني للقاهرة، ليتم عرض وجهة نظر اللجنة السورية من قضية التفاهم العربي – الصهيوني[٦٢٢].

رفض كلايتون الفكرة في البداية، ثم اضطرت السلطات البريطانية إلى السماح لوفد يمثل لجنة الإعلنة السورية بزيارة فلسطين بعد وصول اللجنة الصهيونية إليها[٦٢٣].

وبعد وصول البعثة الصهيونية إلى مصر ٢٠آذار ١٩١٨، وفي أجواء مشحونة يسودها خوف الزعماء السوريين من برنامج الصهيونية. قامت السلطات البريطانية بترتيب لقاء بين الزعماء السوريين وبين الوفد الصهيوني برئاسة د.وايزمان (Dr. Weissman) الذي ردّد خلال اللقاء نفس السياسة التضليلية المرتكزة على الخداع، فزعم أن الصهيونيين لا يرغبون في إقامة حكومة يهودية، لأن ذلك سيكون مضراً بالمصالح اليهودية، مؤكداً أن اليهود كجنس عانى الكثير من الاضطهاد في مختلف أرجاء الدنيا، وهم يتمنون سوى إيجاد ملجأ يعيشون فيه أحرار في فلسطين ويجعلونه وطناً قومياً وثقافياً لكل اليهود. وأنه لا نية للتدخل في الأماكن الدينية للمسلمين والمسيحيين[٦٢٤].

---

(٦٢١) د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني وصداه في الشرق، ص ٣٤١، د. محمود منسي، تصريح بلفور ، ص ١٢٩، سليمان موسى الحركة العربية، ص ٤٢٨.

(٦٢٢) د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني وصداه في الشرق، ص ٣٤٤، د. محمود منسي، تصريح بلفور، ص ١٣٤ .

(٦٢٣) د. محمود منسي، تصريح بلفور، ص ١٣٥

(٦٢٤) د. محمود منسي، تصريح بلفور، ص ١٢٩ – ١٣٠، ١٤٠ – ١٤١

في حين طالب السوريون بزيادة مساحة الارض المشمولة بالحماية ضد نزع الملكية، وتأسيس بنك زراعي لدعم الفلاحين. واعترضوا على سوء تصرفات اليهود واعتداءاتهم على أهل القرى. وللأسف خرج الزعماء السوريون مقتنعون بأن الصهيونيين لا يرغبون في فرض حكومة يهودية في فلسطين[٦٢٥].

وبعد هذا اللقاء رفع سليمان ناصيف مذكرة إلى مندوب الحكومة البريطانية المرافق للبعثة الصهيونية - الميجور أورمسبي غور من وزارة الحربية البريطانية -، بتاريخ ٢٩/ ٣/ ١٩١٨ ، تتحدث عن تصور الزعماء السوريين للخطوط الرئيسية التي يمكن أن تستند اليها أية محاولة للتفاهم بين الفلسطينيين والصهيونيين. فهم يتطلعون إلى إبقاء الأماكن المقدسة على وضعها السابق، وأن تتأسس حكومة المستقبل على العدالة والانصاف والمساواة بين جميع العناصر، دون النظر إلى نسبتهم العددية، وتطبيق القوانين على الجميع دون تمييز، وأن يخضع القادمون لقوانين البلد بغض النظر على جنسياتهم وتشكيل لجنة من المسلمين والمسيحيين واليهود بالتساوي للنظر في المشكلات الاقتصادية والسلوكية التي ستستجد ولتعمل على تقوية الروابط بين العناصر المختلفة، وتكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية، والتعليم بها إجباري في جميع المدارس الحكومية والخاصة. واللجنة لا تمانع في بيع أراضي الدولة لأغراض الاستيطان الصهيوني في حال تدفق المهاجرين، مع مراعاة بقاء حصة معقولة من هذه الأراضي للعناصر الأخرى، وضرورة وقف بيع وشراء الأراضي خلال الحرب، وإنشاء بنك زراعي بإشراف الحكومة يقوم بتقديم المساعدة المالية. وصياغة قانون يسمى قانون الفدادين الخمسة ليطبق بفلسطين، بحيث لا يسمح ببيع أرض تقل عن هذه المساحة يمتلكها الفلاح[٦٢٦].

---

(٦٢٥) تقرير بيل رقم (٢٢) بتاريخ ١٨ إبريل ١٩١٨، الثورة في. عمود منسي. تصريح بلفور ص ٢٧٥- ٢٧٦، وانظر- مقال (الصهيونيون والسوريون في مصر) في النشرة العربية ARAB BULLETIN Volume III, 1918, Bulletins 75- 107, No,87, Cairo April 30- 1918.P.137-138

(٦٢٦) د خيرية قاسمية، ن.م، ص ٢٤٨-٢٤٩

ولا شك أن هذه الأفكار هي نفس الأفكار التي ظل رفيق وأصحابه من الزعماء السوريين يدعون لها منذ اشتغالهم بالمسألة الصهيونية منذ سنة ١٩٠٩. وهي مجرد اقتراحات وأفكار يحاولون من خلالها تحجيم الخطر الصهيوني لكن افتقادهم للقدرة على صنع القرار، الذي كان بيد الاتحاديين ثم أصبح بيد الانجليز فيما بعد جعل هذه الأفكار والضمانات غير قابلة للتطبيق. كما أنها – بحد ذاتها – غير قادرة على مواجهة الخطر الصهيوني والحركة الصهيونية الضخمة المدججة بالتخطيط والعقيدة والتآمر والمال والدعم الأوروبي. وبقيت المعالجات السورية للقضية دالة على الافتقار للرؤية الاستراتيجية الواضحة المستندة إلى أسس عقائدية وفكرية راسخة، أو لوسائل عملية نافعة.

وقد علّقت النشرة العربية (ARAB BULLETIN) على موقف السوريين والفلسطينيين عقب هذه المحادثات، فرأت بأنه حدث تحوّل في مواقف الفلسطينيين الذين اتصلوا لأول مرة بيهود أوروبيين. وهناك أمل بزوال الشكوك التي ما تزال في أذهان بعضهم إذا ما استمرت اللجنة في سياسة الاسترضاء. هذا مع ملاحظة ان الفلسطينيين قد بدأوا يميلون نحو فصل أنفسهم عن بقية سورية وأن معظم الانتقاد يأتي من جانب السوريين الذين أخفوا هذه الحقيقة بالتعبير عن اهتمامهم المبالغ، لعدم وجود مصلحة مباشرة لهم في الأمر[٦٢٧].

وبعد وصول البعثة الصهيونية إلى فلسطين، وافتتاحها مكتباً لها في تل أبيب وزيارتها للقدس والتقائها بشخصيات عربية كثيرة، منها إسماعيل الحسيني، وكامل الحسيني، مفتي وقاضي القدس، وعارف الداوودي وغيرهم. ومناقشة مسألة التفاهم بين العرب والصهيونيين[٦٢٨]، ظلت المخاوف تتزايد عند عرب فلسطين. مما دفع السلطات البريطانية إلى السماح لبعثة تمثل السوريين بزيارة فلسطين. ومن المؤكد أن السلطات البريطانية لم تسمح بهذه الزيارة إلا على سبيل الخداع ولتشكّل غطاءً لزيارة اللجنة

---

(٦٢٧) نظر: ARAB BULLETIN, V.III.1918,No.87, April 30.1918,P.138

(٦٢٨) د. خيرية قاسمية، ن.م، ص ٢٥٠–٢٥١، ٢٥٦، ونظر أيضاً: RONALD STORRS, ORIENTATIONS, I IVOR NICHLSON-WATSON LIMITED, LONDON, 1937, P.P.399-400

الصهيونية إلى فلسطين فيبدو الأمر بأن بريطانيا محايدة فهي تسمح للجنتين صهيونية وسورية بزيارة فلسطين!!

تألفت البعثة السورية من: رفيق العظم وسليمان ناصيف ومختار الصلح(٦٢٩)، وكان يحدوها الأمل في التعرف على حقيقة الأوضاع في فلسطين ودراسة ظروفها وأحوال أهلها والوقوف على احتياجاتهم ومطالبهم. وبث روح الأمل والعمل في نفوسهم واشعارهم بوجود من يحسّ من اخوانهم السوريين معهم ويقف بجانبهم.

وهنا لا يخفى أن السلطات البريطانية كانت لها أهدافها أيضاً من السماح لهذا الوفد بزيارة فلسطين فقد أملت في أن ينجح في بث روح الطمأنينة في نفوس الفلسطينيين وان يقوم بالتوضيح للفلسطينيين بأن مصالحهم تكمن في عدم معارضة الصهيونية، وبذلك يحولون دون وقوع خلاف بين اليهود والوطنيين(٦٣٠). هذه كانت توقعات وآمال تعبرّ عن مصالح الانجليز. والثابت أن هذه البعثة السورية لم تكن موفده من قبل السلطات البريطانية لكنها اخذت الأذن بالسفر وعلى مسؤوليتها الخاصة(٦٣١).

ونحن نتفق مع ما ذهب إليه الدكتور عبد اللطيف الطيباوي من أن رجال بمستوى رفيق العظم وصحبه ليس من السهل توجيههم. وأن اللقاء الذي أجروه مع البعثة الصهيونية قد زاد في شكوكهم ومخاوفهم وفي فلسطين مارسوا تقديم التشجيع للأهالي لإظهار احتجاج عملي ضد السياسة الصهيونية(٦٣٢). كما انهم لم يمارسو سياسة التخذيل ضد الاهالي بخصوص التعامل مع اليهود.

غادرت البعثة السورية مصر في أوائل مايو (أيار) ١٩١٨، وأمضت في فلسطين مدة أسبوعين وفي القدس اجتمعت البعثة مع الجنرال كلايتون (Claiton) رئيس إدارة المخابرات البريطانية في القدس، واستفسر أعضاء البعثة منه عما إذا كان أصدر موافقته على البرنامج الذي قدموه للبعثة الصهيونية وما اذا كان يخولهم عقد اجتماعات في يافا

(٦٢٩) د. خيريه قاسميه ن.م، ص ٣٥٩

(٦٣٠) تقرير بيل، رقم (٢٢) ١٨ ابريل ١٩١٨ للتشور في. د. محمود منسي. تصريح بلفور، ص٢٧٨

(٦٣١) تقرير بيل، رقم (٢٩)، ٢٧ مايو ١٩١٨، ص ٢٨٤

(٦٣٢) TIBAWI, IBID, P.266

واذاعة الاتفاقات التي تم وصول الصهيونيين والزعماء السوريين في مصر إليها وكان رده بعدم موافقته على تلك الاقتراحات على اعتبار أن الوقت غير مناسب. لاتخاذ أية خطوات بخصوص مستقبل فلسطين، مع أنه يعتقد بأن مطاليبهم تبدو معقولة بما فيه الكفاية، ولم يخولهم آية سلطة لعقد اجتماعات ومناقشة هذه الأمور مع الأهالي، وأعلمهم أيضاً أنه لا يمنع ذلك[٦٣٣].

واجتمعت البعثة السورية مع عدد من أعيان القدس، وقام أعضاء البعثة بشرح موقفهم الأخير تجاه القضية الفلسطينية، ومنها إرسال برقية احتجاج إلى بلفور والرد الذي جاء عليها من السلطات البريطانية في مصر، والاقتراحات التي تقدم بها السوريون للبعثة الصهيونية وما تلقوه من ردود من وايزمان والماجور أرمسبي غور. وقد شكر الأعيان أعضاء البعثة على جهودهم من أجل فلسطين[٦٣٤].

وفي حفل أقامته الجمعية الوطنية في القدس على شرف أعضاء البعثة السورية، تحدث كل من إسعاف النشاشيبي والشاعر علي الريماوي، وتحدث رفيق العظم عن تاريخ الأمة العربية عبر العصور، واسهامها في الحضارة والعلم والادب ودورها في المدنية، وعن دور الاتراك في تخلفها، وشكر الجنرال اللنبي على تحريره هذه البلاد من "ربقة القاتلين الفجار"! وحثّ الأهالي على الوحدة والتعاون الوطني وتقديم حب البلاد والاخلاص لها على كل حب واخلاص، ووعدهم بان اخوانهم في مصر ينتظرون الفرصة السانحة ليمدوهم بكل مساعدة لتطوير الزراعة والصناعة، ومساعدتهم في التقدم. وتحدث أيضاً القس ابراهيم حداد والسيد مختار الصلح[٦٣٥].

وفي يافا جرى استقبال حافل للبعثة السورية، فقد اعتبرها الأهالي هيئة رسمية جاءت لرعاية مصالح الفلسطينيين على غرار البعثة الصهيونية التي ترعى مصالح اليهود! وعقد اجتماع عام تحدث فيه أعضاء البعثة لأهالي يافا.

---

(٦٣٣) تقرير ييل رقم (٢٩)، ٢٧ مايو ١٩١٨، منشور في محمود منسي. تصريح بلفور، ص٢٨٨-٢٨٩

(٦٣٤) محمود منسي. تصريح بلفور، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٦٣٥) الكوكب، العدد (٩٨)، ١١ يونيه ١٩١٨، ص٢.

وقامت البعثة السورية بسلسلة من النشاطات في يافا، فقد اجتمعت مع الحاكم العسكري البريطاني في يافا، وعرضت حقوق الأهالي وشكواهم من سيطرة اليهود على التجارة، كما اجتمعت البعثة السورية مع نظيرتها الصهيونية برئاسة وايزمان[٦٣٦].

وفي مقر الجمعية الأهلية جرى احتفال تحدث فيه عدد من الأهالي، ثم تحدث رفيق العظم الذي كرر نفس الافكار التي تحدث حولها في خطابه في القدس، ودعا الاهالي إلى العمل الجاد المفيد من خلال تشكيل الجمعيات التي اخبرته السلطات البريطانية بعدم معارضتها لقيامها ، مؤكداً أن زمن الكلام قد انتهى وأن وقت العمل قد أتى، وذكّر بقدرة الأمة العربية على التحمل والبقاء على الرغم من كل الهجمات المعادية. وحاول بث العزم والطمأنينة في نفوس الاهالي، مبيناً أن الجمعيات العربية منتشرة في مصر وأمريكا، وهي مهتمة بمصالح الأمة، وهوّن من خطر الصهيونية، وانها يجب ان لا تعيقهم عن العمل الجاد لتحقيق النهضة في بلادهم، وأن فلسطين لا يُعرف الآن ما هو مصيرها ومستقبلها، ودعا إلى الجد والاجتهاد[٦٣٧]. وسافرت البعثة يوم ٢٢ مايو (أيار) ١٩١٨، من يافا بعد أن أقيم حفل وداع كبير في مركز الجمعية الأهلية[٦٣٨].

وقد تركت هذه الزيارة انطباعات حسنه في نفوس الأهالي اذ رفعت من معنوياتهم فكان من أبرز ما عمله أعضاء البعثة أن قدموا التشجيع للعرب الفلسطينيين لإظهار احتجاج منظّم ضد السياسة الصهيونية[٦٣٩]، كما استطاعت البعثة بعد مباحثاتها مع السلطات البريطانية في فلسطين تقديم تسهيلات للتجار العرب الفلسطينيين لكسر احتكار اليهود لتجارة فلسطين، وقد أقدم الانجليز على ذلك للتخفيف من نقمة الأهالي على الصهاينة[٦٤٠].

وعملت البعثة على تشجيع الأهالي على تنظيم أنفسهم ومجارات اليهود في ذلك، فكان أن أعلن في الأسبوع الأول من شهر حزيران، أي بعد أيام من إنتهاء الزيارة عن

---

(٦٣٦) تقرير بيل رقم (٢٩)، ٢٧ (مايو) أيار، ص ٢٩١-٢٩٣.

(٦٣٧) الكوكب، العدد (٩٧)، ٤ يونيه (حزيران) ١٩١٨، ص ٤-٥.

(٦٣٨) ن.م، ص ٦.

(٦٣٩) Tibawi, Ibid, P.266

(٦٤٠) تقرير بيل رقم (٣٢)، ٨ يونيو ١٩١٨، ص ٣٢٠

تأسيس عدد من الجمعيات في يافا هي "دار العلوم الإسلامية" و "جمعية الشبيبة الباقية" و "جمعية التعاون المسيحي" و "الجمعية الأهلية"، كما أعلن عن تأسيس جمعية مسيحية إسلامية على أسس ومبادىء تهدف إلى مقاومة السيطرة اليهودية، ومنع اليهود من شراء الأراضي. وأعيد في القدس في الوقت نفسه إحياء النادي العربي برعاية الحاج أمين الحسيني "شقيق المفتي كامل الحسيني". وتوالى الإعلان عن جمعيات ومنتديات في الأشهر القليلة التالية في أنحاء مختلفة في فلسطين[٦٤١].

(٦٤١) د. عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ١١٦ – ١١٧ .

الخاتمة:

تبدي هذه الدراسة مدى الحاجة الملحة لمزيد من الدراسات حول جوانب متعددة من تاريخ الحركة الإصلاحية العربية، والكشف عن بعض الزوايا الغامضة في تاريخ أعلامها بشكل خاص.

فالفترة التي عاشها رفيق العظم ١٨٦٥- ١٩٢٥، هي بحق فترة مشبعة بالأحداث السياسية والتيارات الفكرية، وكان رفيق علماً من أعلام الفكر والسياسة؛ ومن المساهمين في صنع بعض أهم تلك الأحداث، وصاحب موقف من هذه التيارات الفكرية إضافة إلى المساهمة في التنظير لبعضها.

كما كان رفيق صاحب هوية فكرية تمتد جذورها إلى أعماق الحضارة العربية الإسلامية، فقد آمن بشمولية الإسلام وقدرته على تقديم الحلول الشافية لمشكلات المسلمين، كما آمن بأن نهضة المسلمين واستعادتهم لدورهم الحضاري الإنساني رهن بمقدار قربهم أو بعدهم من دينهم.

ومن الواضح أن رفيق العظم قد آمن بضرورة إصلاح أحوال المسلمين، وتابع الشيخ محمد عبده في نهجه التربوي في الإصلاح، لكنه قرنه بالعمل السياسي، وظل يؤكد دائماً أن سبيل النهوض هو الرقي بالتربية والأخلاق وتحقيق الإصلاح السياسي.

ولا شك أنه كان مناضلاً سياسياً صاحب رؤية فكرية وسياسية واضحة، فكان ميالاً إلى الاعتدال نابذاً للتطرف في الأحكام والمواقف، مؤمناً بالنهج الإصلاحي التدريجي ومبتعداً عن الفكر والعمل الانقلابي والثوري، فقد كان مصلحاً لا ثورياً.

كان رفيق علماً بارزاً في محيطه، وشخصية عامة بكل المقاييس، فقد كان منشغلاً بالفكر والكتابة، لكنه لم يقبع في أبراجه العاجية ليقتصر على مجرد التنظير الفكري، بل انخرط في تفاصيل الحياة اليومية لأمته، وعمل في الكتابة الصحفية، وفي الجمعيات والأحزاب السياسية، إلى جانب العمل الخيري والتطوعي والنشاط الثقافي والتعليمي بكل أشكاله.

فقد بدأ حياته السياسية مؤيداً لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني ثم انتقل إلى صفوف المعارضة العثمانية لسياسات السلطان، وأيد الجمعيات السرية المطالبة بالدستور.

وفي العهد الدستوري ناصر الإتحاديين ثم عارضهم عندما تجاوزوا كل الخطوط الحمراء في تعاملهم مع العرب. وراح يدافع عن حقوق العرب في الدولة العثمانية، ويطالب بتطبيق اللامركزية والإصلاح تحت راية الهلال العثماني. وظل مخلصاً للرابطة العثمانية، ولم يتقلب عليها إلا بعد أن أصبحت حقائق الحياة وتطورات الأحداث، تدفع باتجاه نهاية الدولة العثمانية. فتحول إلى الفكرة العربية بعد دخول الدولة الحرب العالمية الأولى، وإقدام جمال باشا السفاح على ارتكاب المجازر ضد أحرار العرب في سوريا. وقبل نهاية الحرب العالمية الأولى بقليل ركّز جهوده على المسألة السورية. ونلاحظ أن طموحته وأمانيه وإهتماماته ظلت تسحطها تطورات وحقائق السياسة وتعمل على تحجيمها فانتقل من المطالبة بالاتحاد الإسلامي إلى الدفاع عن الرابطة العثمانية، والمطالبة بالاستقلال العربي ثم أخيراً إلى الاهتمام بوحدة الوطن السوري واستقلاله. وهذا ينطبق على جيله كاملاً.

ومن الملاحظ نلاحظ أنه ظل ينأى بنفسه عن تولي المناصب والمسؤوليات الحكومية، مدة حياته كلها، فلم يسع إلى المناصب، بل سعت المناصب إليه، لكنه رفضها. وظل يؤكد بأن بغيته الحصول على الإصلاح لا على المناصب.

وعلى صعيد الفكر فقد آمن بأهمية الانفتاح الواعي على الحضارات العالمية، والاقتباس الإيجابي عنها، ورفض كل أشكال الاستلاب الحضاري والتبعية الفكرية. وكان من أكثر المتحمسين للحكم الدستوري النيابي وبشّر بأن العالم يسير نحو الديمقراطية، واعتبر أن المقياس الحقيقي لدرجة صلاح النظام السياسي هو مقدار إلتزامه بالحرية، وإبتعاده عن الاستبداد وصيانته لحقوق الإنسان.

وكان رفيق قادراً على تحليل السياسات الأوروبية تجاه العالم الإسلامي وشرح مقدار عداء الاوروبيين للمسلمين واستخدامهم كل الوسائل، وخاصة الإعلام (الصحافة) لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، لتبرير عدوانهم على البلاد الإسلامية. ورأى بأن حديثهم حول حقوق الإنسان وحماية المدنية، هي مجرد وسائل يستخدمونها للتغطية على حقيقة أطماعهم وأحقادهم.

ويمكن القول بأنه كان يمتلك نظرة ثاقبة وقدرة على استشراف المستقبل واستقراء الأحداث، والحكم على الظواهر وتحليلها. فقد كان من أوائل الذين تنبهوا إلى تقدم اليابان ونهوضه، فنادى بضرورة الاقتداء بالتجربة اليابانية، واعتبرها دليلاً قوياً على قدرة الشرق، الذي هو مهد الحضارة على صناعة التقدم فهو ليس حكراً على الغرب.

وكان من أوائل المفكرين العرب الذين أفردوا حيزاً واسعاً، من اهتمامهم للمسألة الاجتماعية، وكان في طليعة المتحدثين عن التصور الإسلامي لمشاكل الحياة الاجتماعية، فطرح فكرة التكافل العام أو التكافل الاجتماعي، لحل مشاكل الصراع الاجتماعي.

وكان من أوائل السياسيين العرب، الذين تتبعوا النشاط الصهيوني في الدولة العثمانية، وبخاصة في فلسطين، وحذر من إهمال التصدي لأطماع اليهود ومخططاتهم وأكد ضرورة إتباع وسائل عملية فعالة في مقاومة هذا الخطر. كما كان من أوائل السياسيين العرب الذين اهتموا بفكرة التفاوض مع الصهيونيين، سعياً للتخفيف من أخطارهم والإفادة من قدراتهم وإمكاناتهم؛ لتطوير الوطن السوري، بعد دمجهم فيه، وهذا من الاجتهادات والمواقف السياسية التي جنبه الصواب حين إتخاذها، فقد ثبت عملياً سوء تقديره لحجم الأطماع اليهودية ولمقدار خداع اليهود ونكثهم للعهود والمواثيق.